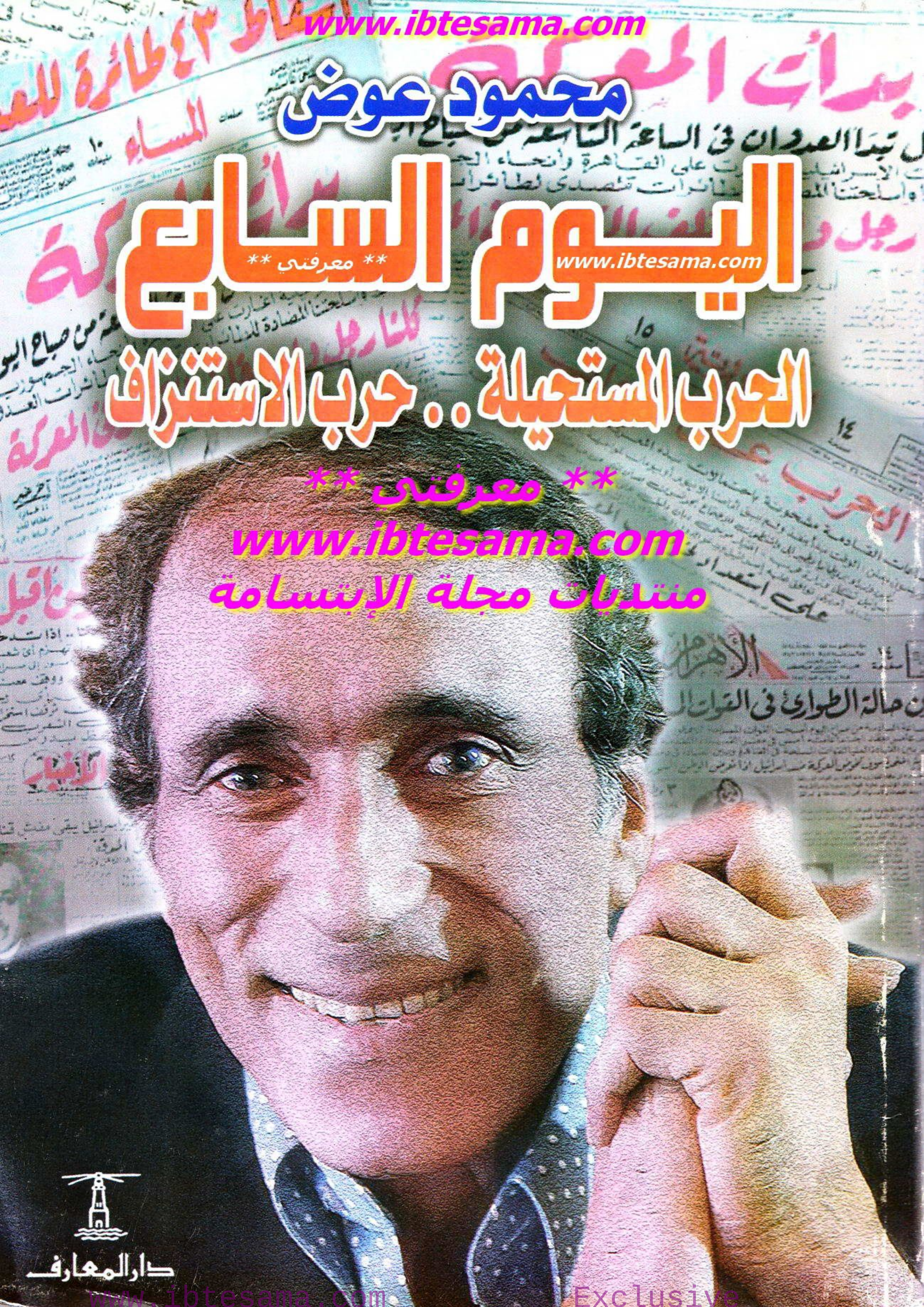


www.ibtesama.com
محمود عوض
اليــوم السابع
** معرفتي ** www.ibtesama.com
الحرب المستحيلة .. حرب الاستنزاف
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
دار المعارف
www.ibtesama.com Exclusive

محمود عوض

اليوم السابع

الحرب المستحيلة.. حرب الاستنزاف

الطبعة الثانية



دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض ، محمود
اليوم السابع الحرب المستحيلة - حرب الاستنزاف / محمود عوض
ط٢ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠١٠
٢٨٤ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك : ٩٧٨-٩٧٧-٠٢-٧٤٣٤-٤
١ - مصر تاريخ - العصر الحديث - جمال عبد الناصر (١٩٥٤ - ١٩٧٠) .
٢ - حرب يونيو ١٩٦٧ .
أ - العنوان

ديوى ٩٦٢,٠٦٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/١١٧٢٨ ١٩ / ١٠ / ٢٠١٠ / ١

تصميم الغلاف: الفنان شريف رضا

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج. م. ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

مقدمة لابد منها

إنها ليســت قضيــة تاريخ مضى..
فالقضية ما تزال معنا حتى الآن.

فيما بين يوليو ١٩٦٧ وأغسطس ١٩٧٠ وقعت فى الشرق الأوسط حرب كبرى قال عنها الأصدقاء والأعداء من البداية إنها (الحرب المستحيلة). لقد أصبحت إسرائيل تحتل سيناء وغـزة والضفة الغربية والجولان، وجيوش مصر والأردن وسـوريا فـى حالة انهيار كامل، ووزير الدفاع الاسـرائيلى يقول علنا: لم يعد أمامنا سـوى الجلوس بجوار التليفون، لكى يستمع العرب إلى شروطنا، والملك حسين يعرف رقمنا!

وفى موسـكو، كانت القيادات السـوفيتية تستقبل اثنين من الرؤساء العرب، هما هوارى بومدين رئيس الجزائر، وعبد الرحمن عارف رئيس العراق، لكى يديروا معهما مناقشات غاضبة ومتفجرة خلاصتها: لقد استولت إسرائيل منكم على أحدث أسلحتنا، وقامت بتسليمها إلى الولايات المتحدة، وهى الآن يتم فحصها والتعرف إلى أسرارها فى معامل البحوث بالولايات المتحدة وألمانيا الغربية، والعرب لا يملكون الآن أية قدرة على القتال، والحل أمامكم هو أن تتفاهموا مع الولايات المتحدة وتعلنوا إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل.

وفى واشـنطن، تلقى الرئيس الأمريكى ليندن جونسـون تقريرا سريا من مستشاره للأمن القومـى عن عملية «قتـل الديك الرومى».. أصبحت السياسـة الأمريكية ترى بمقتضاه أن الفرصـة الذهبية حانت أخيرا لكى تبتلع كل دولة عربية شـعاراتها عن القومية العربية، وتنكفئ على نفسها منعزلة عن الدول العربية الأخرى، وتقبل الحياة فى ظل تفوق عسكرى اسـرائيلى تحت إشـراف أمريكى، وتنفذ ما تمليه إسرائيل عليها من مشروعات تستهدف «التعاون الاقليمى».

أما «الديك الرومى»- جمال عبد الناصر- نفسه المفترض أنه تم قتله. فقد جلس وحيدا فـى بيته بالقاهرة واضعا رأسـه بين كفيه، وفى إحدى اللحظـات تمتم جمال عبد الناصر بكلمات لم يعد بعد ذلك إلى تكرارها، حينما قال: لقد عرفوا.. كيف يصطادونى.

بعدهـا وضع جمال عبد الناصر مسدسـا إلى جـواره، مقررا ترحيل أسـرته فورا خارج القاهرة. فلم يعد يمنع إسرائيل من دخول القاهرة سوى.. سبع دبابات.

وفى العاصمة اليوغسـلافية بلغراد، تلقى الرئيس اليوغسلافى جوزيف بروز تيتو رسالة سـرية من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ليندون جونسون يطلب إليه فيها إبلاغ جمال عبـد الناصر فـى القاهرة بأنه لن يمضى إلى أبعد من ذلك فـى إذلال مصر. ولذلك فليس مطلوبا من مصر أى تفاوض مباشر مع إسرائيل أو اعترافا بها، لكن هذا يعنى- أيضا- أن هناك ثمنا مطلوبا من الدول العربية. ويجب على مصر ألا تعترض عليه.

وفى العاصمة السعودية الرياض، قام الملك فيصل باستدعاء السفير الأمريكى لكى يبلغه بأن السعودية تصر على الانسحاب الاسرائيلى الكامل وفورا من الأراضى العربية، وتطلب الحصول على موقف أمريكى رسمى ومحدد، فى هذا الاتجاه، لكن السفير الأمريكى جاء بالرد فى مذكرة رسمية مكتوبة تقرر فيها الولايات المتحدة أنه لابد من تعديل الحدود على الأقل- بين الأردن وإسرائيل- وهو ما قامت السعودية فورا بإبلاغ الدول العربية المعنية بأنها ترفضه بالكامل.

فى هذا المناخ بدأت «حرب مستحيلة» على جبهة قناة السويس فى مصر بين جيش مصرى وليد، وفى ظل حالة معنوية يختلط فيها اليأس والغضب، وبين احتلال إسرائيلى يملك بالفعل كل وسائل التفوق العسكرى، وينذر بالمزيد.

لقد كان طبيعيا أن تتلقى مصر فى تلك «الحرب المستحيلة»- حرب الاستنزاف- ضربات موجعة من اللحظة الأولى.. إن مصر اضطرت إلى قرار صعب هى التى اختارته لنفسها.. وهو تهجير أربعمائة ألف مواطن خارج بيوتهم، يكفى أيضا أن كل المعونات العربية التى تلقتها مصر فى تلك الفترة كان يتم إنفاقها خلال ثلاثين يوما من السنة. إذا اختصرنا كلمة «التكاليف» إلى حدها الأدنى المتواضع تماما.

لقد تساقط فوق رؤوس المصريين ذات صباح، ولمدة ٢٦ ساعة، عشرون ألف طن من القنابل الإسرائيلية- وهو ما يعادل القنبلة النووية الأمريكية الأولى التى تم إسقاطها على هيروشيما ونغازكى فى الحرب العالمية الثانية- وبعدها أعلنت اليابان استسلامها بالكامل. بلا قيد ولا شرط.

مع ذلك، استمرت تلك «الحرب المستحيلة». لقد سقط الرجل الثانى فى الجيش المصرى الفريق أول عبد المنعم رياض شهيدا فى الخندق الأول على حافة قناة السويس، لكن الشعب المصرى خرج بقيادة جمال عبد الناصر فى جنازته يصر على الثأر.. ويرفض الاستسلام. لقد تلقت مصر إنذارا رسميا من الولايات المتحدة بأن توقف تلك الحرب «فى الحال» و«بلا قيد ولا شرط» حتى لا تتعرض المنشآت الاقتصادية الكبرى فى مصر إلى التدمير الفورى.. لكن مصر مضت بإصرار فى تلك «الحرب المستحيلة» لقد سقط سبعة آلاف من الشهداء المصريين، معظمهم سقطوا على عتبات بيوتهم من القنابل الإسرائيلية التى وصلت إلى مسافة ١٥ كيلو مترا من القاهرة، وبعضهم كانوا أطفالا فى مدارس ابتدائية، لا تتجاوز أعمارهم الثانية عشرة.

بالتدريج، وبتضحيات غالية، بدأت كل الأطراف تعيد حساباتها.

إن الذين خاضوا الحرب من المصريين، مدنيين وعسكريين، لم يكن هدفهم تحرير سيناء، فكما ستثبت الوثائق، كانت سيناء معروضة على مصر رسميا بغير أى قتال ولا قيود، منذ الثانى من نوفمبر سنة ١٩٦٨، لقد كان المقاتلون فى تلك «الحرب المستحيلة» يقاتلون من أجل الضفة الغربية والجولان وحقوق الشعب الفلسطينى، وكانوا يعلنون ذلك صراحة لكل من يعنيه الأمر، وقد كان هذا هو فى الواقع جوهر المشكلة من بدايتها.

لقد جرت فى مصر عواصف كبرى، لكن أسوأ ما فيها هو أنه أصبح ممنوعا الإشارة إلى تلك «الحرب المستحيلة»- حرب الاستنزاف- جملة وتفصيلا، إنها- رسميا- حرب لم تحدث، وشهداؤها لا أسماء لهم ولا ذكر عنهم، بل وفى أحيان عديدة، تجرى السخرية من تضحياتهم.

ومن أجل هؤلاء الشهداء فقط، نعود الآن إلى فتح ملفات تلك الحرب بكاملها، إنها ليست قضية تاريخ مضى، تلك نظرة شديدة السطحية وعميقة الغرض، القضية ما تزال معنا حتى الآن- يكفى أن نعلم مثلا، وبالوثائق أن تضحيات أولئك المصريين، غير المعترف بأسمائهم حتى الآن رسميا، هى التى ضمنت وقتها استرداد الضفة الغربية المحتلة بالكامل، ومعها حق الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم التى شردوا منها فى سنة ١٩٤٨، وهو ما يكافح الجميع للحصول على البعض اليسير منه الآن- بعد ٣٠ سنة-، القضية هى مصر، والضفة الغربية، والجولان، ومستقبل العالم العربى كله، هذا هو ما أسقط أولئك الشهداء المصريين «رجال اليوم السابع» دفاعا عنه.

وبكل التواضع، وأيضا بكل الاعتزاز، أقول: إن النسبة الكبرى من الوثائق التى ستنشر بالكتاب هى وثائق يتم نشرها لأول مرة، بل إننى أزعم أن الحقائق الجديدة التى سيكشف عنها هذا الكتاب- إذا صدقت النوايا- تؤدى إلى إعادة النظر فى كثير من المفاهيم السائدة طوال السنوات الأخيرة، وأتمنى- وأكرر قولى: أتمنى- أن يتقدم أى معترض بوثائق تؤكد غير ما سينشر بهذا الكتاب، وهى وثائق تتيح لنا معلومات ضحى إخوة لنا، وزملاء لى شخصيا بحياتهم.. بغير انتظار لها، لقد كان يكفيهم الاقتناع.. والعزيمة.. والإصرار على حياة أفضل لعالمهم العربى كله.

إننى أرجو أن يحمل هذا الكتاب «الحرب المستحيلة» «اليوم السابع» بعض العزاء لشهداء الجيل الذى أنتمى إليه- فهذا الجيل دفع ثمن تلك الحرب عن اقتناع، وبنفوس راضية

وقلوب مطمئنة إلى صحة القضية التى حاربوا من أجلها. وكثير منهم ضحوا بمستقبلهم. وكثير ضحوا بحياتهم فى سبيلها.

لقد ترك هؤلاء جميعا من البداية وظائفهم التى شغلوها، أو كانوا يحلمون بها، لكى يتقبلوا الحياة لشهور طويلة داخل خنادق فى الصحراء، متناولين طعامهم مخلوطا ببعض الرمال والكثير من شظايا القنابل المتساقطة فوق رؤوسهم.. إيمانا بقضية محددة، سحب البعض إيمانهم بها فيما بعد، قضية.. أن تكون لك كرامة، وأن تعيش مرفوع الرأس، وبالنسبة لهم لم تكن تلك القضية جملة تقال بشكل عابر فى حديث.. أو مزايدة فى خطاب عام، لقد كانت قضية حياة.. أو موت، وقد اختاروا الموت.

إلى هؤلاء أولا.. أهدى الكتاب.

أما الصحف التى تحملت قلمى فى غربته. أوجه إليها شكرى.. فقد كانوا يحثونى على المزيد من المشاركة بعد أن حرمت تعسفا من الكتابة فى جريدتى «أخبار اليوم».

ويبقى الحكم فى النهاية للقارئ.. فمنه فقط، يستمد أى كاتب حيويته وتجدده.

محمود عوض

الفصل الأول

الفخ الإسرائيلى الأمريكى

- ☐ نحن ننسى أحيانا أن الذين يحتلون مركز السلطة العليا فى أى دولة هم فى النهاية بشر
- ☐ إسرائيل أعدت عام ١٩٦٤ خطة حرب يونيو ١٩٦٧
- ☐ لماذا تراجعت تل أبيب عام ١٩٦٠ عن تهديداتها لسوريا؟



قبل الساعة التاسعة بقليل بتوقيت القاهرة، من صباح الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ لاحظ ضباط مصريون من المسئولين عن مراكز الرادار للمراقبة أن شاشات الرادار لم تعد تعطى الإشارات المعتادة، لقد بدا كما لو أن أجهزة الرادار قد تعطلت فجأة ولم تعد شاشاتها ترصد أى شئ فى المدى الذى تتولى مراقبته، إن البعض لجأ إلى الفنيين على الفور لمعرفة ما يجرى، خصوصا بعد أن اتصلوا بزملاء لهم فى محطات أخرى للرادار فسمعوا نفس الشكوى. ولكن قبل أن يتمكن الفنيون من عمل شئ، فوجئ الجميع بأن طائرات معادية فوق رؤوسهم وتلقى بقنابل شديدة الانفجار، وخلال دقائق كان الجميع قد عرفوا أن نفس هذا الهجوم قد وقع على جميع محطات الرادار والمطارات العسكرية المصرية فى نفس الوقت تقريبا.

لقد بدأت إسرائيل حرب يونيو ١٩٦٧.

كما هو متوقع تماما، فإن إسرائيل بدأت هجومها بضربة جوية مركزة على القوات الجوية المصرية لإخراجها من المعركة مبكرا. فى الواقع إن هذا كان هو نفس التنبؤ الذى شرحه جمال عبد الناصر فى اجتماع له مع القيادات العسكرية قبل ثلاثة أيام. ويومها وجه عبد الناصر سؤاله إلى الفريق أول محمد صدقى محمود قائد القوات الجوية: نحن ملتزمون سياسيا بعدم بدء الحرب، لكنى أتوقع أن تبادر إسرائيل بشن الحرب خلال فترة تتراوح ما بين ٤٨ و٧٢ ساعة، بادئة بمحاولة ضرب طائراتنا ودفاعنا الجوى.. فى هذه الحالة كم تقديرك لنسبة الخسائر فى طيراننا. قبل أن نتمكن من رد الضربة الإسرائيلية..؟

و... هنا ساد الوجوم غرفة الاجتماع واعترى العسكريين نوع من القلق والصمت قطعه قائد القوات الجوية، موضحا أن تحول إستراتيجية مصر من الهجوم إلى الدفاع سيؤثر تأثيرا كبيرا فى موقف القوات الجوية.

لقد بدأ نقاش انحصر فى الخسائر المحتملة للقوات الجوية المصرية وإمكانية توفير القدرة لها لشن ضربة مضادة، وقد قدر الفريق أول صدقى محمود الخسائر المتوقعة فى قواته الجوية من ١٥ إلى ٢٠٪ لكنه قال: «إن هذا الإجراء يعنى فقد المبادرة من جانبنا، وربما أدى هذا إلى تكسيح قواتنا الجوية».

وبعد المزيد من المناقشات المستفيضة تم الاتفاق على اتخاذ الإجراءات الوقائية الضرورية فى القوات الجوية المصرية للتقليل من تأثير الضربة الجوية الأولى من إسرائيل وتوفير القدرة

لها لشن ضربة مضادة. وفى الاجتماع وافق المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة على أن «عجز ٢٠٪ من الضربة الأولى ونحارب إسرائيل. أفضل من أن نبدأ الضربة الأولى، ونحارب إسرائيل وأمريكا معا».

إن الأحداث التالية. ابتداء من ٥ يونيو ١٩٦٧ سرعان ما ستثبت الخطأ الفادح والكامل لكلا التقديرين معا- العسكرى والسياسى- فلا خسائر الضربة الجوية الإسرائيلية اقتصرت على ٢٠٪، ولا إسرائيل خاضت الحرب وحدها بغير أمريكا، لكن كان هذا كله لا يزال وقتها فى عالم الغيب.. أما ظاهر الأحداث فلم يكن يؤكد فقط أن الولايات المتحدة ستقف ضد الطرف الذى يبادر بالحرب، ولكنه كان يؤكد أيضا أن احتمال الحرب ذاته يتراجع طبقا للتقدير الامريكى.

استفزازات إسرائيلية

إن الأزمة بدأت من الأصل حينما وجهت إسرائيل تهديدات علنية ورسمية صريحة فى الأسبوع الثانى من شهر مايو ١٩٦٧ بغزو سوريا واحتلال دمشق. وقد جاءت تلك التصريحات لتمثل ذروة سلسلة من التصعيد العسكرى والسياسى ظلت إسرائيل تمارسها منذ ستة أشهر على الأقل، فى أعمال استفزازية وهجمات متزايدة برا وجوا ضد كل من الأردن وسوريا.

وقد سجلت وزارة الخارجية الأمريكية ذاتها من خلال التقارير المتتابعة لقنصلها العام فى القدس «أن التساؤل الذى أصبح مطروحا هو: إلى أى حد سيتحمل السوريون كل هذا الاستفزاز الإسرائيلى، وعند أى نقطة سيفقدون قدرتهم على ضبط النفس».

وفى تلك الفترة أيضا سجلت تقارير مراقبى الهدنة التابعين للأمم المتحدة مشاعر السوريين بالإحباط الشديد من عجز المنظمة الدولية عن عمل أى شىء لإيقاف الاعتداءات الإسرائيلية الصارخة. خصوصا بعد أن أعلن إسحاق رابين رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية فى ١٢ مايو ١٩٦٧: «أننا سوف نشن هجوما خاطفا ضد سوريا. وسنحتل دمشق لنسقط نظام الحكم فيها ثم نعود»، إن ليفى اشكول رئيس الوزراء كان قد سبقه إلى التهديد علنا فى نفس الاتجاه. وهو ما دعا سوريا إلى إبلاغ أعضاء مجلس الأمن الدولى بأن التهديدات الإسرائيلية هى تمهيد لعدوان إسرائيلى واسع النطاق ضد سوريا.

وكانت مصر قد وقعت مع سوريا قبل شهور معاهدة للدفاع المشترك بهدف طمأنتها، ولكن الاعتداءات الإسرائيلية واسعة النطاق سرعان ما جاءت لتثبت للعرب أن يد إسرائيل

هى العليا فى المنطقة. خصوصا حينما شنت إسرائيل هجوما بريا وجويا فى ١٣ نوفمبر ١٩٦٦ ضد قرية «السموع» الأردنية. وهى قرية صغيرة تضم أربعة ألاف نسمة معظمهم من الفلسطينيين.. ثم حينما قامت إسرائيل فى السابع من شهر ابريل ١٩٦٧ بغارة جوية واسعة النطاق ضد سوريا. أسفرت عن سقوط طائرات ميج سورية.

قوات الطوارئ الدولية

وسواء بسبب حالة الذعر السائدة عربيا والتى اتضحت فى اجتماع مجلس الدفاع العربى بالجامعة العربية فى شهر مارس ١٩٦٧. أم لأسباب أخرى خفية. فان الدعايات العربية المتنافسة كانت تقود مواطنيها فى كل مرة إلى فخاخ شديدة الخطورة، تؤدى كلها إلى الإلحاح على فكرة واحدة متكررة: إن إسرائيل تستأسد على الدول العربية المجاورة لأنها واثقة من عجز مصر عن ردعها عسكريا.. ولان مصر منذ سنة ١٩٥٧ تفضل التستر وراء قوات الأمم المتحدة المرابطة على حدودها مع إسرائيل. ولو لم تكن تلك القوات موجودة، ولو كانت مصر طليقة اليدين وغير خائفة من مواجهة إسرائيل، لما جرؤت إسرائيل على تصعيد عدوانها ضد الدول العربية المجاورة، ولا على المرور بسفنها فى المياه الإقليمية المصرية بخليج العقبة.

كانت قوات الطوارئ الدولية تتكون من ٢٣٠٠ جندى وضابط، وقد شكلت أصلا بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٥٦ لكى ترابط بشكل مؤقت على الحدود المشتركة بين مصر وإسرائيل، وهو ما تم فعلا عقب انسحاب الأخيرة من سيناء وغزة بعد فشل عدوانها المشترك مع بريطانيا وفرنسا ضد مصر، وهو العدوان الذى تم أصلا عقابا لمصر على قيامها بتأميم قناة السويس.

وكان القرار الأصلى بتشكيل قوة الطوارئ الدولية يقضى بمرابطتها على الجانبين- المصرى والإسرائيلى- من الحدود. لكن إسرائيل رفضت من البداية قبول أى قوات لديها من الأمم المتحدة. وهكذا استقر الحال بتلك القوات على الجانب المصرى من الحدود، فضلا عن شرم الشيخ وقطاع غزة.

ولم تكن قوات الأمم المتحدة هذه تمثل عائقا سياسيا أو عسكريا ضد مصر فى أى وقت، فهى قوات رمزية تمثل فقط الثقل المعنوى للأمم المتحدة كمنظمة دولية، كما أن وجودها من عدمه فى المواقع المقررة لها يتوقف تماما على إرادة مصر.

إسرائيل تراجعت عام ١٩٦٠

وقد حدث فى سنة ١٩٦٠ على سبيل المثال أن وجهت إسرائيل تهديدا ضمنيا إلى سوريا فى وقت كانت سوريا مرتبطة فيه مع مصر بوحدة سياسية فى دولة واحدة تحمل اسم «الجمهورية العربية المتحدة». وقتها طلبت مصر من الأمم المتحدة سحب قواتها مؤقتا من مواقعها على الحدود المصرية مع إسرائيل، وحركت مصر إلى سيناء ثلاثا من فرقها المسلحة، من بينها فرقة مدرعة. لكى تكون مستعدة لمواجهة الموقف فى حالة مبادرة إسرائيل بأى عمل عدوانى فى الجبهة السورية.

لقد فوجئت إسرائيل وقتها تماما بالتحرك المصرى، ولم تكتشفه إلا بعدها بثلاثة أيام، فاضطرت إلى التراجع فورا، واضطر رئيس وزرائها إلى القيام بزيارة عاجلة إلى واشنطن حيث أصدر البيت الأبيض بيانا رسميا يذكر فيه العرب بأن البيان الثلاثى- وهو البيان البريطانى الفرنسى فى سنة ١٩٥٠ بشأن ضمان حدود إسرائيل «لا يزال قائما».

وبعد تراجع إسرائيل بنحو شهرين فى سنة ١٩٦٠، عادت القوات المصرية إلى مواقعها الأصلية، كما عادت قوات الأمم المتحدة إلى مواقعها على الحدود وانتهت الأزمة.

الأمر مختلف عام ١٩٦٧

ولعل نفس هذا التفكير هو الذى دفع مصر إلى عمل نفس الشىء فى شهر مايو ١٩٦٠ كمحاولة لامتصاص التهديدات الإسرائيلية ضد سوريا. لكن الأمر اختلف فى هذه المرة من ثلاث زوايا:

أولا: كانت مصر مشغولة عسكريا فى اليمن، حيث أصبح نحو ربع الجيش المصرى مرابطا هناك منذ ١٩٦٢ لتدعيم الثورة الجديدة هناك فيما بدا عمليا أنه تورط تدريجى متزايد بدأ بمائة جندى مصرى وانتهى بستين ألف.

وثانيا: أن إسرائيل كانت ترى منذ سنة ١٩٦٤ على الأقل أن أمامها مجموعة ظروف عسكرية وسياسية تمثل فرصة ذهبية لابد من انتهازها لتوجيه ضربة ساحقة ضد الجيش المصرى. فى الواقع أن الخطة التفصيلية لحرب ١٩٦٧ الوشيكة ضد مصر قد تم وضعها فى سنة ١٩٦٤ ويسجل المؤلف الصهيونى وولتر لاكير صراحة: «إن حرب ١٩٦٧ جرى خوضها طبقا لخطة تفصيلية تمت الموافقة عليها منذ ثلاث سنوات سابقة».

إن الجنــرال بارليف أدخل عليها بعض التغييرات ولكنها ظلت من الناحية الأساسية هى نفس الخطة التى أعدها الجنرال رابين منذ سنة ١٩٦٤.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تقديرات المخابرات الإسرائيلية تشير إلى أنه بحلول سنة ١٩٧٠ أو ١٩٧١ على أكثر تقدير. سيكون الجيش المصرى قد وصل حجما وتسليحا وتدريبا إلى القدر الذى يصبح فيه قادرا على التصدى لإسرائيل وإلغاء صورتها الرادعة فى المنطقة، أما قبل ذلك التاريخ فلن تكون المواجهة العسكرية مع إسرائيل فى صالح مصر.

وثالثا: أن الولايات المتحدة بدأت منذ تولى ليندون جونسون السلطة فى البيت الأبيض عقب اغتيال جون كينيدى فى سنة ١٩٦٣، تتخذ موقفا تصادميا من التيار القومى فى العالم العربى الذى تمثله مصر.. بعكس سنوات التفاهم الناضج فى عهد كينيدى، وأصبح الرئيس الجديد وهو أصلا وثيق الصلة بإسرائيل منذ سنوات الخمسينات، يعد إسرائيل سرا لتكون أداته التنفيذية لتعديل الأوضاع القائمة فى الشرق الأوسط وخصوصا من أجل ضرب وتحجيم مصر.

وهكذا فإن المساعدات الأمريكية التى حصلت عليها إسرائيل فى سنة ١٩٦٤ ضمن آخر ميزانية أقرها جون كينيدى قبل اغتياله لم تتجاوز أربعين مليون دولار. وفى سنة ١٩٦٥ قفز هذا الرقم إلى ٧١ مليون دولار، ثم قفز مرة أخرى فى سنة ١٩٦٦ إلى مائة وثلاثين مليون دولار. أما الأكثر دلالة من ذلك فهو التغير الذى جرى فى مضمون تلك المساعدات، فحتى سنة ١٩٦٤ لم تكن المساعدات الأمريكية لإسرائيل تتضمن أية مساعدات عسكرية فيما عدا خمس بطاريات من صواريخ «هوك» للدفاع الجوى قيمتها ٢١ مليون دولار حصلت عليها إسرائيل سنة ١٩٦٣، أما فى ظل رئاسة جونسون فقد بدأ أولا بوضع ترتيبات سرية لتمويل صفقة ضخمة من الدبابات لحساب إسرائيل من ألمانيا الغربية، والأهم من ذلك أنه لأول مرة تقوم الولايات المتحدة مباشرة بإعطاء إسرائيل مائتين وخمسين دبابة حديثة من طراز «أم ٤٨» المعدلة، وثمانية وأربعين طائرة سكاى هوك الهجومية المتطورة، بالإضافة إلى معدات الكترونية متطورة أخرى.. وكلها أسلحة هجومية بحيث تتمشى مع الدور الأقليمى الجديد المقرر لإسرائيل سرا.

وكان هذا كله يجرى فى الوقت الذى تتمتع فيه إسرائيل بعلاقة عسكرية خاصة مع فرنسا مستقرة منذ سنوات الخمسينات، وتضمن لإسرائيل بمقتضاها الحصول أولا بأول على كل احتياجاتها من طائرات «الميراج».

وكان هذا كله يجرى أيضا فى الوقت الذى قرر فيه جونســون قطع معونات القمح عن مصر فى سنة ١٩٦٥، وهى التى كانت منتظمة منذ سنوات جون كينيدى، كما أنه حاول إرغام مصر على قبول تفتيش أمريكى على صناعاتها العسكرية.

اتفاق سرى بين جونسون واشكول

علــى أن أخطــر خطوة أمريكية غير معلنة قام بها جونســون فى هــذا الاتجاه، كانت فى توصله فى يونيو ١٩٦٥ إلى اتفاق ســرى مع ليفى اشــكول رئيس وزراء إسرائيل هدفه: «ترتيب عمل مراجعة دورية مشتركة بين الولايات المتحدة وإسرائيل للموقف العسكرى فى الشــرق الأوسط، بما يتجاوز التبادل المعتاد فى معلومات المخابرات. وفى الحقيقة فإن هذا ســيكون شــكلا من التخطيط التفصيلى لحالات الطوارئ التى سيصبح وقوعها (فى الشرق الأوســط) أكثر احتمالا. على الرغم من أن الأمريكيين كانوا متلهفين لتجنب استخدام هذا التعبير.

وفيمــا هذا الاســم فقط، فإن هذا الاتفــاق كان أقرب ما يمكن إلى «التخطيط العســكرى المشترك».

وقد كانت هذه الخطوة شــديدة الســرية وقتها وتعنى تطورا نوعيا خطيرا فى العلاقات الأمريكية الإســرائيلية، بما سيجعلها العنصر الحاسم فيما سيجرى فى المنطقة من أحداث بعد ذلك.

إن إســرائيل قبلهــا كانت تحتاج فى كل مرة إلى التباحث مــع الولايات المتحدة حول كل صفقة عســكرية على حدة.. ثم المســاومة هنا وهناك، لكن من الآن فصاعدا.. أصبحت إســرائيل تحصل علــى احتياجاتها العســكرية بطريقة روتينية، ومــن خلال قنوات غير معلنة، ومما يسمح لها بالتفوق على القوات العسكرية لكل الدول العربية مجتمعة.

وعلى حد تعبير المؤلف اليهودى الصهيونى جون كيمش فإن: الأمريكيين أصبحوا جزءا من النظام الإسرائيلى للحصول على الأسلحة. والشىء المهم الأن لم يعد هو إزعاج الرئيس الامريكى بين وقت وآخر بالطلبات المســتمرة كما كان يحدث فى الماضى، ولكن أن تصبح المباحثات مع الرئيس مخصصة لمشاكل السياسات العامة. مثل كيفية ملء الفراغ فى الشرق الأوسط مع رحيل البريطانيين واضمحلال النفوذ الغربى بالمنطقة.

هروب الميج ٢١

وبالرغم من أن كل تلك الترتيبات كانت فى معظمها شديدة السرية فى حينها ولم يقدر لبعضها الخروج إلى الضوء إلا بعد سنوات طويلة . إلا إنه كانت تظهر بين وقت وأخر بعض الإشـارات المتقطعة المفاجئة التى يمكن أن توحى باتجاه الأحداث، وعلى سـبيل المثال. فى شـهر أغسـطس ١٩٦٦ نجحت شبكة مشـتركة من وكالة المخابرات الأمريكية وجهاز المخابرات الاسـرائيلى (الموسـاد) وحلف شمال الاطلنطى فى إغراء طيار عراقى بالهروب بطائرتـه «الميـج ٢١» من بغـداد إلى تركيا شمالا ثم إلى إسـرائيل، مقابـل تهريب عائلته وخادمها اليهودى العراقى الذى كان وسيط الصفقة من البداية . وثلاثمائة دولار «يعادل فى حينهـا مليون جنيه». لقد أصبحت طائرة الميج- ٢١ هذه صيدا ثمينا تريد جميع الأطراف فك أسراره على الفور، حيث إن الأمريكيين يواجهونها فى حربهم بفيتنام، وحلف شمال الاطلنطى يطور دفاعاته الجوية ضدها فى المسـرح الأوروبى. وإسرائيل تكشف بها العمود الفقرى فى تسليح القوات الجوية بكل من مصر وسوريا والعراق.

لقـد كان هـذا حدثا خطيرا، ولكن البعض فى العالم العربى تصوره شـيئا منفصلا قائما بذاته، دون أن يتصوره مؤشرا غير مسبوق لما هو قادم من أحداث.

الزائر الدائم

ومع مطلع سـنة ١٩٦٧ أصبح ريتشـارد هلميز مدير المخابرات المركزية الأمريكية زائرا متكررا لإسرائيل وكل من مائير اكيت رئيس المخابرات السرية الإسرائيلية «الموساد» واهارون باريف رئيس المخابرات العسكرية زائرين متكررين لواشنطن. وكلها بالطبع كانت زيارات ومشاورات شديدة السرية ولابد من إخفائها، ليس فقط عن المصريين والعرب والعالم. ولكن حتى عن أعضاء مجلس الوزراء الإسرائيلى ذاته . فيما عدا ليفى اشكول رئيس الوزراء.

لقد أصبح التخطيط المشترك يمضى فى مجراه ضمن قنوات خفية تربط القيادات العسكرية الإسرائيلية مع واشنطن، ومستقلا عن العلاقات الرسمية القائمة . أما فى الجانب الأمريكى فلم يكن يعلم بما يجرى فى القناة الخفية سـوى الرئيس جونسـون نفسـه ، ووالف روستو مستشـاره للأمن القومى واليهودى الصهيونى المتعصب تماما لإسرائيل. ثم حفنة قليلة من أصحاب المراكز العليا فى وكالة المخابرات المركزية والبنتاجون.

و.. مع سنة ١٩٦٧ أصبحت إسرائيل.. شريكا مرغوبا فيه- من الناحية العسكرية- طبقا للتقدير الأمريكى فى ظل رئاسة ليندون جونسون.

عملية قتل الديك الرومى !

كان ليندون جونسون قد وصل إلى منصب الرئاسة فى الولايات المتحدة فى مفارقة قدرية نادرة، بينما جرى اغتيال الرئيس جون كينيدى فى مدينة دالاس الأميركية فى نوفمبر ١٩٦٣. بحكم الدستور الأميركى يتولى نائبه الرئاسة على الفور ويظل يشغله حتى الانتخابات التالية، ومع أن نائب الرئيس فى الولايات المتحدة يتم انتخابه مع الرئيس فى بطاقة انتخابية واحدة، إلا أن الخبراء يعرفون أن منصب نائب الرئيس فى النظام الاميركى يكاد يكون مجرد منصب شرفى خال تماما من المضمون الحقيقى للسلطة، فهو بلا اختصاصات على الإطلاق سوى ما يتفضل به الرئيس. وهو فى الغالب بعيد عن القرارات الكبرى. إلى درجة أن أحد الوعود الثابتة فى البرنامج الانتخابى لكل مرشح جديد للرئاسة هو، أنه سيعطى لنائبه اختصاصات حقيقية.

وقد أصبح ليندون جونسون رئيسا للولايات المتحدة وهو لا يكاد يعرف شيئا عن السياسات الخارجية، وكانت أول خطوة فعلتها إسرائيل فورا هو نقل أحد رجال المخابرات السرية إلى واشنطن ليشغل وظيفة الرجل الثانى فى السفارة الإسرائيلية تحت ستار لقب «وزير مفوض».

كان هذا الرجل اسمه «ابى ايفرون»، وقد سبق له أن شارك فى تخطيط عملية سرية للتخريب الداخلى فى مصر سنة ١٩٥٦، وتحولت فيما بعد إلى فضيحة تعرف باسم «فضيحة لافون».

وكان سبب نقل ايفرون إلى واشنطن هو أنه: «صديق حميم لجونسون» منذ سنين مبكرة.. ولذلك فقد كانت العلاقة الحقيقية لجونسون مع إسرائيل- بعد أن أصبح رئيسا- تتم من خلال ايفرون على وجه الخصوص، وحينما ذهب أبا ايبان وزير خارجية إسرائيل إلى واشنطن فى الأسبوع الأخير من مايو ١٩٦٧ ليتعرف إلى موقف الرئيس جونسون فوجئ بأن جونسون ظل يتهرب من مقابلته، ثم فوجئ أكثر وأكثر حينما ذهب أخيرا إلى البيت الأبيض ليجد الرئيس جونسون مجتمعا مع ايفرون بمفردهما منذ ساعة تقريبا!

ونحن ننسى أحيانا أن الذين يحتلون مراكز السلطة العليا فى أى دولة هم فى النهاية بشر. ثم ننسى أكثر وأكثر تلك الحقيقة حينما يكون الحديث عن بشر يتولون مراكز السلطة العليا فى دولة عظمى بهذا العالم.. لأن صورة الدولة العظمى هنا تضيف بريقها إلى من يشغلون المراكز العليا بها.

حسنا.. ليندون جونسون كان بشرا، لقد جاءت به الظروف ليصبح رئيسا للولايات المتحدة وتحت يديه أزرار يمارس بها سلطة ونفوذا وثروة، وقوة الولايات المتحدة فى مناطق عديدة من هذا العالم، ولعل من المفيد هنا أن نترك الحديث لمؤرخ حياته، الصحفى الامريكى روبرت كارو، الذى قرر التفرغ عدة سنوات ليكتب سيرة حياة ليندون جونسون. إن روبرت كارو يقول «لقد تصورت أننى سوف أحب ليندون جونسون. لقد تصورت أنه رجل فقير جدا، وغير متعلم، وظل يكره الكتب والتعليم طوال حياته، وكان فظا بشكل ما، ولكننى تصورت أيضا أن فى قلبه يوجد أحد الأشياء العظيمة المحركة وهو أن يساعد الناس الذين ولد بينهم، تصورت أن هذا هو الرجل الذى سأكتب عنه، وأننى سوف أستمتع بالمهمة، ولكن بعد وقت قصير من بدايتى فى العمل. أدركت أن هذه الصورة لدى كانت ناقصة وقاصرة بشكل ملموس. هذا رئيس لم يعرفه أحد.

لقد واصل الصحفى الأميركى جهده وتحرياته، وقام باستجواب العشرات من أصدقاء جونسون ومعارفه، ثم «لقد كلمونى جميعا عن نفس الشىء: المال.. وأحدهم قال لى محذرا: إنك لن تستطيع مطلقا أن تكتب هذا «عن جونسون» لأنك لن تجد مطلقا أى شىء من هذا مكتوبا أو مسجلا على ورق.

رئيس فاسد

لكن الصحفى الامريكى لم ييأس واستمر شهرا بعد شهر وسنة بعد سنة يجمع المعلومات ويتحرى الوقائع. وفى الجزء الأول فقط احتلت تلك الوقائع تسعمائة صفحة كاملة. أما الخلاصة عن ليندون جونسون الرئيس رقم ٢٦ فى التاريخ الامريكى. والذى هو الشخصية الرئيسية فى حرب يونيو ١٩٦٧ بالنسبة لنا. هى أنه أكثر رؤساء أميركا فسادا. لقد وصل إلى منصب الرئاسة بفعل صدفة درامية هى اغتيال رئيسه جون كيندى، ولكن: «إذا كانت السلطة مفسدة.. فإنها لم تمارس تلك المهمة مع لندن جونسون، إن السلطة لم تستطع أن تفسده. لأنه كان فاسدا قبل وقت طويل من وصول السلطة إليه».

وهذا الشـخص الفاسـد من قمة رأسـه إلى أخمص قدميه. والذى كانت نقطة ضعفه من البداية هى جمع المال من أى طريق وباية وسيلة، أصبح هو المقدر له أن يعبّر عن السياسة الأميركية فى منطقتنا فى تلك السنوات الحاسمة من الستينات.

وكان من الملفت للنظر فى هذا السـياق أن الرئيس الأميركى- هذا الرئيس الفاسـد- قد اختار ثلاث شـخصيات محددة تمسـك فى يديها بخيوط السياسـة الأميركية فى الشرق الأوسـط، إنهم.. آرثـر جولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة فى الأمـم المتحدة.. والإخوان، والت روستو مستشاره للأمن القومى، وشقيقه برجين روستو وكيل وزارة الخارجية للشؤون السياسـية.. والثلاثة ليسوا يهودا فقط، ولكنهم من غلاة الصهيونيين الأميركيين المتعصبين لإسرائيل، والكارهين لكل ما هو عربى فى هذا العالم.

مصر لم تطلب سحب القوات الدولية من غزة وشرم الشيخ

وهكذا فإن اتجاه إسـرائيل إلى تصعيد الأحداث طوال الأشـهر الأخيرة من سـنة ١٩٦٦ والأشـهر الأولى من سـنة ١٩٦٧ لم يكن آتيا من فراغ، على الرغم من أن ظاهر الأحداث فـى وقتها لم يكن يوحى فى النظرة الأولى بخطورة الفخ الذى يتم دفع مصر إليه.. وحينما حركت مصر بعض قواتها إلى سيناء فى مايو ١٩٦٧ وطلبت من الأمم المتحدة سحب قواتها مؤقتا من الحدود المشـتركة مع إسـرائيل، فإنها لم تطلب بالمرة سحب القوات المرابطة فى شـرم الشـيخ. أو فى قطاع غزة، لأن الهدف المحدد فى البداية كان هو امتصاص التهديد الإسرائيلى المعلن ضد سوريا.

لكن يوثانت سكرتير الأمم المتحدة فى١٩٦٧ كان غير داج همرشولد سكرتيرها العام فى سنة١٩٦٠. فبعد استشارة مساعده رائق بانش (وهو أيضا وثيق الصلة بإسرائيل) رد يوثانت على مصر علنا: إما أن تنسحب قوات الأمم المتحدة من الحدود ومن شرم الشيخ وقطاع غزة بالكامل ونهائيا، وإما لا تنسحب نهائيا.

وكان معنى ألا تنسحب قوات الأمم المتحدة مطلقا. بعد هذا الموقف العلنى، هو أن تصبح قوة احتلال فى مصر، ولذلك تلقى يوثانت الرد الذى يريده من البداية: فتنسـحب قوات الأمم المتحدة من كل المواقع ونهائيا.

بعدها فقط طلب يوثانت زيارة القاهرة للتشـاور، وبعد أربعة أيام، حتى يكون انسحاب قوات الأمم المتحدة قد أكمل!، وقد ظلت شـرم الشـيخ على سبيل المثال بلا حراسة، بعد

أن انسحبت منها قوات الأمم المتحدة المكونة من ٣٢ جنديا. وظلت على هذا النحو لأربعة أيام. إلى أن قررت مصر نقل إحدى وحداتها العسكرية للمرابطة هناك، وأصبحت تلك الخطوة بدورها تعنى أن تغلق مصر خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية.

كانت قضية خليج العقبة شبه محفوظة فى كواليس الأمم المتحدة، فقد سبق لمصر أن أغلقته أمام الملاحة الإسرائيلية منذ سنة ١٩٥١ وظل كذلك حتى حرب ١٩٥٦. وطوال ذلك لم تفلح إسرائيل فى استصدار قرار من الأمم المتحدة يسمح لها بالملاحة فى الخليج لأن القانون الدولى يكفل لمصر حقها فى فرض سيادتها الكاملة. حيث هو مياه إقليمية مشتركة بينها وبين مصر والسعودية والأردن، وإذا كانت إسرائيل قد استولت على قرية «أم رشرش» المطلة على رأس الخليج وحولتها إلى ميناء اسمه «ايلات». فإنها فعلت ذلك انتهاكا لاتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩ وضد كل معايير الشرعية الدولية بما فيها حدود إسرائيل التى كفلها لها قرار تقسيم فلسطين من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٧، وفوق كل هذا فقد كانت حالة الحرب قائمة رسميا بين مصر وإسرائيل.

لكن إسرائيل ظلت تستخدم خليج العقبة فى الملاحة منذ سنة ١٩٥٧، كأمر واقع يرتبط بسكوت أو عدم سكوت مصر عليه.. والآن فمع عودة القوات المسلحة المصرية إلى شرم الشيخ فى مايو ١٩٦٧ فقد أرادت مصر أن تصفى هذا الأمر الشاذ المتخلف عن العدوان الثلاثى ضدها فى ١٩٥٦ معتمدة على حقها الثابت طبقا للقانون الدولى.

كان الرئيس الاميركى ليندون جونسون أصدر على الفور بيانا رسميا يدين فيه إغلاق مصر لخليج العقبة. ومن تلك اللحظة فصاعدا نسى الجميع فجأة كل ما يتعلق بتهديدات إسرائيل المعلنة ضد سوريا، وأصبحت القضية هى: إغلاق خليج العقبة.

تعهد رسمى من ديجول

وفى زيارة يوثانت إلى القاهرة عرض عليه جمال عبد الناصر أن تحال القضية إلى محكمة العدل الدولية.. ولأن كلا من الولايات المتحدة وإسرائيل تعرفان بالضبط أن القانون الدولى فى صف مصر. فقد تجاهلتا هذا الحل بعد ذلك تماما.

لكن يوثانت، وتحت عنوان العمل على تهدئة الموقف طلب من مصر أن تتعهد من جانبها بعدم شن حرب ضد إسرائيل. إن مصر لم تستجب لهذا الطلب من يوثانت فقط، ولكنها استجابت لهذا الطلب من الرئيس الفرنسى شارل ديغول. وكذلك من الرئيس

الاميركى ليندون جونســون، والذى قدم من جانبه تعهدا رسميا إلى مصر باســم الولايات المتحدة فى الرسالة التى بعث بها إلى جمال عبد الناصر بتاريخ ١٢ مايو ١٩٦٧ وجاء فيها إنه: «فى الموقف الحالى فان حكومة الجمهورية العربية المتحدة، وكذلك الحكومات العربية الأخــرى. تســتطيع أن تعتمد على التأكيد بأن حكومة الولايــات المتحدة تؤكد معارضتها الصلبة لأى عدوان فى المنطقة، فى أى شــكل علنى أو ســرى، تقوم بها قوات عسكرية أو مجموعات غير نظامية».

وقال جونســون فى نفس الرســالة أيضا: «إننا نؤمن بأن اتفاقيات الهدنة العامة- بين إســرائيل والــدول العربية- تظل هى أفضل أســاس للمحافظة على الحالة الســلمية عبر الحدود».

وفــى تقريره الــذى قدمه إلى مجلس الأمن الدولى بتاريخ ٢٧ مايو ســجل يوثانت أمرين بالغى الأهمية: فأولا: أن الأزمة الحالية يمكن أن تنتهى لو أن إسرائيل قبلت قوات الأمم المتحــدة فى جانبها من الحدود مع مصر، خصوصا وأنها من الأصل قوات مشــكلة لترابط على الجانبين، ولكن كررت للسكرتير العام رفضها الكامل لاى قوات من الأمم المتحدة.

وثانيا: أن مصر تعهدت بوضوح بألا تكون البادئة بأى أعمال عسكرية ضد إسرائيل.

فى نفس اليوم لجأ جونسون إلى حيلة أكثر فعالية، فبعد أن حصل من مصر مباشرة على تعهــد بعدم بدء الحرب، متعهدا مــن جانبه بأن تكون الولايات المتحدة ضد الطرف الذى يبدأ بالعدوان، بعث إلى الســوفيات برســالة عاجلة يطلب منهم فيها مشــاركته فى حث مصر على عدم شــن الحرب لأنه يفعل نفس الشيء بالنسبة لإسرائيل، وحينما نقل السفير السوفياتى الرسالة السوفيتية مصحوبة برسالة جونسون إلى الرئيس جمال عبد الناصر فجر يــوم ٢٨ مايو، أصبحت هنــاك أربعة أطراف تعرف على وجــه التأكيد بأن مصر لن تبدأ الحرب. وهى: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا والأمم المتحدة.

مبعوثان من جونسون

لكن ليندون جونسون لم يكتف بذلك، لقد أوفد إلى القاهرة مبعوثين، أحدهما فى مهمة معلنة وهو الســفير تشارلز بوست ممثلا لوزارة الخارجية الأمريكية، والآخر فى مهمة غير معلنة وهو روبرت اندرســون الوزير الأسبق فى عهد إيزنهاور، وكانت لغة المبعوثين واحدة ولكن بلهجتين متكاملتين: أن الأزمة فى طريقها إلى الحل ســلميا.. وأن الرئيس جونسون

يقترح لذلك إيفاد نائبة هيربرت همفرى إلى القاهرة للتباحث مع الرئيس جمال عبد الناصر، أو إيفاد مندوب على مستوى عال من جمال عبد الناصر إلى واشنطن للاجتماع مع الرئيس جونسون.

ووافق عبد الناصر على الاقتراحين، واختار من جانبه زكريا محى الدين، الذى حدد البيت الأبيض موعدا لاستقباله فى واشنطن يوم الأربعاء- ٧ يونيو- ولقد غادر المبعوثان القاهرة يوم الجمعة- ٢ يونيو- بعد نجاحهما فى مهمتهما، لكن القاهرة سرعان ما ستكتشف - ولكن من خلال كارثة مدوية - أن هناك سياسة خفية أخرى لليندون جونسون غير تلك السياسة الرسمية التى يعبر عنها من خلال رسالته ومبعوثيه.

ففى نفس اليوم- الجمعة ٢ يونيو- كانت تجرى الأحداث الحقيقية، ليس فقط بعيدا عن عيون القاهرة، ولكن أيضا بعيدا عن عيون الكونغرس الأمريكى، الذى حرص الرئيس جونسون على تخديره هو الأخر تماما.

زيارة سرية

لقد غادر مائير أميت رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية «الموساد» واشنطن يوم- ٢ يونيو- عائدا إلى إسرائيل بعد مهمة سرية فى واشنطن منذ ٢٠ مايو وجاء إليها باسم مستعار، وطوال الأيام الأربعة كان أميت يقوم بالمراجعة الأخيرة لخطط الحرب الإسرائيلية مع أجهزة المخابرات الأميركية فى واشنطن، وكذلك بعد الاتفاق على المزيد من المعدات المتطورة المطلوبة على وجه السرعة فى مسار الحرب.

ولكن مائير أميت عاد من واشنطن أيضا برسالة ذات مغزى بعث بها فى برقية سرية منذ اليوم الأول من رحلته: «إن أى حديث أمريكى رسمى عن جهود لحل الأزمة دبلوماسيا من خلال مشاورات مع الدول المعنية أو من خلال الأمم المتحدة.. سيكون لا شأن له بإسرائيل، إن الهدف هنا هو فقط تخدير العرب والسوفيات لأطول وقت ممكن بعيدا عن الخطط السرية الجارية للحرب الوشيكة.. كما أنه أيضا إقناع للكونجرس والرأى العام بأن الرئيس جونسون لا يألو جهدا لتسوية الأزمة سلميا لأنه حريص هو الأخر على ألا تتورط الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بمثل ما تعانى منه فى فيتنام».

وثانيا: تلقت سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» والتى كانت فى لحظتها مرابطة فى ميناء «روتا» الاسبانى، تعليمات بالتحرك فورا إلى الحدود البحرية المصرية مع إسرائيل.

في البحر الأبيض المتوسط. وقد وصلت «ليبرتي» بالفعل إلى منطقة عملها السرية الجديدة هذه، شمال العريش «في نفس اليوم ٢ يونيو».

كانت «ليبرتي» من أكثر سفن التجسس الأميركية تطورا. بحيث إن أجهزتها كانت قادرة على التقاط أي شكل من أشكال الاتصالات اللاسلكية، بما في ذلك الاتصالات العسكرية والدبلوماسية قصيرة وبعيدة المدى، و إشارات توجيه الصواريخ، والسيطرة على الأقمار الصناعية، وهي تستطيع أيضا توجيه الطائرات اليكترونيا وكذلك فك رموز أية رسائل تلتقطها ثم «تعيد طبخها وإرسالها من جديد طبقا للخطط الموضوعة».. وقد انضم إليها في مهمتها الجديدة هذه عدد من موظفي المخابرات المتخصصين في اللغتين العربية والعبرية والجهة التي تدير مهمات «ليبرتي» هي وكالة الأمن القومي الأميركي في ميريلاند عبر نظام خاص جدا للاتصالات يسمى «تريسكوم»- وهي إحدى وكالات المخابرات الأميركية التي تصب تقاريرها عند الرئيس ليندون جونسون عبر والت روستو- مستشاره للأمن القومي.

سرب من طائرات التجسس

وفي الساعات المبكرة من صباح اليوم التالي، السبت ٣ يونيو، تم إيقاظ طياري السرب رقم ٢٨ لطائرات الاستطلاع التكتيكية بقاعدة «رامستين» العسكرية في ألمانيا الغربية، لقد تم تجهيز طائراتهم على وجه السرعة وأصبح على الطيارين الأمريكيين أن يطيروا بها على الفور إلى قاعدة «مورون» التابعة لحلف الاطلنطي في أسبانيا.

كانت طائرات الاستطلاع الأمريكية هذه من طراز «ار- اف- ٤ سي» والتي كانت في تلك الحين هي أكثر طائرات التجسس تطورا لدى الولايات المتحدة ولم تدخل الخدمة إلا من قبلها بثلاث سنوات فقط. وتستخدم كاميرات شديدة الدقة في التصوير من مسافات مختلفة في طبقات الجو العليا والمنخفضة. وباستخدام الرادار والأشعة فوق الحمراء تستطيع أن تضع «خريطة حرارية» للمنطقة التي تقوم باستطلاعها في أي وقت ليلا أو نهارا. كما أن بها تجهيزات تسمح لها بالاتصال بقاعدتها من أي مكان في العالم.

وحلقت أربع طائرات تجسس من هذا الطراز من قاعدة «رامستين» الأميركية في ألمانيا الغربية في الصباح الباكر لليوم ٣ يونيو متجهة إلى قاعدة «مورون» الأمريكية في أسبانيا. في نفس الوقت خرجت طائرة نقل أميركية من طراز «سي- ١٤١» من قاعدة بالقرب من

أكسفورد فى انجلترا لتتجه أيضا إلى قاعدة «مورون» فى أسبانيا. وهى تحمل معامل كاملة لتحميض وطبع الأفلام التى تلتقطها طائرات التجسس، وحملت تلك الطائرات أيضا تسعة فنيين متخصصين فى التصوير الجوى تابعين لسرب الاستطلاع رقم ١٧، حيث انضموا فى قاعدة «مورون» بأسبانيا إلى زملائهم الأميركيين من ألمانيا الغربية.

وطبقا لما تم الكشف عنه لأول مرة بعد حرب يونيو بسبع عشرة سنة، فإن تلك المجموعات الأميركية من الطيارين والفنيين العاملين فى طائرات التجسس تم تعريفهم لأول مرة بمهمتهم الحقيقية السرية عقب وصولهم إلى قاعدة «مورون» الأميركية فى أسبانيا. لقد قيل لهم: إنهم هم وطائراتهم ومعداتهم سيذهبون إلى منطقة نائية فى صحراء النقب بإسرائيل لتقديم مساعدات بالغة السرية للجيش الاسرائيلى ضد العرب.

وكجزء من تلك المهمة فقد تم إعداد جوازات سفر مدنية لأفراد كل تلك المجموعات من الطيارين والفنيين الأميركيين، وعقود عمل مدنية توضح أن الحكومة الإسرائيلية قد استأجرتهم كمدنيين، وكذلك بطاقات استخدام وملابس وعملات إسرائيلية لكل منهم. واستغرق التعريف بالمهمة واستبدال الملابس ساعتين.. ثم قيل لهم إن عليهم بالراحة ساعات قليلة قبل أن يطيروا إلى إسرائيل، بعد أن تم طلاء طائرات التجسس الأميركية بشعار سلاح الجو الاسرائيلى حتى تبدو كما لو كانت إسرائيلية.

تصوير كل القواعد الجوية

ومساء نفس اليوم- السبت ٣ يونيو- وصلت تلك الطائرات إلى إسرائيل، حيث هبطت فى مطار مهجور وسرى بصحراء النقب جنوب شرق القاعدة الجوية الإسرائيلية فى بئر سبع، إنه نفس المطار السرى الذى كانت القوات الجوية الفرنسية قد استخدمته فى سنة ١٩٥٦ فى مهمات بالغة السرية ضد مصر أثناء الغزو الثلاثى البريطانى الفرنسى الاسرائيلى.

وفى مسار حرب يونيو الكبرى والوشيكة، فان تلك الطائرات ستقوم بمهمة شديدة السرية بكل الإتقان لتصوير القواعد الجوية لمصر وسوريا والأردن، وكذلك مواقع القوات المسلحة وكل تحركاتها بتفصيل شديد الدقة.. وأولا بأول.. وليلا ونهارا.. وفى كل طلعة تقوم كل واحدة من طائرات التجسس هذه بتصوير خمسمائة قدم من الأفلام مطبوع عليها أوتوماتيكيا الوقت والتاريخ والارتفاع الجوى وزاوية التصوير.. إلخ..

أما فى المطار السرى الإسرائيلى ذاته.. فإن أطقم الفنيين الأمريكيين تقوم بإعداد كل طائرة للطلعة التالية، بينما يقوم نحو ستين من الفنيين بتفسير وتحليل ألاف الأقدام من الصور التى يتم التقاطها فى كل طلعة، لقد كان يتم طبع أربع نسخ من الصور التى يجرى التقاطها.. حيث يحصل الإسرائيليون على نسخة منها فورا.. ويحتفظ الأمريكيون بنسخة أخرى- ثم تركها للإسرائيليين بعد الحرب- بينما النسختان الباقيتان يتم إرسالها إلى الولايات المتحدة رأسا.

وحينما سيتم ضرب سلاح الطيران المصرى فى اليوم الأول من الحرب، وتضطر القوات البرية المصرية إلى التحرك ليلا بسبب حرمانها من الغطاء الجوى، فإن الصور التى ستلتقطها لها تلك الطائرات طوال الليل ستصبح هى المفتاح الذى يمكن إسرائيل من الضرب بعد ذلك بكل دقة وإحكام.

إن تلك الطائرات سوف تحول مجهودها إلى الجبهات الأخرى بمجرد فراغ إسرائيل من الجبهة المصرية.. وستظل تقوم بمهماتها السرية هذه حتى الثانى عشر من يونيو، حيث عادت بعدها مع معداتها وفنييها إلى قواعدها فى أوروبا، ولكن فقط بعد التنبيه الصارم على كل شخص- طيارا وفنيا.. وبشكل فردى وجماعى.. بألا يتفوه بأى كلمة لأى شخص مهما كان.. عن تلك المهمة شديدة السرية.. ولا حتى مع زملائهم أو مع بعضهم، بل إنه زيادة فى الاحتياط، طلبت منهم قياداتهم خلع ملابسهم واحدا بعد الأخر ليصبح عاريا تماما كما ولدته أمه.. ثم السير عبر ممر خاص.. وبعدها يرتدى ملابس جديدة مختلفة.. وذلك تحوطا لاحتمال أن يكون أى منهم قد احتفظ معه بأى شىء يشير إلى أنه كان فى صحراء النقب، أو فى إسرائيل.!

قتل الديك الرومى

ولم يكن يعرف بكل تلك الترتيبات شديدة السرية سوى حفنة قليلة للغاية من كبار مساعدى الرئيس الأمريكى جونسون، وفى مقدمتهم بالطبع والت روستو مستشاره للأمن القومى الذى تتجمع فى مكتبه كل خيوط السياسة الأميركية «الأخرى».. الخفية.. والتى أصبحت تطلق اسما رمزيا على هذه العملية الكبرى التى ستجرى ضد مصر قريبا، وهى عملية «قتل الديك الرومى».!.

أما من الناحية الرسمية فإن الرئيس الأميركى يستوفى أوراقه تماما كصانع سلام لا يعرف شيئا باسم «الديك الرومى».. ولا عن الخطة السرية لقتله، وهكذا فإنه فى يوم

السبت ٣ يونيو قام بتوقيع رسالة رسمية صاغها له مستشاره للأمن القومى والت روستو وموجهة إلى ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل ويقول فيها: «يجب بل وضرورى آلا تجعل إسرائيل نفسها مسئولة عن المبادرة بالأعمال العدوانية، إن إسرائيل لن تكون وحدها إلا إذا قررت المضى وحدها، ونحن لا نستطيع أن نتخيل اتخاذ إسرائيل لهذا القرار».

لقد كانت تلك الرسالة معدة منذ أسبوع، لكن والت روستو لم يطلب من رئيسه توقيعها إلا فى ٣ يونيو قائلا له فى المذكرة المرفقة: «قد يكون ملحا أن نضع هذه الرسالة فى السجلات الآن رسميا».

وفى اليوم التالى- الأحد ٤ يونيو- قام والت روستو بإرسال مذكرة سرية إلى كل من دين راسك وزير الخارجية وروبرت ماكنمارا وزير الدفاع تتضمن ما اسماه «سيناريوهات» الأحداث المقبلة فى الشرق الأوسط.

وخلال ٢٤ ساعة فقط لم تكن تلك «الأحداث المقبلة» سوى الهجوم الكبير ضد مصر.. أو بدء عملية «قتل الديك الرومى».. بإخراج سلاح الطيران المصرى نهائيا من المعركة، إن الأردن كان قد وقع مع مصر معاهدة للدفاع المشترك قبل خمسة أيام فقط، ولكن الحدود الأردنية مع إسرائيل هى أطول حدود عربية وتتجاوز ٥٤٠ كيلو مترا، فبينما يتجاوز حجم الجيش الأردنى خمسين ألفا، والحرس الوطنى المخصص لمساعدة الجيش فى حالات الطوارئ كان قد ألغى قبل سنة، وسلاح الطيران الأردنى لا يتجاوز ٢٤ طائرة. ولا تملك الأردن سوى مطارين اثنين فى عمان والمفرق.

ولذلك ففى غياب غطاء جوى فعال تحصل عليه الأردن من الخارج، تصبح الضفة الغربية صيدا ثمينا مغريا بالنسبة لإسرائيل، فإذا لم تقدم مصر هذا الغطاء لأنها الهدف الأول للضربة الإسرائيلية.. يصبح الأمل معلقا على سوريا، ولكن العلاقات الدبلوماسية كانت مقطوعة بين الأردن وسوريا ولم تعد سوى قبل أيام قليلة، فضلا عن أنه لا توجد أية خطط سابقة للتنسيق بين الجبهتين وفوق هذا وذاك.. فبمجرد أن فرغت إسرائيل من سلاح الطيران المصرى ظهر الخامس من يونيو، استغرق منها القضاء على الطيران الاردنى والسورى ٢٥ دقيقة.

الضربة الجوية

وكما رأينا من قبل، كان التشويش المسبق على أجهزة الرادار المصرية عاملا أساسيا فى الخطة الإسرائيلية فى نفس الوقت كان هناك فى البداية احتمال قائم بالنسبة للسفن الحربية

الســوفيتية فى البحر الأبيض المتوسط، ورادارتها تستطيع بالتأكيد متابعة ما يجرى، وهو أن تقوم بتحذير القيادة المصرية من الهجوم الإســرائيلى الوشــيك بمجرد أن تبدو علاماته، لكن الأمريكيين أكدوا لإسرائيل من قبل أنه لا يوجد أى اتصال مباشر بين السفن السوفيتية فى البحر الأبيض وبين القيادة المصرية، وأن البديل الوحيد هو أن تقوم تلك الســفن بنقل ما يجرى إلى موسكو أولا. ثم الاحتمال الأضعف هو أن تقرر موسكو. بعد أن تفكر وتفكر، فــى نقل تلك المعلومات إلى مصر.. ولحظتها ســيكون الوقت قد فــات تماما، وفى جميع الحالات فإن الولايات المتحدة كفيلة بمنع حدوث أى تدخل سوفيتى من أى نوع.

وكان أسلوب الطيران الاسرائيلى فى المهاجمة هو أن تتجه من إسرائيل شمالا إلى البحر الأبيــض. ثم غربــا بعرض البحر على ارتفاعات شــديدة الانخفاض، ثــم تنحرف جنوبا نحــو أهدافهــا داخل مصر، وكل هذا يتم فى صمت لاســلكى كامــل وبتوجيه الكترونى مستمر، ومن البداية، من السفينة «ليبرتى» فضلا عن التشويش المسبق على أجهزة الرادار والاتصالات المصرية.

فى الموجة الأولى ركزت الطائرات الإسرائيلية على ضرب أجهزة الرادار وضرب الممرات فى المطارات العســكرية المصرية بقنابل شديدة الانفجار تم تصميمها خصيصا بحيث تترك فى الممر حفرة عميقة بقطر سبعة أمتار ويحتاج إصلاحها إلى عدة ساعات. وخلال ذلك تظل الطائرات المصرية عاجزة عن التحليق إلى أن تأتى الموجة الثانية من الهجوم الإسرائيلى فيتم ضــرب الطائرات المصرية المتراصة على الأرض واحدة بعد الأخرى. وكان كل هذا يســبقه ويوازيه استطلاع وتصوير جوى اليكترونى تقوم به الطائرات الأميركية المنطلقة من القاعدة السرية فى صحراء النقب بحيث إن أى تطور جديد يتم نقله فورا إلى الطيارين الإسرائيليين وهم داخل طائراتهم، وقد حدث فعلا أن سربا من القاذفات المصرية تم توجيهه ليهبط فى مطار عسكرى فى جنوب مصر.. وبعد لحظات من هبوطه كانت الطائرات الإسرائيلية فوق المطار لتضرب هذا السرب الوحيد الموجود به.

□□□

الفصل الثانى

الوثائق تكشف المخطط

□ الآن.. على العالم العربى أن يدير ظهره لتيار القومية. وتنغلق كل دولة على ذاتها وتتفاوض من مركز الضعف

□ نص المذكرة السرية من والت روستو إلى الرئيس جونسون

□ شروط انسحاب إسرائيل:

إسقاط عبد الناصر.. وقف التيار القومى.. انعزال كل دولة عربية.. وقف التسلح.. الدخول مع إسرائيل فى مشروعات للتعاون الإقليمى



استغرقت الضربة الجوية الرئيسية الاسرائيلية ضد مصر أربع ساعات، وبعدها فقط استدارت إسرائيل إلى الطيران فى كل من سوريا والأردن، فأخرجتهما من المعركة خلال ٢٥ دقيقة.

وفيما بعد حدد موردخاى هود قائد السلاح الجوى الإسرائيلى أسباب نجاح الضربة الجوية من وجهة نظره بأنها أربعة: أولها: «إن ما جرى فى الثمانين دقيقة الأولى كان خلاصة ١٦ سنة من التخطيط لكى نضرب الطيران المصرى ونخرجه من المعركة مبكرا، فقد كنا نعيش مع الخطة. وننام مع الخطة، ونأكل مع الخطة. وكنا باستمرار نراجعها أولا بأول لكى نتأكد منها».

أما السبب الثانى فهو معلومات «المخابرات الجيدة عن تحركات ونشاطات العدو الجوية من حيث توزيع طائراته ومواقع راداراته وصواريخه».

والسبب الثالث هو القدرة على امتصاص المعلومات الجديدة ودمجها فى الخطة القائمة وإخطار الطيارين بها أولا بأول.

والسبب الرابع هو السنوات المتواصلة من تدريب الطيارين على تنفيذ نفس الخطة.

وعلى الرغم من الضربة الجوية لم تكن مفاجأة للقيادات العسكرية المصرية حينئذ، إلا أن مداها وحجمها جاء لهم بمثابة المفاجأة، وطوال اليوم الأول فى الحرب حاول الفريق أول صدقى محمود قائد الطيران والمشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى إقناع جمال عبد الناصر بوجود مشاركة أمريكية لابد منها وتقود إليها كل المؤشرات. ولكن جمال عبد الناصر فى البداية رفض أن يصدق ذلك إلا على ضوء وجود دليل دامغ يسمح له بتوجيه اتهام رسمى إلى الولايات المتحدة بالتدخل المباشر. وسرعان ما جاءت معلومات فى هذا الاتجاه من محطة الرادار الأردنية فوق جبل عجلون.

ومن العاصمة الأردنية عمان أجرى الملك حسين مكالمة تليفونية مع الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة، كانت فى السادسة من صباح الثلاثاء ٦ يونيو. وفى المكالمة تم التشاور حول هذا الموضوع الخطير والمتفجر. إن كلا من عبد الناصر وحسين لم يكن يعرف لحظتها أن هذه المكالمة يتم رصدها وتسجيلها اليكترونيا من مسافات بعيدة بأجهزة متطورة للغاية. وخلال ساعات سيصبح تسجيل المكالمة تحت تصرف إسرائيل. والتى قررت على الفور إذاعتها بعد عمل «مونتاج» للمقاطع التى تخدم أغراضها.

عبد الناصر وحسين على الهاتف

وطبقا لما أذاعته إسرائيل فان هذه المكالمة التليفونية مضت على النحو التالى:

عبد الناصر: كيف حالك؟ لقد فهمت أن جلالتك تريد أن تعرف ما إذا كنا نحارب على كل الجبهات.. «مقطع مشوش»... هل نعلن عن اشتراك الولايات المتحدة مع إسرائيل؟.. لا أستطيع سماعك.. الاتصال سيئ جدا.. «صمت».. هالو.. ها تتكلم عن الولايات المتحدة وبريطانيا؟، أو عن الولايات المتحدة فقط؟

حسين: الولايات المتحدة فقط.

عبد الناصر: هل توجد لبريطانيا حاملة طائرات؟

حسين: ... «إجابة مشوشة»

عبد الناصر: حسنا، الملك حسين سيذيع بيانا عن هذا وأذيع أنا أيضا بيانا.

حسين: شكرا.

عبد الناصر: حاولوا الصمود.

حسين: حسنا.

عبد الناصر: هالو.. هالو.. يا آخى، اصمدوا ولا تقلقوا.

حسين: نعم فخامة الرئيس. لو كان لديكم شيء. فكرة، ففى أى وقت...

عبد الناصر: إننا نقاتل بكل ما نملك، والقتال مستمر فى جميع الجبهات طوال الليل. وإذا كنا نواجه بعض الصعاب فى البداية فسوف نتغلب عليها، إن الله معنا.. «مقطع مشوش».. إذن، هل ستذيع جلالتك بيانا بالتدخل الأمريكى الإنجليزى؟

حسين: «إجابة غير مسموعة»

عبد الناصر: أقول والله شاهدى، إننى سأذيع بيانا، وأنت ستذيع بيانا، وسوف نعمل على أن يذيع السوريون بيانا كذلك يعلنون فيه أن طائرات أمريكية وبريطانية انطلقت من حاملات الطائرات وتشترك فى الحرب ضدنا، سوف ننشر بيانا ونركز فيه على هذا الموضوع..

حسين: حسنا.

عبد الناصر: ها توافق جلالتك؟

حسين: «إجابة مشوشة».

عبد الناصر: ألف شكر، عليكم بالصمود، إننا معكم بكل قلوبنا. إننا أرسلنا طائراتنا لتضرب إسرائيل، وهى تهاجم الطائرات الإسرائيلية منذ الصباح.

حسين: ألف شكر.

ولقد استخدمت إسرائيل تلك المكالمة، واضحة المونتاج، لكى تروج فى العالم كله لفكرة أن التدخل الأمريكى البريطانى هو مجرد اختلاق وتلفيق من عبد الناصر وحسين معا، مع الإيحاء بأن عبد الناصر كان محرضا على هذا التلفيق.

الملك حسين يوضح

ولكن الملك حسين فسر الأمر فيما بعد بقوله: «منذ الصباح المبكر ليوم الاثنين ٥ يونيو أفاد مركز قواتنا الجوية بأن راداراتنا رصدت بعض الطائرات فى منطقتين فوق البحر الأبيض المتوسط، على مسافة أربعين كيلو متر شمال «بحيرة البردويل» المصرية «وشمال شرق بورسعيد»، وطبقا لهذا التقرير فإن تلك الطائرات المجهولة اختفت من الشاشة عند خط يتعادل مع مطار اللد فى إسرائيل.

«وأكثر من ذلك» فإن الرادار رصد بعض الأهداف الثابتة فى البحر الأبيض المتوسط. وطبقا لنفس هذا التقرير. اظهر الرادار أن الطائرات تطير عند مستوى البحر فى منطقة هذه الأهداف الثابتة. نحو إسرائيل: والنتيجة التى يتم استخلاصها هى أن هذه الطائرات تنطلق من حاملات طائرات. ونحن نعرف على وجه التأكيد أن إسرائيل ليس لديها سفن من هذا النوع.

بالطبع الرادار لا يستطيع أن يبين جنسية الطائرات، ولقد تزايد تشويشنا من حقيقة أن المعلومات المصرية عن عدد الطائرات الاسرائيلية التى تم تدميرها جعل من الصعب تصديق أنه ما يزال لدى العدو كل هذا العدد من الطائرات القادرة على الطيران. ومن ثم، فبعمل تقييم صحيح للقوات الجوية الإسرائيلية على أساس معلومات حلفائنا، فإن حجم هذا الأسطول الجوى بدا مفرطا، إلا إذا كانت هناك دولة أجنبية متورطة.

«وحينئذ ساهم شىء آخر فى تشويشنا، وهو تشويش طيارينا، فهؤلاء الرجال قالوا: إنهم شاهدوا مقاتلات اسرائيلية لها نفس الصورة الظلية مثل طائراتنا. وكان التفسير الوحيد الممكن هو: أن تلك هى طائرات هوكز هنتر، وهو نوع من الطائرات لا يوجد لدى إسرائيل ويمكن فقط أن يأتى من قاعدة قرب الشرق الأوسط، وفيما بعد علمنا أنها لم تكن هوكز هنتر. ولكنها طائرات ميستير إسرائيلية صورتها الظلية قريبة الشبه جدا».

ويضيف الملك حسين: «إننا فيما بعد أجرينا تحقيقا بشأن التقارير القريبة من رادارتنا، وهو تحقيق قادنا إلى نتيجة افتراضية هى أنه فى ظروف جوية معينه فى البحر، يمكن لشاشات الرادار أن تعكس بسهولة أهدافا من الصعب التعرف إليها، مثل السفن، تكون فى الحقيقة فى مدى يتجاوز الرادار على الرغم من أنها تبدو أهدافا قريبة داخل نطاقه، وخلال الحرب قابلت سفراء قوى أجنبية مختلفة مرات عديدة فى مقر دفاعنا المدنى فى عمان، ولقد بعثت ببرقية إلى عبد الناصر أخطره فيها بأن سفير الولايات المتحدة قد أكد لى أنه لا يوجد تورط أمريكى من أى نوع فى هذه المعركة، ولكن، يجب أن أقر بأنى فى حينها.. لم أكن مقتنعا».

ويقول الملك حسين أيضا: «لقد زعم الاسرائيليون «فيما بعد» بأننى اعترفت بأن قصة التدخل الأنجلو أمريكى كانت اختلاقا وتلفيقا كاملين، هذا غير صحيح، لقد اعتقدت حقا بوجود تدخل من إنجلترا وأمريكا، وكنت أؤمن بذلك حينما قلته علنا».

واشنطن تنفى تورطها

فمن الناحية الرسمية تقبل الأردن الإنكار الأمريكى، وأعلن الأردن فى ٩ يونيو أنه حسب معلوماته فإنه لم يحدث تدخل عسكرى من الولايات المتحدة أو بريطانيا فى الحرب العربية الاسرائيلية.

والواقع أن القاهرة تلقت نفس الإنكار الأمريكى، بل إن وزارة الخارجية الأمريكية أيقظت السفير المصرى فى واشنطن فجرا لكى تبلغه باحتجاجها، ووقف دين راسك وزير الخارجية الامريكى علنا أمام الصحفيين لينكر أى مشاركة أمريكية من أى نوع فى مجرى الحرب.

مع هذا لم يكن هذا كافيا بالنسبة لمصر. صحيح أن مصر لم تمسك بيديها طائرة تحمل الشعار الأمريكى وهى تضرب أهدافا مصرية. ولكن هذا لا يعنى حيادا أمريكيا فى مجرى الحرب، فإذا كانت الولايات المتحدة محايدة حقا، فلماذا تعلن أنها لا تعرف من الذى بادر بالطلقة الأولى، وهل كان الأسطول الامريكى السادس المعبأ فى البحر الأبيض المتوسط منذ أسابيع يدير عينيه فى اتجاه آخر بينما الضربة الإسرائيلية توجه ضد مصر؟ ولماذا لم تف الولايات المتحدة بتعهداتها الرسمية من أنها ستقف ضد الطرف الذى يبادر بالعدوان؟ ولماذا ترفض الولايات المتحدة وصف الهجوم الإسرائيلى أساسا بأنه عدوان؟

ولماذا أصرت فى مشاورات مجلس الأمن الدولى طوال اليوم الأول من الحرب على حذف أى إشارة إلى ضرورة انسحاب إسرائيل كجزء من قرار لوقف إطلاق النار كما يقضى ميثاق الأمم المتحدة؟.

قطع العلاقات الدبلوماسية

هكذا أعلنت القاهرة قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة وسرعان ما ستتلوها معظم الدول العربية. وسوف تمر أيام قليلة قبل أن ينكشف أمر وجود سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» قرب الحدود المصرية الإسرائيلية فى البحر الأبيض المتوسط، بعد أن ضربتها إسرائيل بحجة أنها تصورت أنها سفينة مصرية. لقد تأكد فيما بعد أن هذا غير صحيح بالمرة، ومع ذلك فمنذ منع الرئيس جونسون وزارة الدفاع الأمريكية من انتقاد إسرائيل علنا. وتقرر الاحتفاظ بنتيجة التحقيق الجارى سرا، وصدرت تعليمات للبحارة وضباط السفينة بالتزام الصمت الكامل بالنسبة لحقيقة مهمتهم الغامضة تلك فى البحر الأبيض. وكان أحد التفسيرات غير الرسمية هو: «أن إسرائيل أرادت بضرب «ليبرتى» إخفاء الأدلة الحاسمة على حجم التدخل الإليكترونى الأمريكى لحسابها فى مجريات الحرب ضد مصر».

فوضى فى سيناء

ولكنّ سرا كبيرا آخر لم ينكشف إلا بعدها بسبع عشرة سنة، وهو المتعلق بالدور الذى لعبته طائرات التجسس الأمريكية من القاعدة السرية فى صحراء النقب، وحجم إمدادها لإسرائيل بالمعلومات والصور الدقيقة أولا بأول. ليلا ونهارا، عن كل المواقع والاتصالات العسكرية المصرية والسورية طوال الحرب، والدور الحاسم الذى لعبه هذا كله، خصوصا فى إنجاح الضربة الجوية ضد سلاح الطيران المصرى.

ومع كل هذا.. لم يكن ضرب الطيران المصرى يمثل تدميرا نهائيا للقدرة العسكرية المصرية إلا بعد أن صدر القرار المتعجل والمتخبط بالانسحاب الشامل من سيناء، لقد صدر هذا القرار فى اليوم التالى للحرب، ثم تعدل، ثم صدر من جديد، بما حول الجيش المصرى فى سيناء إلى زحام من الفوضى، وعجل تماما من الانهيار الشامل فى سيناء. وفى تلك الفوضى أصبح وصول القوات الإسرائيلية إلى الشاطئ الشرقى لقناة السويس

مجرد مسألة وقت، بينما أصبح الاستيلاء على الضفة الغربية لنهر الأردن محسوما منذ يوم ٦ يونيو.

مذكرات روستو لجونسون

أما بالنسبة للرئيس الأمريكى جونسون فقد تلقى من والت روستو مستشاره للأمن القومى فى الساعة التاسعة وخمس دقائق- بتوقيت واشنطن- من مساء الاثنين ٥ يونيو، تقريرا شديد السرية من حصيلة القتال فى اليوم الأول من الحرب، مع مذكرة منه يقول فيها بالنص: (السيد الرئيس. مرفق مع هذا تقرير، خريطة، عن اليوم الأول من عملية «قتل الديك الرومى»).

توقيع و. و. روستو

وفى مساء اليوم التالى من الحرب «٦ يونيو» بعث والت روستو إلى الرئيس جونسون بمذكرة أخرى مرفق بها تقرير من الوفد الأمريكى لدى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك، وقال روستو فى مذكرته: «سيدى الرئيس: لو تقدم الإسرائيليون بالسرعة الكافية، فإن أفضل رد من جانبنا سيكون هو وقف بسيط لإطلاق النار، أن هذا يعنى أننا استطعنا استخدام موقف الأمر الواقع (الجديد) على الأرض لمحاولة التفاوض ليس من أجل العودة إلى خطوط الهدنة. ولكن من أجل (الوصول إلى) سلام محدود وحاسم فى الشرق الأوسط».

بالفعل، طوال يومى ٥ و٦ يونيو ظل الوفد الأمريكى فى الأمم المتحدة برئاسة آرثر جولد بيرغ، يقاوم كل محاولة لاستصدار قرار من مجلس الأمن يتضمن اعتبار إسرائيل معتدية، أو يطالبها بالانسحاب إلى المواقع السابقة على بدء الحرب، وأصبحت «مطالبة العرب بقبول وقف إطلاق النار بغير هذين العنصرين يتعادل مع مطالبتهم بالموافقة رسميا على (شرعية) الهجوم الإسرائيلى، وكذلك على الأمر الواقع الجديد بشأن الأراضى التى أصبحت محتلة».

وقد شعر العرب بمزيد من الصدمة حينما استسلم الوفد السوفياتى فى الأمم المتحدة فى النهاية للضغط الأمريكى فى ٦ يونيو. ووافق على المشروع الأمريكى بالوقف البسيط لإطلاق النار، وهى أول مرة فى تاريخ الأمم المتحدة يصدر فيها مثل هذا القرار. الذى لا يطالب المعتدى بسحب قواته إلى مواقع ما قبل الحرب، وأنه لم يعد هناك بديل. اضطر الأردن إلى قبول هذا الوقف البسيط لإطلاق النار فى ٧ يونيو. وستتبعها مصر فى ٨ يونيو وفى النهاية سوريا فى ١٠ يونيو.

هكذا تمخضت حرب يونيو عن ضربات كبرى، وسوف تنتهى إلى احتلال إسرائيل لسيناء و قطاع غزة والضفة الغربية والجولان وهى أراض تعادل ثلاثة أمثال مساحة إسرائيل ذاتها، والأسوأ من ذلك أن جيوش تلك الدول العربية الثلاث أصبحت فى حالة دمار شبه كامل.

ولأن الموقف العسكرى كان يبدو شبه محسوما منذ أصيب سلاح الطيران المصرى بالشلل فى اليوم الأول للقتال وصدرت القرارات المتخبطة والمتعجلة بسحب القوات المصرية من سيناء بعد ذلك، فقد تلقى الرئيس الأمريكى ليندون جونسون فى صباح اليوم السابع من يونيو مذكرة سرية جديدة من والت روستو مستشاره للأمن القومى تتضمن «بعض الأفكار» ضمن أشياء عديدة من بينها «الموقف الإسرائيلى وعملية المساومة».

مذكرة سرية

وفى مذكرته السرية هذه قال والت روستو: إنه يبدو أن إسرائيل ستنهى بالسيطرة على الضفة الغربية للأردن، وكل القدس، وكل شبه جزيرة سيناء، بما فى ذلك الضفة الشرقية لقناة السويس، أكثر من ذلك، فإن الإسرائيليين أصبحوا فى الوقت الحاضر فى موقف (يمكنهم من) السيطرة العسكرية على المنطقة. يعتمد- ولكن ليس بدرجة كبيرة- على مدى السرعة التى سيعوض بها السوفييت الطائرات «المدمرة».

إن هذا- هكذا شعر روستو- هو الوقت المثالى لعمل مبادرة دبلوماسية تقوم بها الولايات المتحدة لتشجيع العرب والإسرائيليين على حل مشاكلهم على أساس إقليمى- إن دور الأمم المتحدة يجب أن يكون هو وضع إطار تصبح هذه الأشياء ممكنة من خلاله. ولكن بشرط ألا تنغمس الأمم المتحدة فى التفاصيل بدرجة كبيرة.

ووضع روستو بالتفصيل فى المذكرة الأهداف التى يأمل فى تحقيقها من خلال إعطاء العرب عرضا لا يستطيعون رفضه، وهذا العرض يتضمن تحول الراديكالية العربية إلى الاعتدال، وتنمية الشعور بالاعتزاز الإقليمى لكى يحل مكان الشعور العربى بالهزيمة والإذلال، والتعاون الاقليمى فى مجالات التنمية. بل وحتى التوصل إلى ترتيبات للحد إقليميا من سباق التسلح و«الأفضل التوصل إليها من داخل المنطقة ذاتها».

إن هذه الترتيبات الأخيرة سوف تؤدى بالطبع إلى أن يحتفظ الإسرائيليون بحالة السيطرة العسكرية الكاملة على منطقة الشرق الأوسط لسنوات عديدة تالية.

بكلمات أخرى: ترى تلك المذكرة السرية التى أعدها مستشار الرئيس جونسون للأمن القومى فى صباح السابع من يونيو ١٩٦٧ أن احتلال إسرائيل الجديد للأراضى العربية فى سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية والجولان يجب أن تتم المساومة به مع العرب فى مقابل عرض لا يستطيعون رفضه، فإذا كانوا يرون استرداد أرضهم المحتلة فإن عليهم مقابل ذلك أن يسقطوا نظام جمال عبد الناصر فى مصر (حيث هو نموذج الراديكالية العربية فى القاموس الامريكى وقتها) ويحل محله نظام آخر معتدل طبقا لنفس القاموس، كما أن على العالم العربى أن يدير ظهره لتيار القومية العربية، وتنغلق كل دولة عربية على ذاتها فى ظل مشاعر انعزالية إقليمية تملأ فراغ الشعور الجديد بالهزيمة والإذلال.

وكذلك على الدول العربية المعنية أن تدخل مع إسرائيل فى «تعاون اقليمى» فى مجالات التنمية. كما أن عليها أن تقبل الحد من تسليحها تحت سيف السيطرة العسكرية الإسرائيلية.

إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط

إن تلك الخطوة العريضة والمبكرة، سوف تظل هى أساس السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط بعد حرب يونيو ١٩٦٧ مباشرة، وطوال الفترة الباقية من رئاسة ليندون جونسون.

وحينما يناقش المؤلف الأمريكى ستيفين فرين تلك الأفكار المبكرة التى بلورها روستو للرئيس جونسون فى اليوم السابع من يونيو ١٩٦٧، فإنه يعلق متسائلا: «هل كان هذا مجرد تبسيط وسذاجة، أو أنه كان شيئا آخر. جزء من (سيناريو) تم فيه (إطلاق) الإسرائيليين. وإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بشكل فعال. وإرغام العرب على التفاوض حول مستقبل المنطقة من مركز الضعف!».

ويرد ستيفن فرين بقوله: «إن الإجابة عن هذا السؤال تعتمد على ما إذا كان جونسون وروستو يتصرفان كردود أفعال للأحداث، أو أن لهما يدا فى تخطيطها. بل وحتى شاركا فى صنعها».

والواقع أنه منذ البداية كانت هناك لجنة سرية خاصة شكلها ليندون جونسون ومهمتها «تنسيق ما يجرى ومتابعة تنفيذ هذه «العملية الجراحية الكبرى» التى تجرى للعالم العربى. وأداتها الإقليمية الظاهرة هى إسرائيل.

وكان الحرص على السرية الكاملة فى مهمات اللجنة هو أهم ما يريده ليندون جونسون. وفى بعض اللحظات أصبحت تلك السرية مطلوبة حتى فى مواجهة وزارة الخارجية

الأمريكية ذاتها، وعلى سـبيل المثال، تضم ملفات مجلـس الأمن القومى الأمريكى مذكرة بتاريخ ٧/٦/ ١٩٦٧ سـجل فيها ماتنجورج برندى- المستشار السابق للأمن القومى- الذى أصبح عضوا فى «لجنة التنسـيق السرية»، هذه ملاحظاته التى يريد أن ينبه إليها الرئيس جونسـون قبل أحد اجتماعات اللجنة. ومن بينها أنه «مع حضور عدد من مسـاعدى دين راسـك (وزيـر الخارجية)-فإنك قد لا ترغب فى مناقشـة المهمـات التنظيمية لعمل (هذه) اللجنة الخاصة».

وبالفعل أمر جونسون باستبعاد وزارة الخارجية الأميركية من اللجنة فيما عدا دين راسك نفسـه، وكانت اجتماعات «لجنة التنسـيق» السرية هذه تتم بطبيعة الحال برئاسة ليندون جونسون نفسه. أما متابعة تنفيذ المهمات المختلفة التى تقررها اللجنة فكان يتولاه بالطبع والت روستو مستشاره للأمن القومى.

□□□

الفصل الثالث

الإشارات الأمريكية والرفض العربى

- ☐ عبد الناصر يعترف: لقد عرفوا كيف يصطادونى.
- ☐ الجماهير العربية ترفض التنحى وما ترتب على حرب يونيو
- ☐ إسـرائيل أنهت الحرب يـوم ٨ يونيو.. ثم تلقت إشـارة خضراء لاحتلال الجولان
- ☐ مستشار الأمن القومى الأمريكى ألمح إلى إيبان بالهجوم على سوريا وضمن لإسرائيل عدم تدخل السوفيات عسكريا
- ☐ إسرائيل تعتمد على اليأس العربى والزمن.. والانتظار بجوار التليفون



قصة الهجوم على الجولان

طوال أيام ٥ و ٦ و ٧ يونيو كانت عملية «قتل الديك الرومى» فى الشــرق الأوســط تتقدم على أرض الواقع كما خطط لها بنجاح كامل، لقد تلقت مصر الضربة المقررة، والأردن فقد الضفة الغربية بعد أن حاولت إســرائيل إغــراءه بالابتعاد عن طريق الجنرال أود بول كبير مراقبى الأمم المتحدة حينئذ، وكل من مصر والأردن قبلت وقف إطلاق النار غير المشــروط، ولم يكن وقف إطلاق النار يمثل بعد قضية ملحة بالنســبة لسوريا. لأن المناوشات السورية فى الحرب كانت محدودة حتى اليوم الثامن من يونيو، بالإضافة إلى أن مندوب سوريا فى الأمم المتحدة أوضح أن بلاده ستمتثل لوقف النار العام.

مكالمة من البيت الأبيض

وفى مســاء الخميس ٨ يونيو تلقى أبا إيبان وزير الخارجية الإســرائيلى مكالمة تليفونية مهمــة من البيت الأبيض. كان أبا إيبان موجودا فى نيويورك منذ بدأت مناقشــات وقف إطلاق النار، وبعد قبول الأردن وقف إطلاق النار غير المشروط يوم ٧ يونيو. ثم مصر يوم ٨ يونيو، بدا إيبان مستعدا للعودة إلى إسرائيل.

وطبقا لما ســجله أبا إيبان نفسه فيما بعد فإن: «مستشارا فى البيت الأبيض أبلغنى بأن مســتر جونســون شــاهد وسمع خطابى فى مجلس الأمن بشــعور من التقدير.. ومضى هذا المســئول ليقول لى: أليس من الغريب أن ســوريا، وهى منشأ (هذه) الحرب. ربما ستكون هى الطرف الوحيد الذى سينجو من الإذلال؟ أليس من المثير للتناقض أن دولة مثل الأردن. وهى أقل ارتكابا للذنب، أصبحت تعانى من خسائر ضخمة. بينما سوريا ستظل حرة لكى تبدأ مشهدا مميتا أخر؟».

ويعلق أبا إيبان بقوله: «لقد اســتنتجت من هذه الملاحظة أن واشنطن الرسمية لن تكون شــديدة الأســى أو الحزن فيما لو عانت ســوريا من بعض العقوبات.. حتى لا يبدو موقف الأردن محل عقاب. على رغم موقفه المعتدل حتى يونيو ١٩٦٧».

لقد أصبح أبا ايبان الآن- ٨ يونيو- أكثر فهما للغة التعامل الحقيقية مع البيت الأبيض. مما كان عليه فى الأســبوع الســابق للحرب. ومــن الواضح أن هذا «المستشــار فى البيت الأبيض» والذى يملك التعبير عن «واشنطن الرسمية» لم يكن سوى والت روستو.

ولم تكن فكرة ضرب سـوريا عسكريا والاسـتيلاء على مرتفعات الجولان خصوصا بعيدة عـن التفكير الإسـرائيلى. فالواقع أنها كانـت من بين الخطط التى أعدتهـا هيئة أركان الحرب الإسـرائيلية منذ سنة ١٩٦٤ وظلت تراجعها أولا بأول. والآن. فمنذ إخراج سلاح الطيران المصرى من المعركة فى السـاعات الأولى من الحرب، أصبحت القيادات العسكرية الإسـرائيلية ترى أمامها فرصة ذهبية لتنفيذ خططها المقررة لضرب سـوريا، ولكن اللجنة الوزارية المصغرة داخل مجلس الوزراء الإسرائيلى لم توافق لأن أعضاءها كانوا واعين بالضبط لحدود الضوء الأخضر الأمريكى.

وهكذا فإن اللجنة الوزارية برئاسة ليفى اشكول، وفى مقدمتها موشى ديان وزير الدفاع، رفضـت بالكامل خطط إسـحاق رابين رئيـس أركان الحرب وديفيد اليعـازر قائد المنطقة الشـمالية للاستيلاء على الجولان، وبحلول مساء يوم الخميس ٨ يونيو، أصبحت الحرب منتهية عمليا «بالنسبة لإسرائيل- على حد تعبير إسحاق رابين».

وفـى منتصـف الليل- ما زلنا يوم الخميس ٨ يونيو- اتصـل رابين بديفيد اليعازر لكى يخطره رسميا بقرار اللجنة وبموقف موشى ديان خصوصا. وأنه عليه أن ينسى تماما خطة التحرك للاستيلاء على الجولان. بعدها ذهب إسحاق رابين إلى منزله لأول مرة منذ أربعة أيام لكى يبدأ نوما عميقا حتى الصباح.

الهجوم على الجولان

لكن فيما بين الثانية عشرة مساء الخميس والسادسة عشرة من صباح الجمعة ٩ يونيو، وقع (انقلاب) فى تفكير موشى ديان- إن إسحاق رابين تلقى مكالمة تليفونية فى السابعة من صباح الجمعة، واستيقظ من نومه على صوت عيزرا وايز مان رئيس هيئة العمليات وهو يبلغه بالخبر القنبلة: لقد اتصل ديان بديفيد اليعازر منذ ١٥ دقيقة وأمره بمهاجمة السوريين فورا!

ويقـول إسـحاق رابين إنه اتجه فورا إلى مقر القيـادة حيث: «هناك عرفت بما حدث. إن (موشـى ديان) جاء فى السادسة صباحا واجتمع بضباط المخابرات لتقييم الموقف حيث تأكد أولا من التفسـخ الكامل للجيش المصرى فى (سـيناء).. وقبل الساعة السابعة بقليل. ولأسباب لم أدركها مطلقا. أصدر أوامره إلى ديفيد اليعازر بالهجوم على مرتفعات الجولان. وحينما سمع اليعازر أوامر ديان فى التليفون. كانت تلك الأوامر مفاجئة له تماما بما جعله عمليا يسقط من فوق كرسيه».

وفى البداية تضايق رابين لأن وزير الدفاع تجاوز اختصاصه، حيث رئيس الأركان هو المختص بإصدار أوامر العمليات، لكنه لم يجد هنا وقتا مناسبا للجدل مع ديان حول الاختصاصات، والأكثر مدعاة للضيق بالنسبة لإسحاق رابين هو أن ديان لم يفسر له مطلقا، لا وقتها ولا بعدها سر هذا التحول الكامل فى موقفه ما بين منتصف الليل إلى السادسة صباحا.

لقد كان ديان يريد أن يضمن أولا الانهيار الكامل للجيش المصرى، ومن هنا ظل حتى اللحظة الأخيرة مصمما على أن يتوقف التقدم الإسرائيلى عند مضايق سيناء ولا يمتد إلى شاطئ قناة السويس، ولكن الانهيار جاء كاملا فى القيادات العسكرية المصرية بأسرع مما توقع ديان، فضلا عن أنه بعد صدور قرار الانسحاب الكامل والشامل للجيش المصرى من كل سيناء، وتنفيذه بتلك الطريقة الفوضوية التى سجلتها صور الطائرات الأمريكية السرية دقيقة بدقيقة، جعل الوحدات المصرية تتفكك تماما وتتحول من جيش مقاتل إلى زحام من الجنود الذين يتركون أسلحتهم ويتجهون بسرعة إلى غرب القناة، تنفيذا لأوامر مكتبية صدرت من القيادة العامة بالقاهرة.

ضمان أمريكى بعدم تدخل السوفيات

أما الاعتبار الثانى الذى كان يخشاه ديان فهو احتمال التدخل العسكرى السوفياتى، حيث يرى ديان أن دافع السوفيات هنا بالنسبة لسوريا سيكون أقوى منه بالنسبة لمصر.

والآن وبعد أن تلقى ديان الضوء الأخضر من لجنة التنسيق السرية فى البيت الأبيض الأمريكى، بشكل مباشر ثم بشكل غير مباشر عن طريق أبا ايبان، فإن الأمريكيين أصبحوا يضمنون لديان أن السوفيات لن يتدخلوا.. أو على الأقل لن يتدخلوا بسرعة كافية.

وهكذا نقلت طائرات التجسس والتصوير والمعلومات الأمريكية العاملة من القاعدة السرية المهجورة فى صحراء النقب، عملها على الفور من الجبهة المصرية إلى الجبهة السورية، وأصبحت الأفلام التى تصورها تلك الطائرات أولا بأول، وعمليات التشويش على الاتصالات السورية بمثل ما تعامل من قبل مع الوحدات المصرية.. كتابا مفتوحا.

إذاعة وهمية

وفى البداية أُخذ السوريون على غرة من الهجوم الإسرائيلى الشامل برا وبحرا وجوا، حيث كانوا قد أصبحوا فى حالة (استرخاء) نتيجة قرارات وقف إطلاق النار، لكنهم سرعان ما بدأوا يقاتلون بشراسة طوال يوم الجمعة- ٩ يونيو- ولكن هنا أيضا وقعت أشياء

غريبة تماما، حيث سمع الجنود فى الجبهة مثلا إذاعة دمشق- أو ما حسبوا أنه إذاعة دمشق- تعلن فى الثامنة والنصف من صباح السبت ١٠ يونيو سقوط القنيطرة وهى المدينة الرئيسية للجولان فى أيدى الإسرائيليين- ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فى تلك اللحظة، لكن الوحدات المقاتلة فى الجبهة لم تدرك ذلك إلا بعدها بساعتين ونصف الساعة، ولحظتها كان الوقت قد أصبح متأخرا لإنقاذ القنيطرة «إن تشويش الاتصالات» كان يؤدى مهمته بنجاح فى الجبهة السورية بمثل النجاح الذى حققه من قبل فى الجبهة المصرية.

لقد استخدمت موسكو الخط الساخن مع واشنطن. وجرت ضغوط متنوعة فى مجلس الأمن الدولى، ومراوغات متعددة من إسرائيل أحيانا ومن الولايات المتحدة أحيانا أخرى، وفى النهاية، حينما بدأ سريان وقف إطلاق النار أخيرا فى الجبهة السورية فى السادسة والنصف من مساء الجمعة ١٠ يونيو، كانت إسرائيل قد استولت بالفعل على مرتفعات الجولان. وبذلك أصبحت هناك ورقة مساومة أخرى ليتم استخدامها فى الضغط من أجل استكمال العملية الجراحية الكبرى- عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

وكان النجاح الكبير فى هذه العملية كلها من نصيب ليندون جونسون، الذى لم يترك خلفه أى دليل قاطع على التواطؤ مع إسرائيل. وبذلك فإنه استوعب تماما دروس ١٩٥٦ بين انجلترا وفرنسا وإسرائيل. وحينما أعلنت الأردن ومصر فى اليوم التالى من الحرب اشتراك طائرات أمريكية وبريطانية فى الغزو الإسرائيلى. كانت الفكرة تفتقر تماما إلى الأدلة الدامغة التى لابد منها فى مثل هذه الحالة، وهو الأمر الذى دفع الملك حسين إلى سحب اتهامه علنا. لكن قضية جونسون كانت مع جمال عبد الناصر ومصر، وليس مع الملك حسين والأردن. وقد بادرت سبع دول عربية إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية فورا مع الولايات المتحدة.. ولم يكن جونسون ليستطيع استعادة تلك العلاقات إلا بصدور بيان واضح من جمال عبد الناصر يسحب فيه تهمة التواطؤ- وهو الأمر الذى ظل عبد الناصر يرفضه دائما- فإذا كانت أدلة التواطؤ العسكرى ما تزال- وستظل لسنوات- خافية، فإن أدلة التواطؤ السياسى على الأقل موجودة ودامغة.

خديعة كبرى

وحينما ذهب الملك حسين بعد الحرب بأسبوعين ليقابل الرئيس جونسون فى واشنطن، فإنه وجده متفهما لموقف الأردن. ولكنه وجده أيضا مشحونا بالمرارة- بالمرارة الشديدة على حد تعبير الملك حسين- ضد مصر وجمال عبد الناصر على وجه الخصوص.

وكان هــذا أمــرا ملفتا تماما، ففى الوقــت الراهن على الأقل أصبح لدى جونســون من الأسباب ما يجعله راضيا تماما عن نفسه وعن سياساته فى الشرق الأوسط- إن مصر لم يتم تحجيمها فقط، ولا تم سحقها عسكريا واحتلال جزء ملموس من أراضها فقط، ولكن الأكثر إذلالا من ذلك أن إســرائيل بمفردها هى التى تبدو فقط فى الصورة كأداة فى هذا الإذلال، لقد بدا على الســطح أن إسرائيل، وإسرائيل وحدها، هى التى دمرت ثلاثة جيوش عربية واحتلت سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان، وهى التى تتكلم الآن كمنتصر، وليس أمام مصر سوى أن تدفع ثمن الهزيمة، بل وأيضا تتحمل نصيبها صاغرة من «إعادة رسم خريطة الشــرق الأوســط» طبقا للمذكرة السرية التى أصبحت موجودة على مكتب الرئيس جونسون منذ السابع من يونيو.

والآن فان السؤال الملح هو: هل ستمضى تلك العملية فعلا كما هو مخطط لها؟ الواقع أن هذا السؤال وإجاباته المحتملة، كان هو أيضا الشغل الشاغل فى القاهرة منذ الدقيقة الأولى لحرب ١٩٦٧، لقد أدركت مصر أنها وقعت فى خديعة كبرى، وأدرك جمال عبد الناصر أن رأســه ونظامه مطلوبان من الرئيس جونســون. وأن ما يجرى ليس أقل من عملية كبرى تســتهدف «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط»، وهى عملية لم تكن وليدة اللحظة، ولا وليدة أحداث شهر مايو سنة ١٩٦٧ كله، إنها عملية جرى التخطيط لها قبل وقت طويل، وبإحكام ودقة، وفى صمت وتكتم، بحيث إن الأداة وحدها التى تبدو على المسرح، بينما الفاعل الحقيقى لم يترك سوى إشارات وشواهد متفرقة لا تكفى لإثبات سبق الإصرار والترصد منه بطريقة قاطعة.

عرفوا كيف يصطادونى

وربمــا فى نفس اللحظة التى كان الرئيس جونســون يقرأ فيها تلك المذكرة الســرية من مستشــاره للأمن القومى عن سياسات المستقبل فى الشرق الأوسط، كان الرئيس جمال عبد الناصر يجلس وحيدا فى غرفة فى منزله، واضعا رأســه بين كفيه، ومتمتما بكلمات قليلة صدرت فى تلك اللحظة منه بإحســاس غريزى بأكثر مما صدرت بحكم معلومات قاطعة، لقد دخل عليه أحد كبار مســاعديه فســمعه وهو يتمتم كما لو كان يكلم نفسه: «لقد عرفوا كيف يصطادونى»!..

وبرغــم الإصــرار الأمريكى فى مجلس الأمن منذ اللحظــة الأولى للحرب على عدم إدانة إســرائيل ومنع أى قرار يطالبها بالانســحاب، وبرغم تنكر الرئيــس الامريكى للتعهدات

السابقة بأن تقف الولايات المتحدة ضد أى عدوان فى المنطقة، وفى أى شكل علنى أو سرى، وبرغم تنكره أيضا لتعهده قبل الحرب بـ ١٣ يوما فقط بأن تظل الحدود القائمة بين إسرائيل وجيرانها هى تلك التى رسمتها اتفاقية الهدنة فى سنة ١٩٤٩، وبرغم الانكشاف المفاجئ لوجود سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» على الحدود البحرية بين مصر وإسرائيل منذ بدء القتال، ولغز قيام إسرائيل فيما بعد بإغراقها ثم إغلاق جونسون لهذا الملف بسرعة.. وبرغم.. وبرغم.. إلا أن الجزء الذى أصبح ماثلا للعيان على أرض الواقع هو فقط ذلك الانهيار السريع الذى وقع فى القوات المسلحة المصرية، وسوء التقدير الفادح فى الحسابات السياسية، وأبرز ما فيه هو التعهد المصرى المسبق لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بعدم توجيه الضربة الأولى مطلقا ضد احتمالات الغزو الإسرائيلى.

وأصبح من الطبيعى أن يتحمل الرئيس جمال عبد الناصر المسئولية كلها. ومن ثم فقد أعلن فى التاسع من يونيو ١٩٦٧ قراره المفاجئ بالتنحى عن السلطة فى مصر، فيما يعبر من جانبه لفهم الحقيقة والمغزى من حرب يونيو، وأدرك بأنها الفصل الأول فى عملية كبرى «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

إعادة البناء

وبنفس الإحساس الغريزى رفض الشعب المصرى، والعالم العربى كله، تنحى عبد الناصر من السلطة فيما أصبح يعنى رفضا شاملا لأهداف حرب يونيو من أساسها. هكذا بدأت عملية كبرى لإعادة بناء القوات المسلحة فى مصر من تحت الصفر ولإعلان مبدأ «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ولترجمة مشاعر الغضب والثأر إلى برنامج عملى وشامل للنهوض من جديد.

كانت إسرائيل قد خرجت من حرب يونيو فى صورة الدولة الصغيرة التى انتصرت بمفردها على جيرانها الأقوياء، ولقنتهم جميعا درسا لن ينسوه، تروج له بالصوت والكلمة والصورة حول العالم كله. والآن فان إسرائيل تريد أن تفرض شروط المنتصر لأنه ليس أمام العالم العربى من بديل سوى الإذعان، وأول ما تطلبه إسرائيل هو أن يأتى إليها العرب على مائدة التفاوض المباشر.

وفى الأسبوع الثانى من يونيو خرج أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلى يعلن: أن ما تريده إسرائيل (الآن) بسيط جدا، وما تريده هو: الأمن والسلام!

وحتى لا يقع أحد ضحية البراءة الظاهرة للكلمات، فان إيبان يستدرك بسرعة قائلا: لكن الأمن والسلام لهما مضمون إقليمى يتعلق بالأرض.

الانتظار بجانب التليفون

أما بالنسبة للرئيس الامريكى ليندون جونسون، فان المكالمة التليفونية التى ظل ينتظرها مع مستشاريه فى واشنطن هى التى تحمل خبر انهيار مصر من الداخل تحت وطأة الهزيمة الكبرى- بانقلاب عسكرى، أو بإفلاس اقتصادى، أو بثورة شعبية، أو بكل هذا معا- فتلك هى المقدمة التى لا يمكن بغيرها المضى فى «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط». لقد تنكر جونسون لكل تعهداته السابقة وقام بحماية إسرائيل داخل الأمم المتحدة من أى مشروع قرار يدين عدوانها أو يطالبها بالانسحاب.. وبدلا من ذلك خرج يهاجم مصر ويحملها المسئولية الكاملة لما جرى، معتبرا أن القصة كلها بدأت من (حماقة) إغلاق خليج العقبة.

وهكذا لم تكن الهزيمة بالنسبة لمصر عسكرية فقط، ولكنها كانت سياسية أيضا حينما اضطرت بحكم الضرورة إلى قبول وقف غير مشروط لإطلاق النار بعد أن أصرت الولايات المتحدة على عدم إدانة إسرائيل أولا، وعدم مطالبتها بالانسحاب ثانيا. وقد ترى مصر أنها هزمت فى معركة. ولكن جونسون سيظل يرى أنها هزمت فى حرب. ومن ثم يرى أنه الآن أصبحت له الكلمة الخيرة.

ومنذ البداية لاحظ الإسرائيليون أنه «حتى اليوم لم تتفوه الولايات المتحدة بكلمة واحدة ضد أعمالنا العسكرية، وممثلها فى الأمم المتحدة قاوم بشدة ونجاح كل المحاولات السوفيتية للحصول على قرار يدين إسرائيل ويطالب بانسحاب قواتها».

وبالطبع لم يكن متصورا أن تشارك الولايات المتحدة فى إدانة إسرائيل على غزوة شاركت هى فى تخطيطها. أما وقد انتهت الحرب فقد أصبح متصورا أن تتظاهر الدبلوماسية الأمريكية على الأقل باحترام ميثاق الأمم المتحدة الذى كانت هى الهدف الأكبر فى صياغته من البداية.

إن الأمم المتحدة كمنظمة دولية لكى تجسد الأساس الجديد فى مشروعية العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية. وحينما انعقد مؤتمر «الأمم المتحدة» فى ٢٥ إبريل سنة ١٩٤٥ بمدينة سان فرنسسكو الأمريكية لمناقشة مشروع الميثاق الذى ستقوم على أساسه منظمة جديدة باسم «منظمة الأمم المتحدة» كان أساس النقاش هو مذكرة أمريكية تستوعب

الدروس التى كشفت عنها فترة ما بين الحربين العالميتين. وفشل عصبة الأمم المتحدة القديمة فى فرض العقوبات على الدول التى رتبت لنفسها مكاسب إقليمية «حق الفتح والغزو العسكرى». ولذلك أصبح المبدأ الجوهرى فى ميثاق الأمم المتحدة هو «عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة العسكرية». هكذا أصبح أساس العلاقات الدولية الجديدة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية هو إصرار المجتمع الدولى على رفض أى اعتراف بحق الغزو والفتح العسكرى. وبالتالى لا يجوز للمعتدى أن يحصل أبدا على ثمار لعدوانه.

أمريكا تصر على المفاوضات

ومع ذلك فطوال مناقشات مجلس الأمن الدولى عقب نشوب حرب يونيو ظل آرثر غولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة مصرا رسميا على ضرورة أن يتفاوض العرب أولا مع إسرائيل على ما اسماه: «القضايا السياسية التى غذت نيران الصراع فى المنطقة لعقود عديدة». وذلك قبل أى تفكير فى مطالبة إسرائيل بالانسحاب إلى خطوط ٤ يونيو١٩٦٧، وحينما يتم تجريد الكلمات من غلافها الدبلوماسى الرقيق فإنها تعنى عملية مكافأة إسرائيل على عدوانها، بل إن غولد بيرغ رفض أصلا استخدام كلمة «عدوان» أو احتلال «واستبعد تماما أى إشارة إلى ضرورة عودة إسرائيل إلى مواقع ما قبل الحرب. وهى سابقة خطيرة يمكن أن تنسف ميثاق الأمم المتحدة من أساسه. وبالتالى تنسف أساس الشرعية الدولية القائمة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وبينما العرب يصرون على مبدأ الانسحاب الإسرائيلى الكامل. كان موقف غولد بيرغ هو التهكم على هذا الإصرار بكلمات ساخرة يقول فيها: إن العرب يريدون إعادة الفيلم إلى الخلف فى «البروجى كنور»!

وفى مقابل ذلك برز الرئيس الفرنسى شارل ديجول كزعيم غربى أعلن من قبل الحرب أن فرنسا ستكون ضد الطرف الذى يبدأ بالعدوان. وحينما بدأت إسرائيل الحرب أعلن ديجول بوضوح إدانة إسرائيل، وكذلك أوقف كل صادرات الأسلحة الفرنسية إليها. بما فى ذلك خمسون طائرة «ميراج» كانت إسرائيل قد سددت ثمنها فعلا.

□□□

الفصل الرابع

الرفض الشعبى والرسمى للاستسلام

- عبد الناصر فى الخرطوم: لست قلقا بالنسبة للموقف فى مصر.. والوقت فى الضفة الغربية والقدس ضدنا
- قمة الخرطوم بالتفاصيل الموثقة
- ما تضمنته رسالة جونسون لعبد الناصر عبر تيتو
- موقف واشنطن: دع الوقت يمر.. فالعرب قادمون للتوقيع على ما تطلبه إسرائيل وأمريكا
- جولد بيرغ لكوزنشوف: اتفاقنا أصبح حصانا ميتا وكوزنشوف يرد: ولكنه مسجل فى رسالة من جونسون لكوسيجن.

أصرت واشـنطن على إجبار العرب على التفاوض مع إسـرائيل، بينما أصر العرب على ضرورة الانسـحاب الإسرائيلى، وطلب عدد كبير من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة، بما فيهم فرنسـا عقد دورة طارئة للجمعية العامة، كمخرج من الجمود الذى عانى منه مجلس الأمن الدولى نتيجة الموقف الأمريكى.

إن مجلس الأمن هو السـلطة التنفيذية طبقا لميثـاق الأمم المتحدة، بينما الجمعية العامة قراراتهـا بمثابة توصيات تصدر بأغلبية الثلثـين، ومع ذلك فإن قيمتها المعنوية تتركز فى تعبيرها عن إرادة المجتمع الدولى بعيدا عن حق الاعتراض- الفيتو- المكفول للدول الخمس الكبرى دائمة العضوية.

وذهب الكثيرون من رؤسـاء الدول والحكومات لحضـور تلك الدورة الطارئة، بمن فيهم الملك حسين ملك الأردن واليكسى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفياتى وكذلك رؤساء حكومات أخرى كايطاليا والدينمارك ووزراء خارجية فرنسـا وبريطانيا. ولكن هذا كله تم فى مواجهة ضغط أمريكى مكثف لم تشهده الأمم المتحدة منذ مناقشات تقسيم فلسطين فى سنة ١٩٤٧.

ومن البداية، وبضغط مارسـه الرئيس جونسون شخصيا، ثم ترتيب كلمة أبا أيبان وزير خارجيـة إسـرائيل، وفهم ايبان على الفـور أن المطلوب هو تصوير إسـرائيل إعلاميا فى الولايـات المتحدة باعتبارها الدولـة الصغيرة التى تواجه إمبراطوريـة كبرى تقود الحركة الشـيوعية فى العالم- وهى صورة شـديدة الجاذبيـة إعلاميا بالنسـبة للمواطن الأمريكى العادى، ومن ثم فقد أصبح ايبان فى كلمته يقوم بدور الممثل الذى يقوم بدوره جيدا، مشيرا بعـد كل فقـرة إلى رئيس الوزراء السـوفياتى الجالس فى مقعده لأنه هـو الذى أمد العرب بترسانة من الأسلحة سحقتها الدولة الصغيرة المسالمة- إسرائيل- وحدها.

بيان مفاجئ لجونسون

وزيادة فى ذلك اختار الرئيس ليندون جونسـون أن يذيع على الهواء مباشـرة. قبل بدء اجتماعات هذه الدورة الخاصة بساعة واحدة. بيانا مفاجئا عن السياسة الأمريكية الجديدة فى الشـرق الأوسـط، وقد تضمن البيان الذى أذاعه جونسـون فى ١٩ يونيو ١٩٦٧ خمسة

مبادئ لابد من توفرها للتسوية الجديدة فى الشرق الأوسط وهى: الاعتراف بحق الوجود القومى- العدالة للاجئين (الفلسطينيين)- حق المرور البحرى البرىء- الحد من سباق التسلح- الاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة ووحدة أراضيها.

ومن الناحية النظرية فإن الإصرار العربى على ضرورة انسحاب إسرائيل إلى مواقع ٤ يونيو ١٩٦٧ يمكن أن يندرج تحت المبدأ الخامس الذى ذكره جونسون، لكن من الناحية العملية فإن كل المبادئ الخمسة لم تكن سوى كلمات شديدة العمومية يمكن أن تتحمل مائة معنى ومعنى. فضلا عن أنها اعتبرت تطابقا كاملا بين الموقفين الأمريكى والإسرائيلى من حيث ارتباط أى انسحاب إسرائيلى بثمن ومكافأة لابد أن تحصل عليها إسرائيل مقدما، قبل أن يصل الحديث إلى أى انسحاب.

وهكذا أصبح الموقف الأمريكى فى تلك اللحظة هو: «إقامة إطار دبلوماسى لتسوية سلمية، وبعدها يجرى السماح للوقت بأن يمر إلى أن يصبح العرب مستعدين للتفاوض من أجل استعادة أراضيهم، وبخلاف المساعدة فى إقامة الإطار الدبلوماسى فان كل ما تحتاجه الولايات المتحدة هو أن تضمن عدم تحول الميزان العسكرى ضد إسرائيل.

بكلمات أخرى: دع الوقت يمر.. فالعرب قادمون فى النهاية للتوقيع على ما تطلبه منهم إسرائيل والولايات المتحدة. وإلى أن يحدث ذلك فإن هدف جونسون هو «ضمان استمرار الأمر الواقع الجديد» الذى خلفته حرب يونيو.

مراوغات واشنطن

وحينما تقدمت بعض دول أمريكا اللاتينية بمشروع قرار إلى الجمعية العامة ينص على انسحاب إسرائيل إلى مواقع ٤ يونيو، عملت الدبلوماسية الأمريكية ليل نهار- خصوصا فى عواصم أميركا اللاتينية وأوروبا الغربية- لكى تمنع حصول القرار على أغلبية الثلثين المطلوبة، وحدث نفس الشىء فى مشروع مماثل تقدمت به يوغوسلافيا. وكان كوف دى مورفيل وزير خارجية فرنسا هو الذى واجه آرثر جولد بيرغ فى صالة الوفود قائلا له بحدة على مسمع من عديدين: إنكم فعلا تجاوزتم الحدود.. هل تريدون هدم المعبد على من فيه!

ولقد كان الرئيس الفرنسى شارل ديجول يصر من البداية على ألا تحتكر الولايات المتحدة الحل والربط فى الشرق الأوسط، وقد حذر إسرائيل عدة مرات من نتائج علاقتها «الخاصة» هذه مع الولايات المتحدة فى المدى الطويل. مكررا أن الدول الأربع الكبرى- وهى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى وفرنسا وبريطانيا- يجب أن تشارك فى صياغة الحل.

لكن الرئيس الامريكى ليندون جونسون علق على ذلك بطريقة ساخرة فجة قائلا: أى دول أربع؟ فيما عدا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى.. ما هما الدولتان الأخريان؟!

ومع ذلك، فحتى الاتحاد السوفياتى لم ينج فى أية لحظة من مراوغات جونسون، وحينما اجتمع مع كوسيجين فى مدينة جلاسبور الأمريكية- ولكن بالتدريج- أمكن لأندريه جروميكو وزير الخارجية السوفياتى التوصل إلى صيغة لموقف مشترك مع الأمريكيين، إن دين راسك وزير الخارجية قال: كما أصبحت عادته مؤخرا، إن آرثر جولد بيرغ هو المفوض من الرئيس جونسون فى نيويورك، ووالت رستو فى واشنطن، بالنسبة لأى اتفاق يتعلق بالمسألة العربية الإسرائيلية فى هذه المرحلة، وبناء على ذلك اجتمع السفير السوفياتى دوبربنين بوالت روستو فى واشنطن.. واجتمع جروميكو بجولد بيرغ فى نيويورك فى ١٩ يوليو ١٩٦٧، وتم الاتفاق على مشروع قرار: «يؤكد مبدأ عدم السماح للاستيلاء على الاراضى من خلال الحرب فى ظل ميثاق الأمم المتحدة، ويطلب من كل أطراف الصراع أن تقوم بدون تأخير بسحب قواتها من الأراضى التى احتلتها بعد ٤ يونيو ١٩٦٧. ويؤكد بنفس القدر مبدأ الاعتراف بدون تأخير بكل عضو من دول المنطقة بحق الحياة فى سلام وأمن كدولة مستقلة. وكذلك التخلى عن الادعاءات والأعمال التى لا تتمشى مع ذلك».

بكلمات أخرى: توافق الولايات المتحدة على انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. مقابل إنهاء الدول العربية لحالة الحرب مع إسرائيل والاعتراف لها بحق «الحياة».

اتفاقنا حصان ميت

ولكن سرعان ما تراجعت الولايات المتحدة عن هذا الموقف المشترك مع الاتحاد السوفياتى، ففيما بعد حينما عادت المناقشات إلى مجلس الأمن طلب كوزنتسوف نائب وزير الخارجية السوفياتى من جولد بيرغ أن يكون هذا الاتفاق الأمريكى السوفياتى هو أساس المشاورات لاستصدار قرار.

لكن جولد بيرغ رد عليه مستنكرا: أى اتفاق؟ لقد أصبح اتفاقنا مجرد حصان ميت.

ورد عليه كوزنتسوف مستغربا: كيف ذلك؟ إن هذا الاتفاق مسجل فى رسالة رسمية بعث بها الرئيس جونسون إلى (رئيس الوزراء) كوسيجين. فهل تقصد أن جونسون هو الأخر.. حصان ميت؟!..

وكان وراء هـذا التغير الأمريكى المفاجئ سـببان جوهريان، أحدهما يتعلق بإسـرائيل، والأخر يتعلق بالعرب، وبمصر على وجه الخصوص.

فبالنسـبة لإسرائيل اجتمع جولد بيرغ مع أبا ايبان وزير خارجية إسرائيل فى العشرين من يوليو ليخطره بهذا الاتفاق الامريكى السوفياتى، وهنا: «دارت واحدة من أكثر المناقشات حرجـا على الإطلاق بين الولايات المتحدة وإسـرائيل، لقد كانت مواجهة مؤلمة على ضوء التوافق السياسى بيننا، وأيضا التوافق فى تصوراتنا، لما يجب أن يكون عليه العالم العربى بعد حرب يونيو ١٩٦٧.

فى الواقع أن إسـرائيل بعد أن أسـكرتها نشوة النصر الجارى لم تكن تحلم به. بدأت تطمح إلى عمل تغيير نوعى فى طبيعة علاقاتها مع الولايات المتحدة. فألان لم تعد إسرائيل تقنع بدور الدولـة «العميلـة» التى تصدر إليها التعليمات فتطيع.. لمجـرد أنها تعيش من جدول المرتبات الأمريكى، ولكنها الآن تريد أن تصبح «الشريك الاقليمى» للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. فليكن نصيب الولايات المتحدة هو تحجيم مصر وعزلها وتعديل سياساتها. ومن نصيب إسرائيل يجب أن يكون كبيرا بنفس القدر. فيصبح على الأقل: إطلاق يد إسرائيل فى المشرق العربى.

الملك حسين يرفض

وهكذا، فعلى ضوء نتائج حرب يونيو أصبح أبا ايبان يرى «أن الملك حسـين أصبح الآن أقوى حاكم فى العالم العربى ويجب على الإسـرائيليين أن تدعمه تماما. وباختصار. فإن إسـرائيل و(الملك) حسين يجب أن يقتسـما معا العالم العربى فيما هو شرق قناة السويس، يجب أن يقيما معا تحالفا، تضمن إسـرائيل بمقتضاه المملكة الهاشمية، وربما يتضمن هذا (مسـتقبلا) العراق كذلك. إن القوات الإسـرائيلية سـتظل مرابطة على نهر الأردن. وإذا نشـأت الحاجة فإنها سـترابط أيضا عند محطة- اتش ٥- وهى محطة ضخ البترول على خط الأنابيب الممتد من كركوك إلى البحر الأبيض المتوسط، والتى تقع على الحدود الأردنية العراقية، حينئذ يتم عزل سوريا بعد أن تم عزل مصر.

فـى تلك الفـترة كان مجلس الوزراء الإسـرائيلى قد فوض أبا ايبان فـى إعداد التصور الإسرائيلى بالنسبة للأردن. ومن الواضح أن نقطة الانطلاق فى ذهن أبا ايبان هى أن تمثل العلاقة الإسـرائيلية الأردنية امتدادا للعلاقـة الأمريكية البريطانية. ولكن الترجمة العملية لهـذا التصور أصبحت تعنى أولا توقيع معاهدة سـلام إسـرائيلية مـع الأردن. وثانيا أن

يتنازل الملك حسين عن القدس العربية ويعترف بالقدس الموحدة عاصمة لإسرائيل، وثالثا أن يقر الأردن بالتنازل عن «ثلاثة وثلاثين بالمائة من الضفة الغربية لإسرائيل» وهذا هو ما عرف فيما بعد باسم «مشروع ألون»، نسبة لايجال الون الوزير الإسرائيلى الذى وضع حينئذ الجانب العسكرى من هذا «التصور الإسرائيلى».

العرب لا يستسلمون

وتلك الطموحات الإسرائيلية كانت تفترض بالطبع استعداد الملك حسين للتكيف مع وقائع ما بعد حرب يونيو كخاتمة للصراع- وهو الأمر الذى أدركت إسرائيل بسرعة أن الملك حسين يرفضه بالكامل. ففى الواقع أن الملك حسين فى تلك الفترة ذاتها كان يعمل بلا كلل لعقد مؤتمر عربى للقمة لبلورة خطة عمل عربية.

أما العامل الأكثر حسما لتلك الطموحات الإسرائيلية فهو افتراض أن مصر قبلت نتائج حرب يونيو باعتبارها الكلمة الأخيرة ولن تفكر مطلقا فى إعادة بناء جيشها كما أنها لن تتمكن من ذلك. وسوف يتجرع جمال عبد الناصر- أو من يحل محله- مرارة التقوقع داخل عزلة يدعمها العالم العربى استرضاء للولايات المتحدة. وهو ما يعنى أن انهيار مصر لم يعد سوى مسالة وقت بالنسبة للتفكير الإسرائيلى حينئذ.

ولكن بدلا من الانهيار الداخلى فى مصر، أو التحول من الراديكالية إلى الاعتدال حسب القاموس الامريكى فى مذكرة والت روستو السرية يوم ٧ يونيو.. وبدلا من مسارعة الدول العربية إلى الرئيس ليندون جونسون لكى تسترضيه وإلى إسرائيل لكى تملى شروطها على مائدة المفاوضات.. فإن الذى حدث هو العكس تماما.

لقد خرجت المظاهرات فى مصر والعالم العربى تعلن تمسكها بجمال عبد الناصر، وتفرض على معظم الدول العربية الاستمرار فى قطع العلاقات الدبلوماسية تضامنا مع مصر، وتطالب بالنهوض من جديد لأخذ الثأر بالقوة العسكرية.

وبدأ الرؤساء العرب يتوافدون على القاهرة لإعلان تضامنهم فى رفض قبول الهزيمة أو مكافأة إسرائيل على عدوانها. كما وصل وفد عسكرى سوفيتى إلى القاهرة فى ١٦ يونيو، ثم وفد سياسى برئاسة نيكولا بردجورنى فى ٢١ يونيو.

وخلال هذا كله استمر وصول الشحنات العسكرية العاجلة من عدة دول عربية. وهى شحنات كانت قد بادرت بها الجزائر دون انتظار. واعتبارا من اليوم التالى فى الحرب

مباشــرة، وخصوصا الطائرات، وكذلك من الاتحاد السوفياتى بحيث إنه فى «كل دقيقتين ونصــف طيــارة تنزل محملة ١٠ طن ســلاح» وكان هذا بمثابة (كوبرى جوى بين موســكو والقاهرة خلاف السفن).

وبالنسبة لمن يرصد تلك التطورات السريعة، لم تكن تلك علامات دولة تنهار فى مصر، أو إرادة سياسية تنوى قبول الأمر الواقع أو الاستسلام له.. ولا هى أيضا علامات عن ظهور اتجاه جديد فى العالم العربى يسعى إلى استرضاء الرئيس الامريكى ليندون جونسون.

من جونسون لعبد الناصر عبر تيتو

وهكذا بادر الرئيس جونســون فى ٩ أغســطس بكتابة رســالة إلى الرئيس اليوغســلافى جوزيف بروز تيتو بهدف إبلاغها إلى الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة.

وفى تلك الرسالة قال جونسون: «.. إن الولايات المتحدة توافق أيضا على أن أية تسوية يجــب ألا تؤدى إلى إذلال الدول العربيــة أو تجبرها على التنازل عن أية حقوق أو مصالح مشــروعة تتمســك بها».. و«أن الولايات المتحدة ســوف تأخذ فى اعتبارها الكامل حقوق ومصالح الدول العربية. وكذلك تلك الخاصة بإسرائيل».

أما بالنســبة لما بدأت إســرائيل تطلبه من ضرورة اعتراف مصر (الجمهورية العربية المتحدة) والعرب بها، وكذلك التفاوض المباشــر معها فإنه: «من وجهة نظر الحكومة الأمريكيــة، فــإن تخلى الجمهوريــة العربية المتحدة عن أهدافهــا الحربية لا يتطلب منهــا على ســبيل المثــال أن تعلن اعترافهــا بإســرائيل أو أن تتبادل معهــا التمثيل الدبلوماسى».

«In the view of the American Government an abandonment of claims of belligerency would not require the U. A. R for example. to extend recognition to Israel or to establish diplomatic with it» 0

وذلك يعنى. بالإضافة إلى أشياء أخرى، حق جميع الدول فى استخدام ممر تيران وقناة السويس. وإنهاء أى مطلب أو حق فى استخدام القوات المسلحة، أو التهديد باستخدامها، من جانب إحدى دول الشرق الأوسط فى مواجهة دولة أخرى فيه».

بكلمات أخرى: فإن كل ما يطلبه الرئيس جونسون من مصر- الآن فى أغسطس ١٩٦٧- هو إنهاء حالة الحرب مع إســرائيل. والســماح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى قناة السويس

وممر تيران فى خليج العقبة، ولكن، ليس مطلوبا من مصر أى اعتراف بإسرائيل أو تفاوض مباشر معها أو تبادل للتمثيل الدبلوماسى.

ولكن: لا حديث بالمرة عن الضفة الغربية والجولان، خصوصا وان الملك حسين لم يحصل من الرئيس جونسون حينما قابلة فى الشهر السابق- يوليو- بواشنطن سوى على وعود غامضة حول الضفة الغربية، وهو عكس ما كان يتوقعه جمال عبد الناصر فى القاهرة حيث إنه كان يتصور: «أن الولايات المتحدة» لابد أن تضطر إلى أن تقف مع الملك حسين موقفا مختلفا عن موقفها معه هو.

القدس

فى نفس الوقت كانت القدس تتصدر المناقشات فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. وبداية فإن مساحة القدس التى تحددت أولا فى قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين الصادر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ هى مجرد نصف فى المائة من مساحة فلسطين، وقتها تحدث القرار عن حكم دولى خاص بمدينة القدس، الآن حينما تبحث الجمعية العامة للأمم المتحدة لأول مرة إجراءات إسرائيل الاحتلالية فى القدس المحتلة فى الرابع من يوليو ١٩٦٧- أى فى ذروة النشوة الإسرائيلية بغزوتها الكبرى وانسحاق العرب تحت وطأة الهزيمة. مع ذلك قررت الأمم المتحدة أنها: «تدعو إسرائيل إلى إلغاء جميع الإجراءات التى اتخذت والامتناع عن اتخاذ أى عمل من شانه تغيير وضع القدس».

ولأننا هنا نريد فقط التركيز على الجانب السياسى فى قضية القدس. وفى هذا الجانب كان المجتمع الدولى كله واضحا من البداية فى رفضه القاطع لاحتكار إسرائيل السيادة على مدينه القدس، ولم تشذ عن هذا الموقف أية دولة، بما فى ذلك الولايات المتحدة ذاتها التى اعتادت حماية إسرائيل كثيرا عن غضب المجتمع الدولى بل إن الموقف الامريكى هنا كان متسقا مع ذاته، وبرغم تراجعه فى نواح أخرى من القضية الأشمل، إلا أنه بالنسبة لمدينة القدس على وجه الخصوص ظلت الولايات المتحدة ترفض الموقف الإسرائيلى تماما منذ لحظة البداية التى تصورتها إسرائيل فرصة ذهبية لفرض الأمر الواقع على عالم عربى مهزوم.

ففى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ كانت إسرائيل تشعر بنشوة جارفة أسكرتها تماما إلى الحد الذى جعل الكنيست- البرلمان- الإسرائيلى يصوت فى ٢٧ يونيو ١٩٦٧ على مشروع

يخول للحكومة الإسرائيلية بسط سيادتها على القدس الشرقية «العربية» ويفوضها اتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك. وبادر أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل الموجود حينئذ فى نيويورك مشاركا فى مناقشات الأمم المتحدة بشان أزمة الشرق الأوسط إلى الاتصال برئيس وزرائه- ليفى اشكول يومذاك- يرجوه تأجيل اتخاذ أى خطوة حكومية لتنفيذ قرار الكنيست حتى لا يؤثر هذا سلبيا على مناقشات الجمعية العامة للأمم المتحدة. وانضم إليه يومها فى هذا الرجاء الياهو بن اليسار ممثل حزب «حيروت» فى الوفد الإسرائيلى وأحد مساعدى مناحيم بيغن المقربين، الذى سيصبح فيما بعد أول سفير لإسرائيل لدى السادات.

ولكن ليفى اشكول لم يأخذ بوجهة نظر وزير خارجيته. وبادرت الحكومة الإسرائيلية فى اليوم التالى إلى تنفيذ قرار الكنيست، وبالطبع أدى هذا إلى مضاعفات دولية انعكست على مناقشات الأمم المتحدة، مما جعل الولايات المتحدة تسجل موقفها رسميا فى ١٤ يوليو ١٩٦٧ على لسان سفيرها فى الأمم المتحدة الذى قال: «بالنسبة إلى الإجراءات المحددة التى اتخذتها حكومة إسرائيل فى ٢٨ يونيو أود أن أوضح أن الولايات المتحدة لا تقبل ولا تعترف بأن الإجراءات الادارية التى اتخذتها حكومة إسرائيل فى ٢٨ يونيو يمكن اعتبارها الكلمة الأخيرة فى المسالة. ونحن نأسف لاتخاذها. إننا نصر على أن تلك الإجراءات لا يمكن اعتبارها سوى إجراءات مؤقتة. كما أنها لا تقرر مسبقا الموقف النهائى أو الدائم لمدينة القدس». كان هذا هو الموقف الامريكى الرسمى فى ظل رئاسة ليندون جونسون نفسه، شريك إسرائيل فى خرب يونيو ١٩٦٧، وعلى لسان آرثر جولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة وهو الأخر محامى إسرائيل فى المنظمة الدولية.

وبقفزة سريعة- مؤقتا- سنجد مرة أخرى تكرر هذا الموقف الرسمى الامريكى فى أول يونيو ١٩٦٩ على لسان مندوب أمريكى آخر فى الأمم المتحدة، هو تشارلز يوست، وفى ظل رئيس آخر هو ريتشارد نيكسون. ويومها وقف يوثانت فأعلن فى مجلس الأمن الدولى «أن الولايات المتحدة تعتبر أن ذلك الجزء من مدينة القدس الذى أصبح تحت الاحتلال الإسرائيلى فى حرب يونيو هو مثل الأراضى الأخرى التى احتلتها إسرائيل أرضا محتلة ومن ثم يخضع لأحكام القانون الدولى».

هكذا كان الموقف الرسمى الأمريكى إذن، بالنسبة إلى القدس العربية شديد القطع والوضوح منذ البداية مما جعل أبا ايبان يقول فى مذكراته: «كانت غلطتنا الرئيسية فى شأن القدس أننا لم ننسق موقفنا مقدما مع الولايات المتحدة. وهى غلطة لم نكررها فى المواضيع الأخرى».

هناك أذن موقف أمريكى محدد بالنسـبة إلى القدس وظل متناسـقا فى ظل إدارات متعاقبة. وخلاصته؛ أن القدس الشرقية التى احتلتها إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ هى أرض محتلة وينطبق عليها ما ينطبق على بقية الاراضى العربية المحتلة. وفى مقابل ذلك هناك موقف اسرائيلى يقوم على فرض الأمر الواقع من جانب واحد أملا فى أن يؤدى ذلك مسبقا إلى استبعاد القدس من أية مفاوضات تالية. وهذا هو بالضبط ما تحاول إسرائيل عمله فى كل المراحل التفاوضية التالية.

ولكـن القصـة لا تنتهى عند هذا الحد فإسـرائيل من جانبها تحـرص على إخفاء هذه الصفحة الجوهرية فى ملف القدس، كانت هى التى تطوعت بكتابتها مبكرا أملا فى النجاة مـن المزيد من الإجراءات الدولية. فلقد حدث أن تلقى الأمين العام للأمم المتحدة ذات يوم رسـالة رسمية من إسـرائيل تقرر فيها الحكومة الإسرائيلية انه: «لا تدعى لنفسها سيطرة منفردة أو مانعة على الأماكن المقدسـة للمسـيحية والإسـلام».. و: «أننا سنكون مستعدين ضمن تسوية سلمية إلى التعبير عن هذا المبدأ فى شكل ملائم».

إن تاريخ تلك الرسـالة هو العاشـر من يوليو ١٩٦٧ وقد وقعها عن إسرائيل بالطبع وزير خارجيتها حينئذ.. أبا ايبان. لكن كان اللافت فى هذه الحالة أن إسرائيل وقعت على تلك الرسـالة توقيعين آخرين لاثنين من الوزراء الإسرائيليين هما زيراخ وارفينج ومناحيم بيغن. نعم.. بيغن.. صقر الصقور فى إسـرائيل ووزير الدولة حينئذ والأب الروحى الذى ما يزال حزب الليكود يسـتلهمه حتى الآن. وحينما وضع مناحيم بيغن توقيعه على تلك الرسـالة الرسميـة الموجهـة إلى الأمين العام للأمم المتحدة كان العـرب مازالوا يرضخون تحت وطأة هزيمة عسـكرية مدوية وإسـرائيل فى ذروة نشـوتها، وذراعها الطويلة تقبض على أراض عربية بثلاثة أمثال مساحة إسرائيل.

لنلاحـظ هنا مبدئيا أن الموقف الامريكى الأول يوليـو ١٩٦٧ تم بينما العالم العربى كله تقريبا قد قطع علاقاته الدبلوماسية مع أمريكا... والموقف الأمريكى الثانى يوليو ١٩٦٩ تم فى قمة حرب الاستنزاف المصرية ضد الاحتلال الإسرائيلى.

وإذا كانت الولايات المتحدة خشـيت عرب ١٩٦٧ وبرغم هزيمتهم العسـكرية وانقطاع العلاقات الدبلوماسـية معهم.. إلا أننا نجد عكس ذلك تماما مع عرب السـنوات التالية، برغم أكتوبر والبترول والعلاقات الخاصة مع الشريك الامريكى.

وما تسـعى إليه إسـرائيل الآن ليس ضم القدس فهى قد ضمتها فعلا ولا هو رفع علمها هناك فهو مرفوع منذ سنة ١٩٦٧ ولكن الذى تسعى إليه إسرائيل هو الحصول على الغطاء الامريكى.. فهذه هى الشرعية الوحيدة التى تعيش بها إسرائيل وتضم وتتوسع.

ويقول أبا ايبان فى مذكراته: «إن الولايات المتحدة- وطوال ١٧ سنه- لم تصدر عنها كلمة إدانه واحدة ضد الحرب الإسرائيلية فى يونيو سنه ١٩٦٧ ولكنها أدانت ضم القدس منذ سنة ١٩٦٧».

وفى هذا السياق تأتى الدلالة البالغة لإثارة موضع القدس بعد ذلك فى الكونجرس الامريكى وفى محاولة إسرائيل الحصول على الاعتراف الدبلوماسى الكامل من الفاتيكان بها لأول مرة منذ سنة ١٩٤٨ ولم تكن تلك مجرد خطوة أخرى فى تداعيات السنوات الأخيرة. إن هذا الاتفاق لا يقضى فقط بالاعتراف المتبادل وتبادل السفراء بين الفاتيكان وإسرائيل، ولكنه كان يمثل أيضا تحولا مفاجئا عن التزام بالحق الفلسطينى مارسه الفاتيكان دائما من قبل، كما أن أهميته السياسية الأخرى تأتى من آثاره المتوقعه على موقف القدس فى أية تسوية نهائية بين إسرائيل والفلسطينيين، وفى هذه الأيام بالذات... لأن القدس- فى الواقع هى استكمال لحرب يونيو سنة ١٩٦٧ إنها فى التطبيق العملى أخر معارك تلك الحرب!.

قمة الخرطوم

عودة إلى أجواء هزيمة ١٩٦٧ ومساعى الملك حسين إلى عقد قمة عربية فقد أسفرت المشاورات العربية عن ضرورة عقد اجتماع طارئ للقمة فى العاصمة السودانية الخرطوم. وسافر عبد الناصر إلى هناك فى أول مواجهة عربية بعد هزيمة يونيو. وكانت المفاجأة التى أذهلت المعلقين الغربيين هى ضخامة الاستقبال الشعبى لعبد الناصر. بخروج مئات الآلاف من السودانيين ترحيبا به ومطالبة بتحرير الأرض والثأر من إسرائيل.

وكانت هناك مشكلة عاجلة تتعلق بخسارة مصر لمواردها من قناة السويس نتيجة إغلاقها وكذلك ضياع مواردها من بترول سيناء، وهو ما يعنى تحمل الاقتصاد المصرى لمائة وعشرين مليون جنيه استرلينى خسائر سنوية لهذا السبب وحده. فضلا عن الأعباء الضخمة التى سيتطلبها إعادة البناء العسكرى.

وحينما بدأت الجلسة الرسمية للمؤتمر أثير موضوع دعم دول المواجهة مع إسرائيل وأنصبة دول البترول العربية فى ذلك. ورفع الملك فيصل ملك السعودية يده مشيرا بأصابعه الخمسة. بما يفيد أن السعودية ستساهم بخمسين مليونا من اجمالى المبلغ المطلوب. وهو ١٣٥ مليون جنيه استرلينى- مائة وعشرون مليونا منها لمصر وخمسة عشر مليون للأردن

(لم تكن سوريا قد حضرت المؤتمر). ثم أعلن الشيخ صباح السالم الصباح أمير الكويت استعداد الكويت لدفع ٥٥ مليون جنيه، وقررت ليبيا المساهمة بالثلاثين مليونا الباقية.

(وبعدها حينما علم عبد الناصر بان وزير الاقتصاد الاردنى يطلب ٤٠ مليون جنيه استرلينى وليس ١٥، قرر عبد الناصر تحمل هذا المبلغ من نصيب مصر بدلا من مطالبة الدول العربية برفع مساهماتها، وهكذا أصبحت مصر تحصل على ٩٥ مليون جنيه والأردن على ٤٠ مليونا).

لكن المشكلة الحقيقية التى سيكون لها انعكاسات على سياسات المستقبل، كانت تتعلق بالضفة الغربية المحتلة التى لن تستطيع الأردن استعادتها بالعمل العسكرى.

عبد الناصر يطلب الإسراع باستعادة الضفة

وقال عبد الناصر: إن العمل السياسى شاق ويحتاج إلى نضال عنيف، إن الموقف السياسى بالنسبة إلينا فى مصر اختلف كثيرا بعدما اتخذنا اليوم قرار الدعم الاقتصادى لدول المواجهة، لأن الأمريكان كانوا يعتقدون أننا سوف نستسلم بعد ستة أشهر، لكن هذا الدعم سيمكننا من الصمود. وموقفنا فى مصر يختلف كثيرا عن موقف الملك حسين فى الأردن، لأننا فى مصر نستطيع أن نصمد سنة وسنتين وأكثر، إننا فى مصر نستطيع الانتظار حتى نستكمل استعدادنا العسكرى وعندئذ نقوم بالعمل الوحيد الذى تفهمه إسرائيل جيدا، وهو تحرير الأرض بالقوة، من هنا فإننى لست قلقا بالنسبة للموقف فى مصر، ولكن ما يقلقنى حقيقة هو الموقف فى الضفة الغربية، وهنا يجب أن نسأل أنفسنا: هل عامل الوقت بالنسبة للضفة الغربية سيكون فى صالحنا أو لا؟ أنا شخصيا أعتقد انه لن يكون فى صالحنا على الإطلاق، إننى أتتبع بالتفصيل كل ما يحدث فى إسرائيل اليوم، لقد اندمجت الأحزاب الثلاثة التى تمثل قمة التطرف فى إسرائيل، فى كتلة واحدة تحت اسم «ليكود». وهذه الكتلة تصر على الاحتفاظ بالضفة الغربية بأكملها وعدم التخلى عن أى شبر منها، لهذا يجب أن نسرع بالتحرك ونبذل أقصى جهدنا لاستعادة القدس والضفة الغربية بالوسائل المتاحة لدينا فى الوقت الحاضر، لأننا لو تأخرنا قليلا فلن تعود القدس ولن تعود الضفة الغربية».

وقال عبد الناصر: «عندما حضر إلينا الملك حسين فى القاهرة كنت أشعر بالمشكلة الحقيقية بالنسبة للضفة الغربية. كنت أتألم من أجلها ومن أجل أهلها، كان إحساسى

بها وألمى لها أضعاف ألمى لسيناء، لأن الضفة الغربية مزدحمة بسكانها الفلسطينيين وقد سقطوا الآن فى قبضة الاحتلال اليهودى، فى الوقت الذى نقف نحن مكتوفى الأيدى لا نستطيع أن نفعل شيئا من أجلهم. إن سيناء تكاد تكون خالية من السكان. كما أن مصر لن تهدأ لحظة عن تحريرها ولو اضطرت إلى تقديم عشرات الألوف من الشهداء، لكن أطماع اليهود فى الضفة الغربية قديمة ومعروفة. إنهم يطلقون عليها اسم (يهودا والسامرة) ويعتبرونها جزءا من «أرض الميعاد».. ولهذا: «قلت للملك حسين: إن له أن يقوم بأى إجراء يراه مناسبا ما عدا الصلح مع إسرائيل والتفاوض معها».

الشقيرى والملك حسين

وكان الجدل فى القاعة المغلقة للمؤتمر يتجه إلى التوتر بين أحمد الشقيرى رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية حينئذ. والملك حسين. إن الشقيرى وزع على المؤتمرين مذكرة تحدد موقف منظمة التحرير الفلسطينية فى مبادئ ستة تقرر أنه لا صلح ولا تعايش ولا مفاوضات مع إسرائيل، و«عدم الموافقة على أية تسوية تمس القضية الفلسطينية وتؤدى إلى تصفيتها» و«عدم التنازل عن قطاع غزة والضفة الغربية والتأكيد على عروبة القدس».

وبالطبع لم يكن هناك فى المؤتمر أى حديث عن تنازل يتعلق بالأرض. ولذلك أصبح جوهر مذكرة الشقيرى هو النقطة الخامسة «عدم انفراد أية دولة عربية بقبول أى حلول لقضية فلسطين».. ثم «التركيز على أن قضية فلسطين برغم أنها قضية عربية مصيرية. إلا أن شعب فلسطين هو صاحب الحق الأول فى تقرير مصيره».

ولم يفسر الشقيرى للمؤتمر ذلك التناقض بين اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية، كممثلة للشعب الفلسطينى. هى صاحبة الحق الأول فى تقرير مصير شعبها، وبين المطالبة بعدم انفراد أى طرف عربى بقبول أى حلول للقضية، وسرعان ما خيم التوتر على المناقشات حينما ألمح الشقيرى إلى وجود محاولات تؤدى إلى «تصفية القضية».

وتساءل الملك حسين عن «من الذى كتب هذه المبادئ الستة؟ ومن الذى قررها؟».. وقال مخاطبا الملوك والرؤساء العرب: إننى أخيرا موافق على أى رأى ترونه. أو أى مسئولية تحددونها، ولكنى لست مستعدا أن أسمع نصائح من احد».

وقال عبد الناصر: إننى أتقدم من الملك حسين بسؤال: هل تستطيع تحرير الضفة الغربية بالوسائل العسكرية؟ إذا كانت الإجابة بالإيجاب. فأنا ذاهب معك مهما تكن

النتائج. أما إذا كانت الإجابة بالنفى. ففى هذه الحالة علينا أن نذهب إلى الحل السياسى حتى نصبح قادرين على الحل العسكرى».

وقال عبد الناصر: إننى اختلف مع الشقيرى فى تعبير ورد على لسانه عن الحل النهائى للقضية. فالتصفية النهائية للقضية تعنى الجلوس مع إسرائيل حول مائدة مفاوضات وهذا بالفعل ما تريده أميركا..

وقال عبد الناصر «إذا لم يكن لدينا الآن حل عسكرى لتحريرها» أى الضفة الغربية «فعلى الملك حسين أن يسعى لحل القضية بمعرفته، بشرط ألا يؤدى ذلك إلى مفاوضات صلح مع إسرائيل»، وبخصوص اقتراحى قيام الملك فيصل بالاتصال بالأمريكان. فأرجو الموافقة على أن يقوم جلالته بهذه الاتصالات «عن الضفة الغربية» باسم المؤتمر..

قال الملك فيصل: إنى أتصل بالأمريكان بصفة دائمة. ومنذ أسبوع واحد كان عندى السفير الأمريكى..

وسأله عبد الناصر: وماذا كان رأيهم؟

قال الملك فيصل: والله ما قال السفير الأمريكى سوى النقاط الخمس التى وردت فى مشروع جونسون.

وعاد الشقيرى يتحدث من جديد قائلا إن «النقاط الخمس التى وردت فى مشروع جونسون ثمن غال وباهظ من أجل استرجاع الضفة الغربية»..

لاءات الخرطوم الثلاث

ومع مضى المناقشات كان واضحا عدم الثقة بين الملك حسين والشقيرى.. ولم يقدم الشقيرى بديلا محددا لاستعادة الضفة الغربية أكثر من ضرورة الاستمرار فى وقف ضخ البترول العربى وسحب الأرصدة العربية من منطقة الاسترلينى والدولار.. إلخ..

وانتهى المؤتمر إلى قراره المعروف: لا اعتراف ولا تفاوض ولا صلح مع إسرائيل، وأصبح الملك حسين مفوضا عربيا باستعادة الضفة الغربية من خلال العمل السياسى مع الولايات المتحدة. أما مصر فإنها مصممة على الحل العسكرى «وكذلك سوريا» ولكنها سوف تساير المحاولات الدبلوماسية فى الأمم المتحدة لكسب الوقت.

□□□

الفصل الخامس

الضربة المصرية الأولى

المدمرة «إيلات»

❑ أمريـكا تحاول ضرب الجيـش المصرى من المنبع بعد أن ضربته إسرائيل من المصب

❑ عبد الناصر يعترف:

وضعت مسدسـى إلى جانبى.. وأرسلت عائلتى إلى خارج القاهرة فلم يعد يمنع إسرائيل من دخول القاهرة سوى سبع دبابات.

❑ فـى أول ضربة بحرية مصرية غرقـت المدمرة «ايلات» وسقط ٢٥٠ قتيلا إسرائيليا.

❑ حـوار أميركـى- سـوفيتى سـاخن علـى العشـاء فـى نيويورك.

حتى تجعل مصر لموقفها مصداقية حقيقية أصبح عليها أن تخوض سباقا مع الزمن لإعادة بناء قواتها المسلحة، خصوصا وأنها فى هذه المرة تبدأ من تحت الصفر. وفى ظل تفوق عسكرى اسرائيلى ضاعفت منه نتائج الحرب، بالإضافة إلى انعكاسات صدمة الهزيمة القاسية على الرأى العام المصرى فى الداخل.

وطبقا لمحاضر اجتماعات مجلس الوزراء، فإن عبد الناصر شرح الموقف بقوله: «.. لا يمكن أن أنسى الأيام الأولى التى مرت علىَّ بعد يونيو، كنت أشعر بمرارة كبيرة، مرارة لا يمكن وصفها. فلا شك أن ما حدث في يونيو قد أثر علينا جميعا نفسيا ومعنويا وماديا، لقد كان علىَّ أن أقابل العديد من الرؤساء والزائرين والصحفيين. بل والشامتين أيضا، مرت بنا ظروف صعبة، وواجهنا مؤامرات ضدنا، وكنت مسئولا عن مراجعة كل ما يحدث فى الجبهة الداخلية، وما يتم من اتصالات خارجية، لقد تمنيت فى تلك الأيام لو أننى تنحيت بالفعل عن السلطة وابتعدت عن موقع المسئولية، كان تقديرى دائما أن الأيام التى سنواجهها صعبة فى الداخل والخارج، لأن خصمنا قوى ولديه التنظيمات وجاهز للعمل ضدنا ولديه كل ما يحتاجه من أموال للقضاء علينا، أنا فى يوم ١١ يونيو عندما عدلت عن قرار التنحى كنت فى حالة سيئة جدا إلى درجة أننى أرسلت عائلتى خارج القاهرة، ووضعت مسدسى إلى جانبى لاستخدامه فى أخر لحظة، يومها سألت عن عدد الدبابات المتبقية فى القاهرة، فقالوا لى لم يبق إلا سبع دبابات، وبالرغم من ذلك بدأت مع القيادات العسكرية السير فى الطريق الصعب، طريق إعادة بناء قواتنا المسلحة من جديد، كنت أتحدث مع الفريق فوزى «وزير الحربية» كل ليلة قبل أن أذهب للنوم، ثم أطلبه فى الساعة السادسة صباحا لأراجع معه موقف القوات وموقف القيادات واسم القائد المسئول فى كل موقع، ولو لم ألجأ إلى هذا الأسلوب لكانت الأمور قد فلتت...».

حالة غليان

وعلى مستوى الفرد العادى، فإننا كنا نذهب إلى شاطئ القناة فى تلك الأيام فنجد العلم الاسرائيلى مرفرفا على الضفة الشرقية المقابلة، بينما الجنود الإسرائيليون يستخدمون مكبرات الصوت لكى تصل منها سخريتهم البذيئة إلى الجنود المصريين بجوارنا، وعلى رغم الأوامر

القاطعة لهؤلاء الجنود المصريين إلا أنهم، بأوامر ومن غير أوامر، كانوا يطلقون النار فورا على أى جندى اسرائيلى يحاول الاستحمام فى مياه القناة. أو يرفع العلم الاسرائيلى فوق الساتر الرملى إلى أن اضطر الإسرائيليون فى النهاية إلى أن يلزموا جحورهم يحتمون بها.

وكان العسكريون المصريون فى حالة من الغليان، ليس فقط لأن العدو أمام أعينهم يتبجح بطلب الاستسلام، ولكن أيضا لأن مشاعر الغضب لدى الرأى العام اتخذت أحيانا مسالك متعرجة لتفريغ مرارتها، فالشعب المصرى لم يتخل أبدا عن روحه الساخرة حتى فى اللحظات حالكة السواد، وبدأت تتولد وتنتشر نكات تسخر من الأداء العسكرى فى حرب يونيو، ومن العسكريين الذين حملهم الشعب مسئولية الهزيمة المروعة، إلى درجة أن الضابط أو الجندى الذى كان يعود من الجبهة فى إجازة قصيرة، كان يسمع بعض تلك النكات من زوجته أو شقيقه: واضطر جمال عبد الناصر فى خطاب علنى إلى أن يناشد أفراد الشعب الكف عن السخرية من العسكريين لأنهم هم أنفسهم الذين يرتبط بهم الأمل فى تحرير الأرض المحتلة، ولكن تلك النكات الساخرة القاسية لم يقدر لها أن تتوقف أبدا إلا مع بروز أداء عسكرى جديد بدأ الشعب المصرى يلمسه فعليا من خلال الوقائع المحددة.

مواجهة جوية

ففى أول يوليو ١٩٦٧ حاولت القوات الإسرائيلية برا وجوا الاستيلاء على «رأس العش» وهى الجزء الوحيد الباقى من ارض سيناء تحت السيطرة المصرية ويقع جنوب مدينة بور فؤاد. ولم يكن فى هذا الموقع سوى وحدات صغيرة من القوات الفدائية الخاصة «الصاعقة» والمشاة وبعض قطع المدفعية المضادة للطائرات جئ بها على وجه السرعة عند وقف إطلاق النار قبل ٢١ يوما. وعلى رغم تكرار الهجوم الاسرائيلى ثلاث مرات على تلك النقطة المصرية الصغيرة فى الضفة الشرقية للقناة إلا إنه فشل فشلا ذريعا. ودمر له ثلاث دبابات وقتل بعض أفراده.

بعدها بأسبوعين. وبينما طائرات الاستطلاع الإسرائيلية فى مهمتها اليومية لاستكشاف التحصينات المصرية الجديدة غرب القناة. فوجئ الطيران الاسرائيلى فى ١٤ يوليو بعشر طائرات مصرية من طراز «ميج ١٧» تتصدى له فجأة. بينما تحلق عشر طائرات مصرية أخرى استعدادا للانضمام إلى المعركة. وانسحبت الطائرات الإسرائيلية بعد إصابة إحداها. وفى اليوم التالى تكررت نفس المواجهة فوق نفس المنطقة من قناة السويس. وتكررت نفس

النتيجة، فيما أصبح أول مواجهة جوية محددة بين مصر وإسـرائيل تقع بعد ٢٥ يوما من وقف إطلاق النار، وكانت الدلالة الفورية لتلك المعارك المحددة والمبكرة هى التعبير أساسا عن إصرار القوات المسلحة المصرية، وهى ما تزال فى بداية مرحلة إعادة البناء، على رفض الأمر الواقع وعدم قبول النتائج العسكرية لحرب يونيو.

قرار سياسى بتدمير المدمرة «ايلات»

وفى ٢١ أكتوبر وقع اشتباك آخر أكثر عمقا فى مغزاه وأبعد تأثيرا، ففى ذلك اليوم اقتربت المدمرة الإسرائيلية «ايلات»- فيما أصبح روتينها المعتاد- من المياه الإقليمية المصرية شمال بور سعيد، كمظهر متكرر من الغطرسة الإسرائيلية الجديدة التى توضح للمصريين عجزهم أمام الأمر الواقع الجديد بعد حرب يونيو.

وكان لابد من دراسة مسبقة للفعل ورد الفعل، فضرب «ايلات» سيصيب إسرائيل بخسارة عسكرية ضخمة، فضلا عن الخسائر البشرية المتوقعة فى طاقم المدمرة، والاحتمال الأقرب لرد الفعل الاسرائيلى هو ضرب معامل تكرير البترول المصرى فى السويس بالمدفعية طويلة المدى من سيناء، دون الحاجة إلى استخدام الطيران، وأصبح هذا «قرارا سياسيا لابد من عرضه على الرئيس عبد الناصر، وتم العرض، ووافق الرئيس مع تعديل واحد هو الاكتفاء بضرب المدمرة دون التعرض» بعد ذلك «لأى وحدة من وحدات الإنقاذ. كما أنذرت وزارة الداخلية لتعزيز وحدات المطافئ بمنطقة السويس، وكانت مكونة من وحدات مطافئ وزارة الداخلية ووحدات مطافئ القوات المسلحة. بوحدات تتحرك من القاهرة خلال الليل. إذ كان التوقع أن يكون رد الفعل فى اليوم التالى».

وهكذا قام اثنان من زوارق الصواريخ المصرية بإغراق المدمرة «ايلات» بصاروخين من طراز «كومر» فيما اعتبر من وقتها انقلابا فى تاريخ الحرب البحرية.

لقد غرقت المدمرة «ايلات» على الفور- وهى أكبر قطع الأسطول البحرى الاسرائيلى- ومعها مائتان وخمسون من أفراد طاقمها.

عملية فدائية غير معلنة

وكما توقعت القيادة المصرية مسبقا. جاء الانتقام الاسرائيلى فى اليوم التالى بقصف مستودعات الوقود ومعامل تكرير البترول فى مدينة السويس جنوبا كهدف اقتصادى ثمين

فى متناول المدفعية الإسـرائيلية من سيناء، بعد أن أصبحت القيادة الإسرائيلية بحالة من الهستيريا جعلتها توجه انتقامها إلى أهداف مدنية.

وعلى المسـتوى العسـكرى بدأت مصر «فى نفس اليوم التفكير فى ضربة مضادة، كانت الرؤوس الساخنة تبغى الانتقام، وكان القرار هو ضرورة إشعال النار فى ميناء ايلات وذلك بضربها بالطائرات، وايلات بها فناطيس البترول وبها السفن، وهى غرض ثمين ذو أهمية إستراتيجية كبرى للعدو، فالضربة سوف تكون موجعة.

ولكـن الطـيران المصرى لم يكن قد اسـتعاد قوته الكاملة بعد، لذلك اسـتقر الرأى على التخطيط لضرب ايلات بواسـطة عملية سـرية وفدائية تقوم بهـا القوات الخاصة المصرية دون إعلان، وخلال أسـابيع قليلة نزل رجال الضفادع البشـرية «إلى مكان ما بالقرب من ميناء العقبة الاردنى.. ونزلوا إلى الماء يسـبحون إلى الغرض، وبعد ساعات ارتفعت أصوات المتفجرات فى الميناء واشتعلت النيران عالية فى السماء واحترقت خزانات البترول» وغرق عدد من السفن دون أن تعلن مصر مسئوليتها عن هذا الحادث.

أما على المستوى السياسى، فقد كان رد الفعل المصرى هو عملية كبرى لإخلاء مدن القناة كلها- بورسعيد والإسماعيلية والسويس- من السكان المدنيين. وتجاوبت أربعمائة ألف من السـكان على الفور بالانتقال إلى أماكن إيواء عاجلة تم إعدادها بسـرعة داخل المحافظات الأكثـر بعدا من جبهة قناة السـويس. وقد تحمل هؤلاء المهجرون من حياتهم الشـخصية الكثير لأنهم فهموا على الفور مغزى التهجير الشامل هذا. وهو ألا يصبحوا رهينة لقذائف المدفعية الإسرائيلية من سيناء طوال قيام الجيش المصرى بعملية إعادة البناء العسكرى.

وأصبحت تلك قرينة أخرى على أن المصريين لن يستسلموا أبدا للأمر الواقع الذى خلقته حرب يونيو، وأنهم مستعدون لتحمل التضحيات فى سبيل ذلك.

وبعد إغراق ايلات بأربعة أيام فقط أعلنت الولايات المتحدة عزمها على تسليم ٤٨ طائرة جديدة من طراز سـكاى هوك A4 بحجة أنها ضمن صفقة سـبق الاتفاق عليها منذ فبراير ١٩٦٦، (وبالتدريج سيزيد عدد تلك الطائرات إلى مائة).

صراع الإرادات

كان الصـراع إذن هو بالدرجـة الأولى صراع إرادات. فهنـاك إرادة أمريكية يعبر عنها ليندون جونسـون لإرغام مصر على قبول الأمر الواقع الجديـد بعد الحرب. وهناك إرادة

مصرية يعبر عنها جمال عبد الناصر برفض هذا الأمر الواقع من أساسـه والتعبير عمليا عن تجاوب الشعب مع أى تضحيات إلى أن تستكمل القوات المسلحة المصرية إعادة بنائها.

ولقد جاء إغراق مصر للمدمرة الإسـرائيلية إشارة عملية مبكرة سرعان ما فهم الأمريكيون مغزاهـا علـى الفور، ففى نيويورك حيـث مقر الأمم المتحدة، وحيـث كان يدور الجانب الدبلوماسى من الصراع منذ قرار وقف إطلاق النار غير المشروط. قام آرثر جولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة بدعوة كوزنتشـوف نائب وزير الخارجية السوفياتى إلى العشـاء، لقد أبقت دول عديدة على وزراء خارجيتها أو نوابهم فى نيويورك للمشـاركة فى المفاوضات الجارية، إلى جانب الممثلين الدائمين لها فى الأمم المتحدة، وكان كوزنتشـوف من هؤلاء الباقين، حيث أصبح على اتصال مستمر يوميا مع وزير خارجيته فى موسكو.

ذهب كوزنتسوف إذن إلى مائدة العشاء التى أعدها جولد بيرغ، حيث وجد فى صحبته والف بانش مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة، وبعض أعضاء الوفد الأمريكى، وكما هى العادة فإن الدبلوماسيين فى الأمم المتحدة يمارسون ثلاثة أرباع عملهم الحقيقى- من تبادل للأفكار والمعلومات واستكشـاف للنوايا وتدبـير الحيل وبلورة المواقف- على موائد غداء أو عشاء مثل هذا، ولم يكن كوزنتسوف ليتوقع غير ذلك فى هذه المرة.

حوار على العشاء

لكن الذى حدث لم يتوقعه المسئول السوفياتى هو أن يبدأ جولد بيرغ «حوار العشاء» هذا بحديث غاضب عن إغراق مصر للمدمرة ايلات (الذى كان قد وقع قبلها بأربعة أيام).

قـال جولد بيرغ: العرب يملأون العالم صراخا بأن إسـرائيل هى السـبب فيما يجرى فى الشـرق الأوسـط.. وها هو ذا مستر ناصر الذى يفعلها فى هذه المرة! هل توافقون على مبادرته بإغراق المدمرة ايلات؟

ورد كوزنتسوف متسائلا بدوره: وما الذى جعلها تخترق المياه الإقليمية المصرية؟

أخـرج جولد بـيرغ من جيبه ورقة أمريكية رسمية عليها «سـرى جـدا» وطرحها أمام كوزنتسـوف على مائدة العشـاء قائلا: دعنى أطلعك على وثيقة سـرية لم يطلع عليها فى الإدارة «الأمريكية» سوى الرئيس جونسون وروبرت ماكنمار «وزير الدفاع».. هذه برقية من الملحق العسـكرى الأمريكى فى تل أبيب. يسـجل فيها أن المدمرة الإسرائيلية كانت على مسافة تتراوح من ١٢ و١٥ ميلا من الساحل المصرى..

قال كوزنتســوف: أنت تطلعنى على ورقة من ملحق أمريكى إلى مســئول أمريكى، لكن دعنى أذكرك أن ما هو مســجل فى وثائق الأمم المتحدة رسميا هو أن المدمرة الإســرائيلية كانت على مسافة ١١ ميلا فقط من الساحل المصرى.. أليس كذلك يا مستر باتش؟!

ولكن يبدو أن مستر رالف باتش لم يشأ أن يكذب آرثر جولد بيرغ وهو جالس ضيفا على مائدة عشــائه. لذلك اســتأنف كوزنتسوف حديثة متسائلا: إن المدمرة ايلات هى على أى حال قطعة حربية إســرائيلية.. فهل أنت توافق على أن يكون الرد الاســرائيلى هو قصف السكان المدنيين فى السويس؟ ولم يحر جولد بيرغ جوابا فقد أصبحت شهرته فى مقر الأمم المتحدة هى أنه يعمل محاميا باســم إســرائيل ســتة أيام فى الأسبوع. ثم يتذكر أنه يحمل الجنســية الأمريكية فى اليوم الســابع، والقضية بالنســبة له هى أن إسرائيل موجودة فى سيناء وعلى شاطئ قناة السويس كإجراء دفاعى يتم «بحكم الطبيعة». فإذا عبرت مصر عن رفضها وتصرفت على أنه احتلال اسرائيلى.. فإن هذا يصبح «مبادرة مصرية بالعدوان».

الحد من التسلح

لقد تحول الحديث بعد ذلك على مائدة العشــاء إلى المشــاورات الجارية فى كواليس مجلس الأمن. لكن الســؤال الطبيعى هنا هو: لماذا يثــير جولد بيرغ موضوع إغراق المدمرة ايلات مع المســئول الســوفيتى.. بدل أن يثيره مثلا مع محمود رياض وزير خارجية مصر الموجــد حينئــذ فى نيويورك منــذ أربعين يوما. والذى قابله جولد بــيرغ أكثر من مرة فى الجناح «٢٢- أف» بفندق الوالدورف استوريا فى نيويورك!

كان التفســير بسيطا وعمليا، فمنذ حرب يونيو قبل خمسة شهور. وفى كل مرة اجتمع فيها مســئول سوفيتى مع آخر أميركى. ابتداء من كوسيجين مع جونسون. وغروميكو مع دين راسيك وجولد بيرغ. ودوبرينين فى واشنطن مع والت روستو. أو الآن جولد بيرغ مع كوزنتســوف. كان الأمريكيون يكررون فى كل مرة طلبــا ملحقا يعطونه الأهمية القصوى. وهو: ضرورة الاتفاق على الحد من التسلح فى الشرق الأوسط. وتلك الكلمات ظاهرة البراءة سرعان ما كانت تتحول فى كل مناقشة إلى طلب أميركى محدد بأن يتوقف السوفيات عن تسليح مصر. أو بالدقة: إعادة تسليح مصر.

وقد جعل الرئيس جونســون «الحد من التســلح» واحدا من مبادئه الخمســة للتســوية فى الشــرق الأوســط. ولكن وقف تســليح مصر. أو الحد منه. بينما إسرائيل تحتل سيناء

والجولان والضفة الغربية يعنى فى الواقع تجريد مصر مسبقا من أى خيار عسكرى لتحرير الأرض.. وهذا يعنى بدوره ألا يبقى أمام مصر من سبيل لتحرير أرضها سوى التسكع فى دهاليز وزارة الخارجية الأمريكية.. لعل أحدا يقدم إليها فاتورة طلبات معقولة توقع عليها حتى تخرج إسرائيل متطوعة ومختارة من سيناء، وسيناء فقط.

فى نفس الوقت لم يكن أى مسئول أمريكى يثير هذه القضية مع مسئول مصرى.. إنهم يفعلون ذلك فقط مع السوفييت، لأنهم يريدون استكمال ضرب الجيش المصرى من «المنبع» بعد أن ضربته إسرائيل من قبل فى «المصب».

❑❑❑

الفصل السادس

وثائق المفاوضات غير المعلنة بين مصر وأمريكا

- أى قـرار يُقـرأ بطريقتـين، مـرة من موقـع الضعفاء فيصبح تنفيذه على حسـابنا، ومرة من موقع الأقوياء فيصبح لصالحنا
- جولد بيرغ لمحمود رياض:
  ٤٠ قـرارا مـن الأمم المتحدة لـن تكفل للعرب انسـحاب إسرائيل.
- واشنطن: لا مشكلة فى الانسحاب من سيناء
- القاهـرة ترفض الاحتـكار الامريكى للحل وواشـنطن تضغط وتلجأ للمساومات السياسية.

في صباح يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٦٧- كان جوزيف سيسكو، وهو الرجل الثاني في الوفد الأمريكي بعد جولد بيرغ، قد اتصل تليفونيا بمحمد رياض- مدير مكتب محمود رياض المصاحب له- في فندقه.

وفي المكالمة قال سيسكو: لقد سمعنا من السفير الهندي «في الأمم المتحدة» بأن الوزير رياض لم يعد متحمسا للمشاورات الجارية «بشأن استصدار قرار من الأمم المتحدة».. ولكنني أرجوك.. قل للوزير أن يتريث بعض الوقت قبل العودة إلى القاهرة. إن الأحداث الأخيرة «يقصد قيام مصر بإغراق المدمرة إيلات ورد إسرائيل بقصف المدنيين في السويس» هي شيء مؤسف، لكنها ربما تدفع المشاورات «الجارية» إلى التحرك.

وبعد أن أوحى سيسكو لمحمد رياض بأن الولايات على وشك أن تبلور موقفا إيجابيا في هذه المشاورات الجارية لاستصدار قرار من مجلس الأمن لحل المشكلة سياسيا، أضاف جملة موحية بقوله: «إننا نفعل هذا من أجل مصر والأردن فقط» «يقصد استبعاد سوريا».. ونحن سنعمل. وسيكون نفوذنا في تنفيذ القرار «حينما يتم الاتفاق عليه» ضخما.

إن اجتماع جولد بيرغ مع الوزير «محمود رياض» كان مثمرا.. وآراء الوزير كانت قيمة وهي محل دراسة.. لذلك نستحثه على عدم العودة إلى القاهرة الآن.

إن نص الحوار منقول من الأوراق الخاصة لمحمد رياض. والتي تنشر هنا بعض محتوياتها لأول مرة، وبطبيعة الحال فإنه كان يستعين بتلك الأوراق وهو ينقل ما يجري لمحمود رياض. وكان جولد بيرغ قد اجتمع مع محمود رياض يوم السبت ٢١ أكتوبر- نفس اليوم الذي أغرقت مصر فيه المدمرة الإسرائيلية إيلات. ويومها ركز جولد بيرغ فقط على ضرورة استبعاد أي كلمات وصفية من أي صياغة لمشروع قرار يقدم إلى مجلس الأمن. بكلمات مثل «العدوان الإسرائيلي» أو «الاحتلال الإسرائيلي» أو ما شابه ذلك.

راسك والرفاعي

وفي اجتماع عقده عبد المنعم الرفاعي وزير خارجية الأردن مع دين راسك وزير الخارجية الأمريكي. سأله الرفاعي عمّا إذا كانت الولايات المتحدة ستقف في مجلس الأمن مؤيدة

للشرعية الدولية، وبالتالى تؤيد الانسحاب الإسرائيلى الكامل من الاراضى العربية؟. ويومها رد عليه دين راسك بقوله: إننى لست متشائما.!.

وحينما حاول الرفاعى أن يخرج من الوزير الأمريكى بإجابة محددة، كان كل ما قاله. إن الموضوع من اختصاص آرثر جولد بيرغ.. وعلى الأردنيين الاتصال به ليعرفوا بالضبط الموقف الأردنى المحدد!

ولم يكن دين راسك يومها يقصد من كلماته تلك أى معنى سئ بالنسبة للأردن، فالواقع أن الأردن كانت تعول على نفوذ بريطانيا لدى الولايات المتحدة بقدر ما تعول على علاقاتها الطيبة مع الولايات المتحدة ذاتها. لكن القضية هى إنه إلى جانب الرئيس الأمريكى ليندون جونسون نفسه. كانت السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط يتولاها فى تلك المرحلة ثلاثة على وجه الخصوص، إنهم أولا الإخوان روستو- والت روستو مستشار جونسون للأمن القومى ومنسق تقارير أجهزة المخابرات.. ويوجين روستو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الذى يقوم بدور «المصفاة» لتقارير الدبلوماسيين فى الأمم المتحدة. ثم ممثل أمريكا فى الأمم المتحدة جولد بيرغ وهو فى النظام الأمريكى بدرجة وزير فى الحكومة ويتعامل مباشرة مع الرئيس الأمريكى إلى جانب تعامله مع وزير الخارجية.

وهؤلاء يجمع بينهم- فوق كونهم يهودا- أنهم صهيونيون من قمة رأسهم إلى أخمص أقدامهم. وطبقا لشهادة صحفى بريطانى فى كتاب شهير له فإنه: «لم يكن من الغريب أو غير المعتاد أن يقوم الأخوان روستو، وآرثر جولد بيرغ، بجمع التبرعات لصالح إسرائيل باعتبارهم من الشخصيات البارزة فى الطائفة اليهودية الأمريكية».

أما الدبلوماسيون المحترفون من طراز جوزيف سيسكو، فهم يتلمسون اتجاه الريح دائما. فسيسكو من طاقم وزارة الخارجية ولكنه سيغير ولاءه بين يوم وآخر.. متأرجحا بين رئيسه المباشر جولد بيرغ.. أو رئيسه الدائم دين راسك.. وحسب موقع كل منهما من الدائرة المقربة إلى الرئيس الأمريكى جونسون.

وكان جونسون يتابع بنفسه. ومن بيته الأبيض فى واشنطن. مجريات الأمور فى الشرق الأوسط لأنه كان محركا رئيسيا لها من البداية. بحيث إن أبا ايبان كان يتصرف من الأصل على أساس أن كل ما يتعلق بمدى وحدود وتوقيت وطبيعة الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى العربية المحتلة «يكمن بين يدى الرئيس جونسون» على الرغم من أن إسرائيل تتظاهر علنا بأن الأمر فى يدها هى.

محمود رياض

وكان أكثر من يعرف هذه الحقيقة ويتعامل على أساسها- بعد أن بدأت لعبة المساومات السياسية- هو محمود رياض وزير الخارجية المصرى الموجود وقتها فى نيويورك منذ منتصف سبتمبر.

كان محمود رياض على المستوى الموضوعى يكاد يحفظ عن ظهر قلب كل ورقة فى ملف الصراع العربى الإسرائيلى، لقد بدأ حياته ضابطا بالجيش المصرى، وحضر مباحثات رودس التى أدارتها الأمم المتحدة بين العرب وإسرائيل فى سنة ١٩٤٩، وتولى مسئولية المخابرات الحربية المصرية فى قطاع غزة، وبعد الثورة فى ١٩٥٢ تولى محمود رياض إدارة فلسطين بوزارة الخارجية، وطوال عمله بعد ذلك فى المجالين الدبلوماسى والسياسى، فإن قضية الأمن العربى كانت شاغله الدائم، وفى قلبها القضية الفلسطينية كعنصر محورى، وبهذا الشكل أصبحت خبرات محمود رياض متراكمة ومتصلة دائما، وهو شىء نادر الحدوث فى السياسة العربية حينئذ، مع إنه الطابع المميز للسياسة الإسرائيلية وأحد عناصر قوتها.

أما على المستوى الشخصى فإن محمود رياض دمث الخلق، ولا يتحدث إلا بعد أن يستوعب وجهة نظر الطرف الآخر تماما، وفى البداية لا يتدخل إلا بتساؤلات تركز على جوهر الموضوع، ولا يرتاح كثيرا فى الصياغات العامة أو المراوغة. ويفضل دائما قياسها فى انعكاساتها الواقعية.

وبرغم أن وزير الخارجية فى كل نظام سياسى هو المستشار الأول لرئيس الدولة فى السياسة الخارجية وليس مبتكرها أو صانعها، إلا أن نقطة اللقاء الدائمة بين أفكار جمال عبد الناصر كزعيم ومحمود رياض كوزير للخارجية كانت هى الإيمان المشترك الصلب بإمكانيات مصر المنظورة وغير المنظورة، خصوصا كمحور لقوة العالم العربى أو ضعفه، ثم نظرتهما إلى الصراع العربى الإسرائيلى فى إطار مستقبلى يتجاوز التقوقع داخل إطار الواقع الراهن وقيوده.

مباراة شطرنج

من هنا فإن مباحثات محمود رياض فى نيويورك مع آرثر جولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة فى الأمم المتحدة، لم تكن مجرد جانب من الصراع الدبلوماسى الراهن. إن كلا

منهمـا كان يمثل سياسـة تناقض تماما السياسـة التى يمثلها الآخـر، ولذلك فإن جوهر المسـاومة السياسية الكبرى من بدايتها أصبح يجرى هنا- فى هذه اللقاءات المتباعدة ولكن الحاسمـة والمليئة بالتربـص المتبادل، وعلى الرغم من أن اللعبة الدبلوماسـية لها قواعدها وأصولهـا، إلا أنـه فيما وراء الكلمات فإن كلا من محمـود رياض وآرثر جولد بيرغ يعرف فـى داخله تماما ما يريده من الآخـر، ويعرف أيضا نقاط قوته وضعفه. ويعرف أخيرا أنه حتـى ولـو تصور العالم كله أن ما يجرى فى حرب يونيو ١٩٦٧ هو حرب إقليمية كبرى، فإن الحقيقة المجردة هى أنه مجرد جولة واحدة سـبقتها جولات، وسـتتبعها جولات. وإذا كانت الأردن قد أصبحت بعد حرب يونيو ١٩٦٧ لا تملك سوى الطريق الدبلوماسى. ومـن ثـم فهى فى حاجة إلى قرار من الأمم المتحدة يدعم جهودها، إلا أن مصر تعترف من البداية أن القوة فى هذه «الغابة الدولية» هى التى تحمى الحق وتسترده، ومن ثم فإن مصر الآن تحتاج إلى وقت كاف تسـترد فيه قوتها، والى أن يتم ذلك فلا بأس من إعطاء الفرصة الدبلوماسية.

هكذا اتسمت لقاءات محمود رياض وجولد بيرغ فى شهرى أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٧ بطابع لاعبى الشطرنج. يريد كل منهما قياس تفكير الآخر قبل أى خطوة، وحساب انعكاس كل تحرك على التحركات التالية.

وكان محمـد رياض هو الذى يقوم بتسـجيل محاضر تلك اللقـاءات، مهما كانت تتخذ طابعا شخصيا. وقد ظل محمود رياض يعتبر محمد رياض من أخلص المواهب التى صنعتها الدبلوماسية المصرية، ولذلك كان شيئا طبيعيا أن يصبح محمد رياض وزيرا للدولة، إلى أن استقال فورا احتجاجا على زيارة السادات للقدس فى ١٩٧٧.

وكلمـا كنت أذهب إلى الأمم المتحـدة لتغطية دورتها السـنوية، وقضيتنا المتكررة فى مجلـس الأمن خلال تلك الفـترة، كانت لقاءاتى مع محمود رياض ومحمد رياض شـبه يوميـة، لكننـا لم نكن نتحدث فى التطـورات الجارية بجدية إلا فـى الطرقات أو فى الهواء الطلق، فكما يعرف كل دبلوماسى مخضرم بالأمم المتحدة، كان محمد رياض على وجه الخصوص ينبهنى إلى افتراض وجود تصنت مسـتمر بالنسـبة لبعض الوفود. وفى المقـر الامريكى والمقر السـوفياتى على وجه الخصوص توجـد فرقة مجهزة ضد التصنت الاليكترونى الذى تريد به كل واحدة من القوتين العظميين معرفة الأفكار الداخلية لممثلى القوى الأخرى.

سر اللقاءات

وفيما سيرد هنا من اقتباسات لمشاورات وحوارات في نيويورك. فإن مصدرى الأساسى هو الأوراق الخاصة لمحمد رياض، والتى تنشر هنا لأول مرة.

إن آرثر جولد بيرغ المندوب الأمريكى ظل يناور طوال أسابيع لإخفاء المطالب الأمريكية الإسرائيلية الحقيقية وراء صياغات دبلوماسية تبدو بريئة لأول وهلة. وأصبحت مهمة محمود رياض هى إخراجه من هدفه هذا ولذلك ففى لقاء بينهما يوم الأربعاء أول نوفمبر «١٩٦٧» طرح محمود رياض أسئلة محددة يريد أن يعرف الإجابات الأمريكية عنها. ولا يهم أن تكون جيدة أو سيئة- هكذا قال محمود رياض- ولكن المهم أن تكون الإجابات صحيحة ودقيقة، والأسئلة تتعلق بالتصور الأمريكى للعلاقات الثنائية مع مصر.. والموقف الامريكى من الاحتلال الإسرائيلى.. ثم الموقف الأمريكى من القضية الفلسطينية.

وبالنسبة للسؤال الأول كان رد جولد بيرغ هو توجيه دعوة مفتوحة لمحمود رياض للذهاب إلى واشنطن- بما يعنى أن هذا من اختصاص وزير الخارجية دين راسك، وبالطبع لم يذهب محمود رياض.

أما بالنسبة للسؤال الثالث فإن بلورة موقف امريكى من قضية اللاجئين «كما سمعها» سوف يستغرق وقتا.. ولذلك فإن الولايات المتحدة تريد الآن تركيز الجهود فى التوصل إلى صيغة لحل «النزاع» المترتب على حرب يونيو.

وهنا فقط بدأ جولد بيرغ يكشف عن بعض أوراقه. إن الرئيس جونسون يشعر أولا بخيبة أمل طالما لم يقم الرئيس جمال عبد الناصر علنا بنفى أى اشتراك للولايات المتحدة فى الحرب إلى جانب إسرائيل، ثم إن العلاقات الدبلوماسية يجب أن تعود بين مصر والولايات المتحدة لان «دونالد» بيرجس- رئيس قسم رعاية المصالح الامريكى بالقاهرة بعد قطع العلاقات- ليس على المستوى العالى الذى يسمح بعمل شىء فى هذا الموضوع.

ثم قال جولد بيرغ: نحن لا نعتقد بأن القوات الإسرائيلية يجب أن تستمر على أراضيكم، ولكن المفتاح هنا هو أن تعترف مصر بإسرائيل. ولا أعنى هنا الاعتراف السياسى بالمرة، أعنى فقط احترام سيادة إسرائيل والإقرار لها بالملاحة فى قناة السويس ومضيق ثيران. أما بالنسبة لقطاع غزة فنحن لا نقر بقاء إسرائيل فيه. لكننا لا نقر عودة مصر إليه أيضا. ولا إعطاءه للفلسطينيين كذلك، ثم إن السوفيات رفضوا أن يذكروا لنا أى شىء عن مدى وحدود تسليحهم لكم.. ونريد أن نتكلم معكم فى هذا. لماذا التسلح؟ ولماذا جيش مصرى كبير.

وأضـاف جولـد بـيرغ مؤكدا: إن ما أذكره هنـا ليس رأى جولد بـيرغ، وإنما هو رأى جونســون، وأنا لا أذكر شـيئا مختلفا عن تعليماتى من الرئيس جونســون، وكل ما أقوله يجب أن يوضع داخل إعلانه فى ١٩ يونيو «عن المبادئ الخمسة».

الاجتماع التالى

وجـاء الاجتمـاع التالى لجولد بيرغ مع محمـود رياض بعدها بيومـين. لقد تم فى يوم الجمعة ٢ نوفمبر ١٩٦٧ وقد بدأه جولد بيرغ بإبراز برقية محولة إليه من وزارة الخارجية الأمريكية تلخيصا لمقال نشرته «الأهرام» بالقاهرة فى نفس اليوم، وفى المقال سربت القاهرة ضمنا بعض طلبات الرئيس جونسون من مصر. إنها بالفعل تلك الطلبات التى ذكرها جولد بيرغ لمحمود رياض قبل يومين، ولكن نشـرها فى العـالم العربى يلحق المزيد من الإضرار بالمصالح الأمريكية ويزيد الصورة الأمريكية سـوءا على سـوء، إن الرئيس الأمريكى ليندون جونسـون يحـب دائما الضرب تحت الحـزام، ولكنه يحب أكثـر أن يتلقى الخصم تلك الضربات فى صمت وخشوع.

وبهدوء شديد قال محمود رياض لجولد بيرغ: إننا هنا نقرأ الكثير فى الصحف الأمريكية ضد مصر وضد الرئيس جمال عبد الناصر، على الأقل ما ينشر فى القاهرة صحيح.

ثم عاد جولد بيرغ يتستر وراء المبادئ الخمسة التى كان الرئيس جونسون قد أعلنها فى ١٩ يونيو، وهنا قال محمود رياض: إننى لاحظت فى المرة الماضية أن حديثك كله كان يدور عن عودة سـيناء إلى مصر، وأخشـى أن يكون هذا هو ما تفهمه من حديثى عن الانسحاب الإسـرائيلى. أريد أن أكون واضحا معك ولا أغشـك. حينما أتحدث عن الانسحاب فنحن نتحدث عن الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى العربية كلها. هذا موقف مصر.

قال جولد بيرغ: لكن غزة على الأقل تظل مشكلة مستقلة. غزة لابد من حسمها.

رد محمود رياض: بالنسبة لنا محسومة.

لا مشكلة فى الانسحاب من سيناء

قال جولد بيرغ: أقصد أنها مشكلة تحتاج إلى حل.

رد محمود رياض: بالنسـبة لنا.. محلولة.. غزة تعود إلى ما كانت عليه أولا. تعود إلى مصر.

قال جولد بيرغ: على أية حال فإننى أكرر لك.. ليست لدينا أى مشكلة تتعلق بالحدود المصرية مع إســرائيل، سيناء مصرية وتعود لمصر، لكن فى جوانب أخرى من المشكلة لابد من حدود متفق عليها.

قال محمود رياض: هذا يعنى إعطاء إسرائيل مكاسب إقليمية، نحن لن نقبل بهذا، مفهومنا للنقاط الخمس «التى أعلنها جونسون» هو أنه يجب انسحاب إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو.

رد جولد بيرغ: النقاط الخمس لم تشر إلى أى تاريخ، وأفضل عدم ذكر التاريخ.

فــى اليــوم التالى اجتمع جولد بيرغ مع محمود رياض مرة أخرى، فى هذه المرة هو يعبر عن قضية لأن ممثلى الدول غير الدائمة فى مجلس الأمن يعدون مشــروعا ويتشــاورون مع الجميع فيه، ما عدا الوفد الامريكى، كيف يحدث هذا؟ وأضاف جولد بيرغ: هذه ليست مسئوليتكم، إنها دول أخذت على عاتقها أن تضع شيئا، وتشاورت فيه معكم، وبعضها لم يتشاور مع الروس، ولكنهم لم يستشيروا الولايات المتحدة، يجب عليهم أن يعرفوا آراءنا، أنهم أيضا لم يتصلوا بإسرائيل وهذا شىء سيئ، يجب أن يتصلوا بالكل..

وأضاف جولد بيرغ: لكنى تكلمت مع ســفير الهند «حيث الهند إحدى الدول العشــر غير دائمة العضوية فى مجلس الأمن وقتها «وتكلمنا عن الأسلوب، واحتججنا رسميا، النتيجة أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تقبل هذه الورقة لأنها ســلكت هذا الأســلوب، إنها دولة يجب أن نحترم آراءها ولا نقبل عدم التشاور معها.. إننا حتى لم نحصل عليها رسميا.. والهنود حتى لم يعطونــى تأكيدا بوجود تلك الورقة.. مجلس الأمن لا يمكن أن يعمل بهذه الطريقة.. ونحن لا يمكننا عمل شىء دون أن يتم التشاور معنا أولا.. مقدموا القرار ليست لديهم أية مسؤوليات مثل التى علينا.. وكذلك ليس لديهم أى نفوذ «على إســرائيل» مثل الذى لدينا، هذا أســلوب غير محتمل.. أقول لك هذا بكل صراحة وأمانة، فهذه مناورة من الآخرين «يقصد الســوفيات» لا يمكن أن نوافق على هذا، ولا على هذا الأسلوب.. أن تتم مواجهتنا بشىء من هذا..

أنا حانق

ثم قال جولد بيرغ: كلمة أخيرة.. هذه مناورات.. مناورات سياســية، هذا لا يؤدى إلى ســلام، لم يؤدّ إلى الانســحاب، لا يؤدى هذا إلى أى شىء، يمكن إقرار ٤٠ قرارا ولكن لن يؤدى هذا إلى أى شــىء.. لقد قلت لكم إنه يجب التركيز على حل سياســى، حل سلمى. وكما قلت أنت لى «من قبل» إنك تعبت.. فأنا كذلك تعبت..

ومـرة أخـرى، وبهدوء محمـود رياض المعتـاد، رد بقوله: أنا راغب وانظـر دائما إلى الحقائق.. سواء كانت سيئة أم جيدة.. وأنت تتكلم بغضب.

قاطعه جولد بيرغ معترضا: لا.. أنا حانق.

قـال محمود رياض: إن لـدى بعض التجربة فى مجلس الأمـن. لقد مثلت دولتى فى المجلس، ورأست المجلس.. المشاورات أمرها معروف تماما.. ليس لدى شىء رسمى، كل منا أعلمه أن الدول غير الدائمة تعمـل.. وكان هذا بناء على موافقتكم. أما عن الاتصالات فهذه ليسـت مسـئوليتى.. كان من الممكن أن تعرفوا ما يدور من رئيس المجلس.. تسـأله بنفسك.. نحن نسأل الجميع واحدا واحدا ونأخذ منهم المعلومات. المهم أن نسأل الجميع. إذا كان موقفكـم أن وفدكـم ينتظر المعلومات فهذا أمر آخـر.. إننى لم أحضر هنا من أجل المناورات، إذا سـاعدتمونا كان بها، وإلا سنسـتمر فى سبيل السلام.. ثم، إذا حضرت لى فمن البداية وأردت أن تتكلم عن ورقة معينة كنا قد انتهينا من مدة طويلة..

قـال جولـد بيرغ: أنت هنـا منذ ٤٥ يوما. أما أنا فمنذ الخامـس من يونيو هنا من أجل السلام.. أنت غير مسئول، ونحن لم نولد أمس، لقد خرج المشروع بعد مشاورات بين الهند والروس والعرب.. أنتم تشاورتم فى هذا كله مع الروس، وليس معنا.. رد محمود رياض: هذا غير صحيح.. المشروع الهندى الأصلى يختلف عما يتشاور فيه الدول العشر غير الدائمة.

قـال جولد بيرغ: إننى كنت أعمل من أجـل إعداد ورقة.. ولكن يبدو أنك غير مهتم.. لن ينفع. ولكن على أية حال سنستمر فى عملنا فى كل طريق.

حسابات سياسية

إن نهاية هذا الاجتماع الموحية قد لا تبدو متمشية مع مجراه العاصف، لكن تلك كانت طبيعة لعبة المسـاومة السياسية الكبرى الجارية فى نيويورك فى تلك الفترة لاستصدار قرار مجلس الأمن. جولد بيرغ يتكلم وينفعل ويغضب كممثل لقوة عظمى فى المجتمع الدولى.

لقد كانت الدول العشر غير دائمة العضوية فى مجلس الأمن تتشاور، بتنسيق من الهند- لإعداد مشـروع قرار، وقد اختارت كلها ألا تتشـاور مع الولايات المتحدة. ومع آرثر جولد بيرغ بالذات. لأنهم حفظوا عن ظهر قلب مواقفه المنحازة لإسرائيل طوال الشهور الخمسة الأخيرة، إن كل ممثلى الدول فى الأمم المتحدة أصبحوا يتبادلون السخرية من إصرار جولد بيرغ على إعطاء إسرائيل مكاسب إقليمية من الأراضى العربية، والولايات المتحدة تستطيع

أن تضمن لإسرائيل ذلك هناك فى ميدان القتال. ولكن فى هذه المؤسسة الدولية- هذه الأمم المتحدة- لابد من الالتزام بالشرعية الدولية. هذا حوار الشرعية وليس حوار الدبابات.

وحينما يقول جولد بيرغ: إن أربعين قرارا من مجلس الأمن لن يكفل لمصر والعرب انسحاب إسرائيل من الاراضى المحتلة فإنه مصيب تماما. لكن وزير خارجية مصر لم يأت إلى نيويورك لكى يحقق الانسحاب الإسرائيلى بقصاصة ورق، إن إسرائيل لن تخرج من الأرض المحتلة إلا بمثل ما دخلتها: بالقوة.. والحوار الحقيقى هو ذلك الذى يجرى من أجله بناء جيش جديد فى مصر، وهذا هو الذى يجعل محمود رياض يرد على جولد بيرغ بنفس الوضوح قائلا: «إذا ساعدتمونا كان بها، وإلا سنستمر فى سبيل السلام». جولد بيرغ أيضا يقول: إنه يعمل فى مجلس الأمن منذ الخامس من يونيو من أجل السلام. و«السلام» هنا هو كلمة الشفرة لحقيقة ما يسعى إليه كل طرف. لكن مفهوم السلام المصرى يختلف تماما عن مفهوم السلام الإسرائيلى الذى يتبناه هنا جولد بيرغ منذ الخامس من يونيو. ومن الناحية النظرية فإن جولد بيرغ. كممثل لقوة عظمى، يستطيع أن يجلس فى قاعة مجلس الأمن واضعا ساقا على ساق، ولا يتشاور مع أحد. وخصوصا إذا كان التشاور مع ممثل دولة إقليمية قطعت علاقتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة قبل خمسة أشهر. يستطيع جولد بيرغ أن يهدأ إذن، ولتأت أية دولة تشاء بمشروع القرار الذى تشاء، بل ليكن ممثلو الدول العشر الأخرى الأعضاء فى مجلس الأمن موافقين مقدما. وعند التصويت يستطيع جولد بيرغ أن يرفع يده فى قاعه مجلس الأمن معترضا، فيسقط تلقائيا القرار المطروح بحكم الفيتو.

لكن جولد بيرغ يعرف أيضا أن هذا الفيتو له ثمن. وحتى الآن قطعت سبع دول عربية علاقتها الدبلوماسية مع أمريكا، وحتى الآن لا تعيدها. وحتى الآن تزايد النفوذ السوفياتى فى العالم العربى بدل أن ينكمش، وحتى لم تأت دولة عربية واحدة مهرولة إلى مائدة المفاوضات المباشرة مع إسرائيل كما يريد جولد بيرغ، وحتى الآن أصبحت المصالح الأمريكية فى العالم العربى فى حالة تراجع وانكماش. وكل هذا نتيجة لحسابات جرى وضعها فى التخطيط لحرب يونيو. ولم تنجح منها فقط سوى الجزء العسكرى.

الشكوى

فى نيويورك كنت جالسا فى قاعة مجلس الأمن أتابع المناقشات مبعوثا من جريدتى: أخبار اليوم. فى الأمم المتحدة هناك جمعية عامة هى بمثابة البرلمان حيث لكل دولة-

صغرت أو كبرت- صوت واحد، أما مجلس الأمن فهو بمثابة الحكومة أو السلطة التنفيذية. ومنـذ ١٩٦٧ على وجه الخصوص أصبحت الولايات المتحدة تمنع مجلس الأمن من إصدار أية قرارات لمعاقبة إسرائيل، من خلال استخدام حقها في النقض؛ الفيتو.

في هذه المرة إسـرائيل هي التي كانت تشـكو من القصف المدفعي وغارات التسـلل ضد احتلالها في الضفة الشـرقية لقناة السـويس.. في البداية قامت قـوات الصاعقة المصرية بمعركـة حاسمة في رأس العش، بعدها غارات محـددة ومركزة بالطيران المصري.. بعدها قامت مصر بإغراق المدمرة الإسرائيلية «ايلات». والآن أصبحنا في عام ١٩٦٨.

المجلس يناقش ويسـتمع. إسـرائيل لديها من يحميها بالفيتو في مجلس الأمن ومصر أيضـا.. فـي الواقع إن الأغلبية الطاغية في كل الأمم المتحدة تسـاند مصر لكن الغابة هي الغابة والضعيف لا حقوق له إلى أن يصبح قويا.. ومصر تشق طريقها حثيثا لتسترد قوتها. فـي الجلسـة طلب مندوب دولة بتروليـة عربية الحديث. ووجدت دبلوماسـيا هنديا إلى جواري يبتسم، لم أفهم. قال لي: انتظر قليلا.. ستفهم.

وبـدأ المندوب البترولي العربي يتحدث. جملتين وعشـرة جمل مـع مصر بالكامل وضد إسـرائيل بالكامل ثم اسـتدار إلى المندوب الامريكي في مجلس الأمن وقال له ما خلاصته «والله يا أمريكا عيب عليكم. عيب كبير، عيب تسندوا حتة دولة مفعوصة اسمها إسرائيل وتقفوا ضد دولة هرم زي مصر.. عيب.. لازم تختشوا وتبطلوا دعمكم لليهود وتشخطوا فيهم فينسحبوا.. أنتم دولة كبيرة ومقامها عالٍ كبير وكلمتها مسموعة من القريب والبعيد. دولة تعرف ربنا زينا وأكثر ناس بتصلوا كل يوم أحد في الكنيسة».

ثم اسـتدار الرجل من جديد بكرسيه ليشير بإصبعه نحو المندوب السوفياتي قائلا: «إذا كان الناس الروس دول واقفين مع مصر.. يبقى عيب عليكم يا أمريكا.. بقى الروس دول.. الكفرة الشـيوعيون الملحـدون الداخلون جهنم بإذن الله لأنهم لا يعرفـون ربنا.. يقفوا مع مصر.. وأنتم تقفوا مع إسرائيل؟» الخ.. الخ.

وفي نيويورك كانت وكالات الأنباء ونشـرات الأخبار الرئيسية في التليفزيون، الساعة السادسة والسابعة والخبر الرئيسي يتكرر بتوسع وإسهاب: إسرائيل قامت بغارات ناجحة ضـد العمق المصري نفذتها بقوات خاصة محمولة بطائرات الهليكوبتر. الطائرات تسـللت إلى نجع حمادي في صعيد مصر. الغارة فشـلت في تدمير قناطر النيل لكنها نجحت في إصابة محطة كهرباء نجع حمادي. موشـي ديان وزير الدفاع الإسـرائيلي يصرخ مهددا:

إذا لم توقف مصر حرب الاستنزاف ضدنا فورا فسوف ننقل الحرب إلى كل مرافق مصر ومدنها، لن نسمح لمصر بأن تعيد بناء قواتها المسلحة.

أسبوع آخر فى نيويورك وفى شارع برودواى نزلت من الأتوبيس أتمشى.. كنت قادما من مقر الوفد المصرى لدى الأمم المتحدة حاملا فى يدى مجموعة من الصحف المصرية ترد من القاهرة كل أسبوع، تفرجت على فاترينات المحلات واحدة بعد الأخرى بحثا عن راديو صغير ورخيص ويعمل بالموجة القصيرة اشتريه حتى أستمع إلى إذاعة القاهرة.. فى النهاية دخلت أحد المحلات ووضعت مجموعة الصحف على المائدة حتى أجرب مع البائع راديو بعد آخر.

بعد لحظات تطلع البائع الامريكى إلى مجموعة الصحف وفاجأنى بلغة عربية مكسرة: آه.. أنت مصرى؟ إذن أنا أمام واحد من يهود نيويورك إياهم.. اللهم طولك ياروح.. نعم مصرى أنما خالينا فى موضوعنا.. الراديو ده.. بكم؟.

رد الرجل بابتسامة ثعبانية صفراء: لا يهمك السعر.. سأعمل لك تخفيضا مخصوصا يا خبيبى.. بعدها وبلا استئذان، امسك الرجل بإحدى الصحف المصرية وفردها أمامه.. فى الصفحة الأولى خريطة تفسر للقارئ المصرى الثغرة الرادارية التى تسللت منها الطائرات الإسرائيلية إلى نجع حمادى.

تطلع الرجل إلى الخريطة أمامه وبكل غل وتشفٍ قال لى: شوف خبيبى.. دايان يعملها فيكم وأنتم تضربوا لخمة؟ شوف خبيبى لازم تسمعوا الكلام مفيش فايدة.. ناصر مفيش (ورفع الرجل يده اليمنى يجز بها رقبته كما يفعل الجزار مع الذبيحة) ناصر مفيش.. جيش مفيش.. مصر ذات نفسها مفيش.. عرب مفيش.. بترول مفيش.

طيب.. عبد الناصر والجيش ومصر والعرب مفهوم.. لكن بترول؟ أى بترول؟

قال الرجل بكل ثقة وتأكيد: بترول أويل.. مفيش.. شوف خبيبى.. البترول لأمريكا وإحنا وأمريكا كده كده.. أمريكا المخ.. وإحنا العضلات.. مفيش فايدة.. ديان فاجأكم من العالى من فوق وأنتم تضربوا لخمة فى الواطى..

خطفت الصحيفة المصرية من يد الرجل، وباقى الصحف وقلت له: والله أنت اللى رجل واطى، وديان بتاعك ده جاى له يوم.. ومنعت نفسى بصعوبة من أن أبصق على الرجل لكن النوم ليلتها فارقنى حتى الفجر من حرق الدم.

فى مساء اليوم التالى ذهبت إلى منزل سفير مصر فى الأمم المتحدة محمد عوض القونى.. بناء على دعوة عشاء من السفير محرضا لى بأن محمود رياض وزير خارجية مصر وعبد المنعم الرفاعى وزير خارجية الأردن سيكونان موجودين.

سألنى محمود رياض: لم المحك أمس فى الجلسة المسائية بمجلس الأمن.. خير؟

حكيت له قصة الراديو واليهودى الصهيونى الأمريكى صاحب المحل.

تابعنى محمود رياض بهدوئه المعتاد ثم قال لى مبتسما: إذا أخذت حكاية كهذه بعصبية على هذا النحو.. فماذا أفعل أنا كلما طلب جولد بيرغ مقابلتى وهو يهودى صهيونى امريكى لا يعمل سفيرا للولايات المتحدة بقدر ما يعمل سفيرا لإسرائيل؟.. ماذا يفعل أبناؤنا المقاتلون على ضفة قناة السويس وهم يرون الاحتلال الإسرائيلى فى مرمى البصر؟.. قلت له: أنا لم أتوقف عند شماتة الرجل بقدر ما لفت نظرى شيئان.. أولا حينما يتكلم عن إسرائيل- وهو يحمل الجنسية الأمريكية- يقول نحن.. ثانيا كلامه عن البترول.

تدخل عبد المنعم الرفاعى قائلا: يهود أمريكا، ويهود نيويورك خصوصا، فى حالة تعبئة مستمرة لحساب إسرائيل، فلنأمل أن يصبح العرب جميعا، وخصوصا عرب البترول، بمثل هذا الوعى بما يجرى، ثم إنهم هنا يركزون على مصر، وخصوصا إنها كبيرة العرب. وإذا كسروا شوكة هذا الكبير سيطيحون فينا جميعا بترول وغير بترول.

قلت لمحمود رياض والرفاعى: لماذا نجىء إلى الأمم المتحدة إذن؟ بماذا يفيدنا مجلس الأمن؟ هذا تضييع للوقت.

ابتسم محمود رياض مقاطعا: بالضبط أنت بلسانك قلتها: نحن هنا فعلا من أجل تضييع الوقت، أقولها لك جادا.. يلزمنا وقت لإعادة بناء الجيش، نحن نعرف من البداية أن إسرائيل احتلت الأرض بقوة السلاح ولن تخرج منها إلا بقوة السلاح، وحتى أى قرار نأخذه من مجلس الأمن لن ينفذ القرار نفسه.. خذ مثلا أحسن قرار فى العالم لابد أن نقرأه بطريقتين.. نقرأه مرة من موقع الضعفاء فيصبح تنفيذه على حسابنا.. ونقرأه مرة من موقع الأقوياء فيصبح لصالحنا.. الكلام الجاد لن يكون هنا.. فى مجلس الأمن أو غيره، الكلام الجاد ستقوله قواتنا المسلحة فى ميدان القتال.. إلخ.. الخ..

□□□

الفصل السابع

القرار ٢٤٢ والصياغات المراوغة

- ☐ الطرف الأقوى هو الذى سيفرض فى النهاية تطبيق القرار بالتفسير الملائم له
- ☐ ماذا دار فى اجتماعات محمود رياض مع يارنغ؟
- ☐ رياض: لا نقبل أن تتحدثوا عن اللاجئين وكأنهم ماشية
- ☐ إسرائيل مخطئة إذا اعتقدت أننا نقبل استعادة سيناء فقط ونترك الأراضى العربية الأخرى

كانت مناورات آرثر جولد بيرغ رئيس الوفد الأمريكى فى الأمم المتحدة مزدوج الأهداف. لقد كان يأمل فقط أن يحث محمود رياض وزير الخارجية المصرى على أن يطلب هو من الدول غير دائمة العضوية عدم التقدم بمشروعها.. وبدلا من ذلك.. يريد جولد بيرغ أن يبشر محمود رياض بمشروع قرار أمريكى تعرف مصر مقدما ماذا يمكن أن يعبر عنه.

وهكذا بعد ثلاثة أيام فقط من ذلك «الاجتماع العاصف» بينه وبين وزير الخارجية المصرى عاد جولد بيرغ يجتمع مع محمود رياض من جديد. إنه اجتماع ٧ نوفمبر ١٩٦٧، وهو يضم الآن أيضا عبد المنعم الرفاعى وزير خارجية الأردن.

وقد بدأ جولد بيرغ الحديث بأن قال لمحمود رياض: «لقد فهمت أنك طلبت من رئيس مجلس الأمن عقد جلسة خاصة»..

وبقاموس الأمم المتحدة فإن هناك مشروعا رسميا قد اكتمل. وتعرف به مصر. وتريد أن تطرحه للتصويت داخل مجلس الأمن. وفى العادة تجرى المشاورات لبعض الوقت أولا، ولكن هناك مشروعا محددا أصبح مسجلا فى جدول أعمال مجلس الأمن. والآن يجئ جولد بيرغ يكشف أوراقه هو الآخر. فلديه مشروع أمريكى يريد موافقة مصر والأردن عليه مسبقا حتى يتقدم به هو الآخر إلى مجلس الأمن، وجولد بيرغ يريد أن يقنع الوزيرين- المصرى والاردنى- بأن تلك الصياغات المراوغة التى يقرأها عليهما تعطى للعرب ما يريدونه- الانسحاب الإسرائيلى الكامل.

ورد عليه محمود رياض قائلا: قد نتفق نحن هنا على أن مشروعكم «هذا» يعنى الانسحاب الكامل إلى خطوط ٤ يونيو، ولكن هناك رجلا محايدا «ممثلا للسكرتير العام للأمم المتحدة» سيقرأ هذا القرار ليقوم بتنفيذه، لكنه سيجد نفسه أمام تفسيرات مشوشة.. إلا إذا كان لديه تفسير كامل. هذا لا يمكن أن يحدث إلا بوضعه فى القرار..

ورد جولد بيرغ: أريد أن أكون صريحا، إن سيناء هى جزء من مصر. لا شك فى هذا.. غزة يجب أن تحل نهائيا. ولكن ليس معنى هذا أن تضم لإسرائيل. الضفة الغربية لابد أن تعود إلى الأردن فى التسوية النهائية. إن لنا مشاكلنا أيضا مع إسرائيل. إسرائيل تريد المفاوضات المباشرة معكم، وتريد البقاء فى الضفة الغربية. وتريد الملاحة فى قناة السويس وثيران. ونحن نريد أن يكون الانسحاب جزءا من التسوية..

قال عبد المنعم الرفاعي: يجب أن يكون الانسحاب واضحا.. ونحن نأمل أن تؤدى هذه المناقشة إلى تعاونكم..

وقال محمود رياض: أنت قررت لى أكثر من مرة أن سيناء جزء من مصر، أعرف ذلك، أى كتاب مدرسى فى الجغرافيا موجود فيه أن سيناء جزء من مصر. والجولان جزء من سوريا، والضفة الغربية جزء من الأردن. نحن هنا نتكلم سياسة وليس جغرافيا. فإذا لم تكن الصياغات واضحة.. فليكن ألا يكون أى شيء جزءا من أى شيء.

اجتماع لورد كارادون ورياض

بعد هذا الاجتماع كانت آخر وسيلة مارسها جولد بيرغ مع محمود رياض هى من خلال اللورد كارادون مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة، هكذا اجتمع الاثنان فى يوم السبت ١١ نوفمبر ١٩٦٧، وبدا كارادون الحديث قائلا: يجب أن يصدر قرار «من مجلس الأمن». ومن أجل الحصول على نتائج لابد من الحصول على موافقة أمريكا. لقد ذكر الملك «حسين» لنا إنه لابد من وجود نص صريح عن الانسحاب- نؤيد هذا-، إذا وصلنا مع الانسحاب لابد أن يكون هناك شيء صحيح لابد أن نفهمه.. وأن نتحرك فى هذا الاتجاه. نريد أن نتعاون بكل قوة.. أرجو أن تذكر لى موقفك بالنسبة لهذا القرار «الامريكى» الأخير..

قال محمود رياض: موقفنا صريح ولا يتغير.

قال كارادون: «الأمريكان» قالوا وتعهدوا للملك «حسين» جولد بيرغ تعهد للملك بانسحاب إسرائيل من الضفة الغربية..

ورد محمود رياض: لا أعتقد أن كلمته تنفع.. «الأمريكان» يرفضون تفسير مشروعهم «كتابة»..

قال كارادون: أرجوك ألا تضيع هذه الفرصة..

رد محمود رياض: أنا أرفض الحصول على شيء نافع.. ولكن «هذا» قد ينفجر فى وجهى..

قال كارادون: «الأمريكان» لا يريدون تحديد صيغ معينة. ولكنهم يريدون ترك بعض الباب مفتوحا..

رد محمود رياض بوضوح وصراحة: الأمريكان يريدون ترك خريطة الشرق الأوسط لإسرائيل.. «مشروع» القرار الأمريكى يعنى هذا.

وفى النهاية قال كارادون: إن العقدة ستظل هى بين مصر والولايات المتحدة. وأضاف: إن تدخلنا بالصياغات التوافقية لا يمكن أن يبدأ إلا بعد اتفاقك أنت مع جولد بيرغ.

رد محمــود رياض: هذا مفهــوم.. و لكن لا داعى أن تضغطوا أنتم على الأردن أكثر مما يجب.

القرار ٢٤٢

هكذا، وبعد شهرين، توالت مثل تلك الاجتماعات فى نيويورك بين ممثلى الدول المختلفة، لم تكن تلك الاجتماعات ســوى مجرد جزء ضئيل جداً من الصورة فى الجانب الدبلوماســى من الصراع. إن مجلس الأمن يضم ١٥ دولة، من بينها خمس دول دائمة العضوية، وعشــر دول أخرى غير دائمة العضوية وإنما يتم الانتخاب للعضوية بالتناوب كل ســنتين، وللدول دائمة العضوية إمتياز خاص واستثنائى اسمه حق النقض «الفيتو» فإذا وافقت ١٤ دولة مثلا على مشــروع قرار معروض على المجلس واعترضت عليه دولة واحدة دائمة العضوية وقالت «فيتو» يســقط المشروع تلقائيا ودون إبداء أية أسباب.. وإذا كان ممثلو تلك الدول يتفاوضون مع بعضهم فى نيويورك، فإن آلاف البرقيات والاتصالات والزيارات الأخرى كانت تجرى فى الواقع مع- عواصم بلادهم لبلورة موقف أو لمجرد صياغة فقرة أو تعديل كلمة. إن قرارا يصدره مجلس الأمن الدولى لن يكون نهاية العالم، ولكنه يمثل على الأقل إطارا من الشرعية الدولية لا تريد أن تسجل على نفسها الرغبة الصريحة فى انتهاكها.

فى النهاية تقدمــت بريطانيا. بطلب من الولايات المتحدة. لكى تطرح صياغات توفيقية يمكــن أن تقبلهــا مصر والجانب العربــى عموما، لم تتعهد بها الولايــات المتحدة فى نفس الوقت، وهكذا تضمنت الصيغة البريطانية الأخيرة تعديلات وإضافات جوهرية أهمها النص صراحة فى القرار على مبدأ «عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة» لأن هذا شرط جوهرى بعد أن أصبحت الحكومة البريطانية تشعر بأن المشروع الامريكى «ليست لديه أية فرصة فى النجاح»- على حد تعبير أبا ايبان وزير خارجية إسرائيل الموجود حينئذ فى نيويورك.

ولأن مصر كانت ترى من البداية أن «المكاسب الإقليمية» الحقيقية التى تريدها إسرائيل هــى تلك المتعلقة بالضفــة الغربية لنهر الأردن. فقد اعتبرت النــص على مبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأراضى بالقوة ضمانا إضافيا فى هذا الصدد. بعد أن: «قام آرثر جولد بيرغ مندوب الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة بإعطاء تأكيدات للأردنيين بأن الولايات المتحدة

ستعمل على عودة الضفة الغربية إلى السلطة الأردنية. وحينما قام جولد بول. الذى أصبح سفيرا للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٦٨، بزيارة الشرق الأوسط فى أواسط يوليو، تم تفويضه بواسطة الإسرائيليين لكى ينقل إلى الملك حسين استعدادهم لإعادة الضفة الغربية، «بتعديلات طفيفة . إلى سلطته، مقابل السلام».

لكننا ما نزال فى سنة ١٩٦٧، وحيثما صدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كإطار دبلوماسى توافـق عليـه الولايات المتحدة مع الدول الأخرى لفترة ما بعد حرب يونيو فإن القرار ينص فى ديباجته على مبدأ عدم جواز الاسـتيلاء على الأرض بالقوة، وهو المبدأ الجوهرى الذى يقوم عليه كل ميثاق الأمم المتحدة.

وفى بنده الأول ينص القرار على إقامة سـلام عادل ودائم فى الشـرق الأوسط يجب أن يتضمن المبدأين التاليين: «أ» انسـحاب القوات الإسـرائيلية من الأراضى التى احتلتها فى النزاع الأخير.

«ب» إنهاء جميع حالات الحرب أو الادعاء والاعتراف بـ- واحترام- السـيادة ووحدة الأراضى والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة، وبحقها فى أن تعيش فى سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها ومتحررة من أعمال القوة أو التهديد بها.

وفى بنده الثانى ينص القرار على: «أ» ضمان الملاحة الدولية فى الممرات الدولية المائية فى المنطقة.

«ب» تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

«ج» ضمان الحرية الإقليمية والاسـتقلال السياسـى لـكل دول المنطقة من خلال اتخاذ إجراءات تشتمل على إقامة مناطق منزوعة السلاح.

ثم ينص القرار فى البند الثالث على قيام السكرتير العام للأمم المتحدة بتعيين ممثل خاص «سيصبح هو السفير السويدى جونار يارنغ» للاتصال بالدول المعنية لإيجاد اتفاق والمساعدة فى الجهود الرامية إلى تحقيق تسوية شاملة مقبولة بما يتمشى مع شروط هذا القرار ومبادئه.

غموض فى الصياغة

لقد كان هذا القرار من صياغة اللورد كارادون مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة. وهى صياغة تعمـدت بعض الغموض حتى يفسـرها كل طرف على هواه. فمن وجهـة النظر العربية تصبح إسـرائيل ملتزمة «بالانسـحاب من كل الأراضى العربية المحتلة وبتحقيق تسوية عادلة لمشكلة

اللاجئين الفلسـطينيين، تحددها قرارات سـابقة للأمم المتحدة.. وذلك فى مقابل قيام الجانب العربى بإعلان إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل والسماح لبضائعها بالمرور فى قناة السويس.

أما من وجهة النظر الإسـرائيلية فإن القرار ليس حلا للتنفيذ، وإنما هو إطار لمفاوضات مباشـرة تلتزم إسرائيل بعدها فقط بالانسـحاب من «أراضٍ» احتلتها، وذلك حسب النص بالإنجليزية، وليس من «الأراضى» التى احتلتها حسـب الصياغة باللغات الرسمية الأربع الأخرى «الفرنسـية والروسية والأسـبانية والصينية» وبالإضافة إلى ذلك فلابد من اتفاقات إضافية تفصيلية بين إسرائيل وكل من مصر وسوريا والأردن ينتهى باتفاقات سلام تعاقدية، أما التسوية العادلة لمشكلة اللاجئين فيتحملها المجتمع الدولى، وليس إسرائيل بعدها فقط بالانسحاب من «أراضٍ» احتلتها، بتعبير «حدود آمنة» هو أن يكون لمصلحة إسرائيل وليس لمصلحة الطرفين، ومن ثم يستلزم تنازلات إقليمية عربية.. إلخ.

ولم يكن ترجيح أى من التفسيرين يعتمد على شىء أكثر من توازن القوى الحقيقى فى أرض الواقع، فالطرف الأقوى هو الذى سيفرض فى النهاية تطبيق القرار بالتفسير الملائم له.

وكانت مصر على وجه الخصوص تعرف ذلك بقدر ما تفعله إسـرائيل، ومن ثم فقد كان الشـغل الشـاغل لمصر فى تلك اللحظة هو تعديل ميزان القوى العسكرى بأسرع وقت، لأن القضية ستحسم فى ميدان القتال وليس فى دهاليز الأمم المتحدة.

القدس.. أين الأوراق السرية؟

لكـن بقفـزة مؤقتة إلى الأمام وبعدما وصلت بنا الحال إلى هذه الحالة غير المسـبوقة مما أسميه «الفوضى التفاوضية» بين العرب وإسـرائيل، أصبح لزاما التوقف قليلا لمراجعة كل ما يجرى، والمراجعة هنا لن تكون مفيدة إلا إذا عدنا إلى الأساسيات، وأول هذه الأساسيات هو أن إسرائيل قامت فى حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بحرب كبرى جعلتها تحتل سيناء وقطاع غزة والجولان والضفة الغربية، وفى ذروة إحساس إسرائيل بالنشوة من انتصارها العسكرى حاولت أشياء.. نجحت فى بعضها وفشلت فى البعض الآخر.

ومن بين أوجه الفشل أن إسرائيل كانت تحلم بأن تسفر مشاورات مجلس الأمن الدولى عن قرار يستبعد مطلقا أى التزام اسرائيلى بالانسحاب من الاراضى العربية المحتلة، وبالتنسيق مع الولايات المتحدة كان أول مشروع قرار امريكى رسمى لا ينص بالمرة على كلمة انسحاب لكن الولايات المتحدة اكتشـفت فى مشاورات الكواليس فى الأمم المتحدة وقتها أن مثل هذا

المشــروع لن يحصل أبدا على الأغلبية اللازمة داخل مجلس الأمن. من هنا دخلت بريطانيا على الخط وتقدمت بالمشروع الذى سيصبح فيما بعد قرارا من مجلس الأمن برقم ٢٤٢.

وفى جلســة مجلس الأمن رقم ١٣٧٣ بتاريخ ٩ تشــرين الثانى (نوفمبر) وقف آرثر جولد بــيرغ مندوب الولايات المتحدة ليعلـن فى المجلس: «بالنيابة عن حكومتى أتعهد لمجلس الأمن وللأطراف المعنيين بوضع نفوذنا الدبلوماســى والسياســى وراء مشروع هذا القرار فى تدعيم جهود ممثل الأمم المتحدة لتحقيق تسوية عادلة حتى يتمكن الجميع فى المنطقة من العيش فى ســلام وطمأنينة»، ثم عاد المندوب الأمريكى ليعلن فى جلســة مجلس الأمن رقم ١٣٨٢ بتاريــخ ٢٢ تشــرين الثانى ١٩٦٧ أنه يكرر التعهد نفســه من جديد أمام المجتمع الدولى. تلك هى الجلســة التى تم فيها رسميا إقرار المشــروع، ومن وقتها أصبح القرار ٢٤٢ أساس أى تسوية عربية- إسرائيلية.

وفى حينها اعتبره عرب ١٩٦٧، المهزومون لتوهم عسكريا فضيحة بجلاجل، إن القرار ٢٤٢ قــد لا يكــون قرارا مثاليا، ولكنه يمثل الحد الأقصــى لاى تنازلات عربية. لقد نص القــرار على عدم جواز الاســتيلاء على الأراضى عن طريق القوة وعلــى التزامات متبادلة، وأهم الالتزامات هنا أن تنسحب إسرائيل من الأراضى التى احتلتها مقابل التزام الأطراف العربية المعنية بإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل.

ولكن عرب ١٩٦٧ وإن كانوا مهزومين إلا أنهم لم يكونوا ســاذجين. فبادئ ذى بدء هم يعرفون أن وجود قرار من مجلس الأمن بالانســحاب الإســرائيلى الكامل لا يعنى بالضرورة أن إسرائيل ستنسحب فعلا... ولو من قبيل الكسوف. ومن هنا قررت مصر مثلا أن إعادة بناء قواتها المســلحة بالكامل ورفع تكلفة استمرار الاحتلال الإسرائيلى تدريجيا وصولا إلى إخراجه بالقوة المســلحة هو الطريق الصحيح إلى التســوية، ولن تنزعج مصر حينذاك بالمرة من حقيقة أن سوريا رفضت القرار ٢٤٢ جملة وتفصيلا بينما قبلت به مصر والأردن وبدأتا فعلا التفاوض مع ممثل الأمين العام للأمم المتحدة حســب نص القرار ٢٤٢. كانت الفكرة هنــا- من وجهــة النظر المصرية- هى أن مصر تريد أساســا أن تكســب الوقت الضرورى لتســتكمل فيه إعادة بناء جيشــها. خصوصا أنها بدأت لتوها حرب استنزاف شهيرة ضد الاحتلال الإسرائيلى فى سيناء.

والآن ندخــل فى الأوراق الســرية التى تنشــر هنا للمرة الأولى، فــإلى جانب المفاوضات غير المباشــرة بين إســرائيل من ناحية ومصر والأردن من ناحية أخرى، التى تديرها الأمم

المتحدة. كانت هناك مفاوضات أخرى موازية تجرى بين مصر والولايات المتحدة على رغم انقطاع العلاقات الدبلوماسية بينهما رسميا. وفى شهر تشرين الثانى سنة ١٩٦٨ اجتمع وزير الخارجية الأمريكى دين راسك مع وزير خارجية مصر محمود رياض. لقد جرى الاجتماع فى نيويورك حيث كان الاثنان يحضران الدورة السنوية العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

وفى ذلك الاجتماع تقدم الوزير الأمريكى إلى الوزير المصرى بمشروع رسمى من سبع نقاط. وفى المشروع تعرض الولايات المتحدة على مصر رسميا، وبكلمات قاطعة محددة للمرة الأولى: انسحاب إسرائيل بالكامل من الأراضى المصرية مقابل إنهاء مصر لحالة الحرب مع إسرائيل وسماحها بالملاحة الإسرائيلية فى قناة السويس بعد اكتمال الانسحاب الإسرائيلى. وفى الاجتماع تساءل محمود رياض عن مصير الضفة الغربية والجولان. فرد عليه دين راسك قائلا: «إننى أتحدث الآن مع وزير خارجية مصر، وسأبحث الموضوع بطريقة مماثلة مع الأردن. أما بالنسبة إلى سوريا فسوف نبحث الموضوع معها حينما توافق أولا على القرار ٢٤٢».

وفى تلك اللحظة رفض محمود رياض هذا الموقف الأمريكى فى التو واللحظة ولكن دين راسك لم يقتنع بذلك الرفض وطلب من الوزير المصرى أن يحمل هذا المشروع إلى القاهرة. ومن هناك يرسل إليه فى واشنطن برد مكتوب.

وفى الأول من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٦٨ تلقت واشنطن من القاهرة الرد المكتوب رسميا، وفى ذلك الرد يحدد وزير خارجية مصر (واسمها الرسمى حينئذ: الجمهورية العربية المتحدة) أسباب رفض القاهرة لتلك الصفقة الأمريكية على النحو الآتى، حرفيا: «إن التزامات الدول العربية، المنبثقة من عضويتها فى جامعة الدول العربية وميثاق الدفاع المشترك الموقع من جانبها فى إطار الجامعة، يجعل أى عدوان ضد أى منها عدوانا ضد جميع الدول العربية لهذا فإن إنهاء حالة الحرب من جانب الجمهورية العربية المتحدة يتطلب انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية».

وهذا الموقف الأمريكى الرسمى شديد الأهمية لأنه آخر موقف سجلته الإدارة الأمريكية برئاسة ليندون جونسون قبل خروجه من البيت الأبيض. وجونسون كان هو ذاته شريك إسرائيل المتواطئ معها فى حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧. والمنطق الأساسى فى الصفقة هو انسحاب إسرائيل بالكامل من سيناء مقابل أن تفصل مصر نفسها عسكريا وسياسيا عن الدول العربية الأخرى ومصير أرضها المحتلة.

ثم نقفز فى رحلة الملفات السرية إلى أوراق أخرى.

فمنذ حزيران ١٩٦٧ كان الزعيم الفرنسى فى السلطة- شارل ديغول حينئذ- يعلن رفض بلاده أن تكون التسوية بين العرب وإسرائيل احتكارا أمريكيا سوفيتيا، ومن هنا نادى ديغول علنا بأن التسوية يجب أن تكون محل تشاور بين «الدول الأربع الكبرى» يقصد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا. ولكن رعونة جونسون وارتباطه بإسرائيل جعلاه يرفض فكرة ديغول متهكما بأنه يعرف فقط بوجود دولتين كبيرتين فى العالم- وليس أكثر- هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

مع تسلم ريتشارد نيكسون مقاليد السلطة فى البيت الأبيض فى كانون الثانى (يناير) ١٩٦٩ خلفا لجونسون، اقر لتوه بفكرة ديغول. ففى نهاية المطاف تبقى فرنسا وبريطانيا حليفتين للولايات المتحدة ولهما مصالحهما المشروعة فى الشرق الأوسط. ومن هنا بدأ فى نيويورك ما سمى «المشاورات الرباعية»، وهى اجتماعات مغلقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا على مستوى ممثل كل منهم فى الأمم المتحدة (جورج بوش أصبح فى مرحلة تالية ممثل أمريكا فى تلك الاجتماعات). اجتماعات كانت تعقد بالتوالى فى منزل كل منهم حتى تكون بعيدة عن الأضواء والهدف منها أساسا هو تنفيذ القرار ٢٤٢ على أرض الواقع ضمن برنامج محدد وتعريفات محددة ومتفق عليها.

حتى سنة ١٩٧٠ تأكدت الولايات المتحدة أنه إذا استمرت فى تبنى الموقف الإسرائيلى فإنها ستصبح مغلولة تماما فى تلك المشاورات. أما الضاغط الأكبر فأصبح حرب الاستنزاف المصرية التى أصبحت بدورها انعكاسات إقليمية ودولية أوسع كثيرا من جبهة قناة السويس. هكذا، وبالتدريج، أصبح الموقف الأمريكى يتطور، أساسا بدماء المقاتلين المصريين برا وبحرا وجوا. وأيضا بحكم الموقف الذى يجمع بين باريس وموسكو ولندن فى مواجهة واشنطن وكانت مصر من جانبها تتلقى أولا بأول نسخة من محاضر تلك الاجتماعات المغلقة فى نيويورك على مستوى ممثلى الدول الأربع الكبرى، وهى تتلقاها من مصدرين أولا- من الولايات المتحدة ذاتها على رغم حقيقة انقطاع العلاقات الدبلوماسية. ثانيا- ومن الاتحاد السوفيتى. لابد أيضا أن الأردن كان يتلقى معلوماته الأمريكية لأنه على الأقل لم يقطع علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

وفى هذا الإطار نستطيع قراءة الأوراق السرية التى تنشر هنا للمرة الأولى. والورقة الأولى هى محضر اجتماع ممثلى الدول الأربع الكبرى المذكورة فى نيويورك بتاريخ الثامن عشر من حزيران سنة ١٩٧٠ لقد نص قرار مجلس الأمن على وجود حدود آمنه أصبحت

إســرائيل تزعم أنها امتياز يخصها ويســمح لها بالتالى بأن يكون انسحابها منقوصا. والآن تتفــق الدول الأربع الكبرى على أن «الحدود الامنه، يجب أن تكون: هى الخطوط القائمة قبل نزاع حزيران (يونيو) ١٩٦٧» أو «خطوط هدنة ١٩٤٩، مع موافقة الأطراف على إجراء تعديلات طفيفة فى حالات خاصة»، ثم فى جلسة بتاريخ السابع من تموز (يوليو) ١٩٧٠ جرى تحديد معنى «التعديلات الطفيفة» على النحو التالى حرفيا: معايير تقرير التعديلات الطفيفة هى اعتبارات الأمن المحلى والقضاء على المعوقات التى تعرقل المواصلات الداخلية أو المراقبة العادية للحدود أو أية معايير أخرى يتفق عليها. ثم فى الجلســة التالية بتاريخ التاســع من تموز (يوليو) ١٩٧٠ أضيف إلى ما ســبق: «اعتبارات حسن سير العمل الإدارى أو الاقتصادى».

وفى كل الأحوال فإن التعديلات الطفيفة المقصودة تنطبق فقط على حدود الضفة الغربية مع إسرائيل، ولأسباب إدارية وإنسانية بحتة. وفى نهاية المطاف فإن أى تعديلات طفيفة هنا يجب ألا تعكس ثقل الاحتلال العسكرى.

ولا نريد الاسترســال هنا فى رحلة الملفات السرية إنما المهم هنا أمران فأولا: حتى سنة ١٩٧٠ لم يكن هناك أى جدل فى التزام إسرائيل بالانسحاب الكامل من سيناء وقطاع غزة والجــولان والضفة الغربية. والجــدل الوحيد الذى أقرت به الولايات المتحدة رسميا يتعلق بالضفة الغربية وهو جدل لا يتعلق بدوره بمبدأ الانســحاب الإســرائيلى الكامل وإنما فقط بتعديــلات طفيفة وإدارية مثل حالة أن تكون خطوط هدنة ١٩٤٩ قد قســمت قرية واحدة إلى شــطرين، وثانيــا- أن الولايات المتحدة هى بذاتها التــى أبلغت مصر والأردن بموقفها التفصيلى هذا، وبذلك القدر من التحديد.

نعود بعد هذه الإطلالة إلى الشــغل الشاغل للمصريين وتركيزهم على تعديل ميزان القوى وأن القضية ستحسم فى ميدان القتال وليس فى دهاليز الأمم المتحدة.

عبد الناصر: كسب الوقت للإعداد العسكرى

وطبقا لاجتماعات مجلس الوزراء فى مصر. ففى جلسة ٧ ابريل ١٩٦٨ قال عبد الناصر: «فى تقديرى أن مهمة يارنغ لن تصل إلى اتفاق مشرف بالنسبة لنا، كما أنى أقرر أنه سيبقى حوالى ســنة ونصف الســنة، يعنى ١٨ شــهرا. وفى الآخر يصل إلى لا شىء، فى الواقع،

أحنا فى حاجة إلى هذا الوقت لإعداد قواتنا المسلحة، أما بالنسبة إلى الرد على الموضوعات التـى عرضها يارنغ. فإذا قلت له: «من حيث حق الحياة» فإحنا فى مصر محتاجين فى حاجة إلى هذا الحق مثل إسرائيل».

- من حيث الحدود فلا توجد مشـكلة حدود بيننا وبين إسـرائيل أصلا، إذ إن الحدود المصرية معروفة ومثبتة منذ مئات السنين.

- مـن حيـث المرور فى خليج العقبة، فإننا نحتفـظ بحقنا فى عرض ذلك على محكمة دولية.

- من حيث المرور فى قناة السويس، فنحن موافقون على المرور فى القناة بشرط أن تنفذ إسرائيل قرارات الأمم المتحدة بشأن الفلسطينيين.

- من حيث المناطق منزوعة السـلاح، فنحن موافقون عليها بشرط أن تكون على جانبى الحدود.

- من حيث تواجد قوات طوارئ دولية، فنحن موافقون عليها بشرط أن تكون أيضا على الجانبين، هنا وهناك. وفى رأيى، أننا يجب أن نسـتفيد من مهمة يارنغ لكسـب الوقت للإعداد العسكرى لقواتنا المسلحة».

مهمة يارنغ أمام الطريق المسدود

وفـى الحقيقة فقد كانت مباحثـات جونار يارنغ ممثل السـكرتير العام للأمم المتحدة تسـير فى طريق مسـدود وتدور فى حلقة مفرغة، ويبدو ذلك واضحا من خلال استعراض بعـض محاضـر اجتماعاته مع وزير الخارجية المصرى محمود رياض، وهى وثائق تنشـر لأول مرة.

فـى يوم ١٣ فبرايـر ١٩٦٨ اجتمع محمود ريـاض مع يارنغ ودار الحـوار على النحو التالى:

جونار يارنغ: ..(حديث عن قضايا إنسـانية تتعلق بمدنيين مصريين مفقودين فى سيناء ونتائج اتصالات الصليب الأحمر مع إسرائيل بشأنهم...).

أمضيـت يومين فى القدس- الأحد والاثنين- و(سـأطير) باكرا إلى عمـان، إنهم كانوا يتناقشون فى الحكومة عن الـ Approval الذى كنا نبحثه سويا هنا. قلت لهم ما ذكرته لى فى المرة الماضية. اجتمعت مع إيبان أمس، وبعد مغادرتى كان سيتم اجتماع بينه واشكول.

الجـواب الذى قالوه لى. أعاد ذكر أنهم سـيتعاونون معى فى مهمتـى.. لا تغيير هناك.. إن إسـرائيل مسـتعدة للتفاوض فى كل الأمور الموجودة فى القرار (٢٤٢) والتى يرغب احد الأطراف ذكرها.

ثم ذكر أن أشـكول قال فى بيان ٨/ ١/ ١٩٦٨ احترام إسـرائيل للقرار رغبة فى التعاون مع المجتمع الدولى. قال إنه يفهم أن مصر مسـتعدة لقبول القرار وأنها مسـتعدة (للتنفيذ) على أساسه.

المرحلة الثانية هى جمع الأطراف عن طريقى.. هذه هى الخطوات.

محمود رياض: يبدو أننا مقدمون على مرحلة طويلة فيها اللعب بالألفاظ. ويبدو أننا لا نتقدم وأنه.. من ناحيتنا لا يمكننا أن نذكر أى شىء جديد أو أن نضيف إلى ما قلنا.. إلا إذا سمعنا منهم أنهم مستعدون لتنفيذ القرار ولا يحيلون الأمر إلى بيانات قالوها، أو خطب أعلنوها. وإذا صمموا على المفاوضات المباشرة فلن ينفع. وأننا مصممون على التفاوض عن طريقك.

جونار يارنغ: هذا لن يقبلوه لأنه سيكون صعبا جدا.

المهم هو التنفيذ

محمـود ريـاض: هذا موقفهم. ونحن نعتقـد أنهم لا يريدون تنفيذ القـرار. ولذلك هم يعملون على المفاوضات المباشـرة. إلا فلا داعى أن يصمموا على هذا. على أية حال أنا لا أدخل فى مناقشة هذا الموضوع، وأن الموضوع الهام الآن هو.. هل هم مستعدون لتنفيذ القرار أم لا؟. موقفهم غير واضح. أما كيفية تنفيذ القرار فإننا كما ذكرت لك مسـتعدون للمناقشة معهم. وإن عليهم الآن أن يقدموا مقترحات التنفيذ.

جونار يارنغ: أليس هذا ما اقترحوه؟.

محمـود رياض: لا.. هذا ليس للتنفيذ.. نحن كذلك لدينا أفكارنا عن التنفيذ. على أية حال هذا هو الموضوع الثانى. وأما الموضوع الأول فهو التنفيذ. التنفيذ هو ما يسـتعمل فى الأمم المتحدة.. هل نحن بصدد تنفيذ أم لا؟. إذا قلنا نحترم فقط فليس لهذه الكلمة مدلول معين سوى الاحترام للقرار. ولم نسمع منهم أى كلمة عن تنفيذه. وإن كل ما نسمعه منهم هو التفاوض. وذلك لأنهم لا ينون التنفيذ. والمفاوضات ستبحث فى وقت ما بعد أن يكون قد اتفقنا على كل شىء. وهذا..

جونار يارنغ: التنفيذ الكامل إذا اتفق عليه يجب أن تتبعه مفاوضات بعد ذلك.

محمود رياض: هذه هى آراؤهم، ولنا نحن كذلك آراؤنا فى كيفية التنفيذ.

جونار يارنغ: أهم شىء هو إنهاء حالة الحرب.

محمود رياض: كما قلت لك هذا يمكن إنهاؤه عن طريق الإعلانات، خاصة أنه ليس هناك شىء لنبحثه هنا، وكل ما يحدث إصدار بيانات على نفس اللغة التى أصدرها مجلس الأمن، وأن يودع هذا فى المجلس، لغة القرار صريحة وجيدة، وبذا يمكن عمل هذا حتى فى طريقك أنت، وحتى إذا وضعت فى تقريرك أننا قبلنا القرار نكون قد قبلنا إنهاء حالة الحرب..

جونار يارنغ: وكذلك الملاحة؟.

محمود رياض: نعم، وسيكون هذا بمثابة التزام من ناحيتنا.. لكن القول بأنهم يحترمون القرار لا يعنى الالتزام بتنفيذه.

جونار يارنغ: هذا صحيح، لقد قلت لهم، لقد ذكرت لهم كلامك بكل وضوح.

لا تتحدثوا عن اللاجئين وكأنهم ماشية !

محمود رياض: هم فى الواقع لا يلعبون فقط بألفاظهم، ولكنهم يلعبون بأقوالنا نحن، وهذا ذكاؤهم، وعلى هذا فلا يمكن أن أقول: إننا تقدمنا، بل نحن فى نفس الموضع، إذا قالوا: إنهم يحترمون هذا من قبيل التلاعب بالألفاظ ولكن هناك فرقا بين respect وimplement.

يجب أن نكون واضحين جدا. respect يعنى أن نجلس ونتفاوض ونتباحث فى كل الأمور، ولكن عندما نبحث التنفيذ لا يمكن أن نقول إنهم تعهدوا، وبالطريقة هذه يكونون قد أخذوا كل ما جاء بالقرار كمبادئ فقط قابلة للمفاوضة.

الملاحة مثلا ليست مسؤوليتى أنا أتفاوض على تنفيذ القرار، فإذا جئنا إلى هذا الموضوع مثلا وسألتنى عن هذا الموضوع لا يمكننى أن أقبل هذا أو أقبل الكلام عن اللاجئين وكأنهم ماشية، يجب على الفلسطينيين أن يقولوا شيئا عن هذا، لا يمكن أن أناقش فيه، هذه مسئولية الأمم المتحدة، يجب مناقشتها فى الأمم المتحدة ويجىء القرار من ناحيتها ولا يجىء منى أنا لأنها ليست مسئوليتى أنا، الأمم المتحدة تقرر هى نفسها إذا كانوا يعودون أو لا، هذه ليست مسئوليتى، ولا قوة لدى لإرغام اللاجئين بعمل حل معين، لماذا تضطلع مصر.. هل لان لديها بضع آلاف من اللاجئين؟ لا.. فى كندا أكثر من هذا، إسرائيل هى المسئولة، ومع من؟ مع الطرف الآخر وهو الأمم المتحدة والفلسطينيون، وعلى هذا فهذه النقطة كما جاء فى المجلس ليست مسئوليتى، أما أن تحضر إسرائيل وتريد مناقشة

هــذا الموضوع معى، فســأقول إننى لا دخل لى فى هذا، يجب أن يعطيك الســكرتير العام صلاحيات لمناقشة هذا معهم، أنا باعتبارى عضوا فى الأمم المتحدة أقول إننا...

جونار يارنغ: ولكن تنفيذ القرار يتضمن معالجة هذا الأمر..

محمود رياض: هذا القرار ليس موجها لى..

جونار يارنغ: every state in the area– الأربع دول.

محمود رياض: لماذا.. ولماذا لا تكون الدول الأخرى؟

جونار يارنغ: هل أخذوا دورا فى الحرب...؟

محمــود رياض: لبنان مثلا.. العراقيون حاربــوا.. under command وعلى أية حال نتكلم هنا عن قوات من الجزائر..

جونار يارنغ: ولكن لم تشترك هذه القوات.

محمود رياض: ولكن كانوا تحت قيادة اللاجئين ســنقول رأينا. ولكن ليس معنى هذا أنها مســؤليتى.. أنا لا أتهرب من المسـئولية.. وأنا ســأقول طبعا رأيى فيما يجب عمله تجاههم.. يجب عودتهم إلى أوطانهم..

جونار يارنغ: يعطوا الفرصة لبلادهم..

محمود رياض: رأى مصر أن يعودوا..

جونار يارنغ: ولكن.. إذا رفضوا العودة؟

محمود رياض: بهذا يكونوا قرروا هم أنفسهم..

جونار يارنغ: نعم.. هذا حق كل شخص أن يقول كلمته..

محمود رياض: للأمم المتحدة أن تتخذ أى قرار، وهناك قرارات مثلا فى هذا الشــأن، ونحن، ولو أننا نعتقد أنهم يجب أن يعودوا حتما، إلا أننا نقبل قرارات الأمم المتحدة لأننا نصوت فيها، على أية حال، ما أقوله هو أن الموضوع ليس مســئوليتى، ليس لأن إسرائيل هاجمتنا مثلا فنجد أنفسنا مطلوبا منا حل مشكلة اللاجئين، ولكن فيما يتعلق بالعدوان فأنا طبعا ملزم بحله، هناك أمران.. العدوان وهذا يصيبنى مباشرة والنقطة الأخرى هى خاصة بفلسطين ومنها اللاجئون، أنا طرف مباشر للأول ولست طرفا مباشرا للثانى، ولذلك، فإذا قلت لى أن أتفاوض فى الثانى لا يمكن. أنا لا أضمن أن تكون هناك تسوية نهائية.

كل ذلــك أقوله لأننى أعتقد أنهم لا يريدون تنفيــذ القرار، وإذن فإنهم يعملون على أن نبحــث فى كل هذه الأمور. والمهم هو قبول القرار، ونحن على اســتعداد لتنفيذ التزاماتنا

تحت القرار، ولذا يجب أن نعلم منهم أنهم مستعدون لتنفيذ القرار.. الانسحاب- اللاجئين- يجب أن نسمع كيف سينفذونه.

جونار يارنغ: يجب أن نستمع منهم الآن عما إذا كانوا ينوون تنفيذ القرار ويوفون بالتزاماتهم فى ظله.. وأن مصر مستعدة لعمل الشيء المماثل.

محمود رياض: عندما قلنا إننا مستعدون لتنفيذ القرار كنا نعنى أننا مستعدون لتنفيذ التزاماتنا طبقا للقرار.

جونار يارنغ: وإذا تم هذا تجيء الخطوة التالية.

محمود رياض: سنتناقش سويا فى كيفية تنفيذ القرار. ولهذا نريد أن يوضح كل طرق كيف يمكن تنفيذ هذا.

جونار يارنغ: أنا أعلم ما تريده إسرائيل فى هذا، من أنها ستبحث مرة أخرى لتقول إنه يجب to have a discussion وأنتم تقولون إن هناك طرقا أخرى.

محمود رياض: لقد أعطيتك بعض الدراسات..

جونار يارنغ: ولكن هذا يتعلق بنقطة واحدة.

محمود رياض: نعم.

جونار يارنغ: هذا مفيد جدا well very good.

محمود رياض: هذه نقطة يجب أن نكون واضحين فيها تماما. وبهذا نتفادى مشاكل كثيرة فى المستقبل، أعضاء المجلس الذين أقروا القرار يجب أن يكونوا عالمين تماما بكل هذا. واضح عندما أقروا القرار كان لابد فى رأيهم أن القرار يجب تنفيذه وليس احترامه فقط.

غزة مثل سيناء

جونار يارنغ: هذا طبعا طبقا للميثاق، طبيعى أن قرار المجلس يجب تنفيذه. ولكن أعلم أن هناك أمورا أخرى لم تنته بهذا.. وهى حالات أنتم لستم بعيدين عن بعض جوانبها. طبعا تشكون من أنهم لن ينسحبوا إلا على أساس أمور أخرى.

محمود رياض: الأمر أكثر من ذلك. ما نسمعه منهم كل يوم أنهم ينوون الاحتفاظ بأراضينا..

جونار يارنغ: هل قالوا هذا عن مصر؟

محمـــود رياض: أنا أتكلم عن الأراضـــي العربية، وإذا تكلموا عن مصر وتركوا غزة وهى تحت مسئوليتنا يكونون مخطئين.

جونار يارنغ: لقد قلت لى هذا ووضعتها فى مذكراتى..

محمود رياض: نحن نعامل غزة كما نعامل سيناء دون أى شك ولا تردد.

جونار يارنغ: أظن أنه معروف أن إسرائيل يجب أن تترك غزة..

محمود رياض: إن مســتقبل هذا القطاع ســيكون للعرب أنفسهم الذين يسكنونه، ونحن لم نضمهـــم إطلاقـــا. إننى أريد أن أذكر صراحة لأن «آرثــر» جولد بيرغ تكلم عن أنه ليس هناك مشــكلة عن الأراضى المصرية، ولم أرد عليه فـــى المرة الأولى. ولكن بعد ذلك ذكرت له صراحة الأراضى العربية. جولد بيرغ هو الآخر كان يلعب معى طول الوقت.. تكتيك.. عندما أتكلم عن الانســحاب أعنى الأراضى العربية كلها، لا أتكلم عن سيناء مثلا.. لأنهم ســيتركونها يوما ما ونحن ســنجبرهم على ذلك، وإذا اعتقدوا أننى مســتعد للتفاوض عن سيناء ولا أتكلم عن الاراضى العربية الأخرى سيكونون مخطئين جدا، وإذا أرادوا أن يمكثوا ســنه أخرى.. فليكن. لذلك عندما أتكلم عن الانســحاب أرجــو أن يكون مفهوما تماما.. الانسحاب من جميع الأراضى.

هذا هو السبب فى أننى أريد منهم أن يتعهدوا بتنفيذ القرار. ليتخذوا مواقفهم أمام الرأى العـــام العالمى وأعضاء مجلس الأمن الدولى والدول الكبرى، نحن نريد أن نســتمع كذلك من هـــذه الـــدول إذا كانت تريد أن ترى القرار منفذا، أو أنها تعتقد أنه «إعلان نوايا» وفى ضوء هذا نأخذ قرارا عن أنفسنا وهل نذهب ونجلس معهم ونوقع اتفاقية تسليم أو لا، يجب أن تكون هناك نهاية طبعا. ولكن كيف يكون هذا.. لا أدرى، ولكن لا يجب أن نخدع.

جونـــار يارنغ: أنت واضح تماما. لقـــد قدمت هذا لهم بكل وضوح... وكل ما ذكرته لى اليوم هو ما أفهمته لهم. وعلى أية حال سأذكر لهم ذلك مرة أخرى.

محمـــود رياض: حســـنا أن نجرب مرة أخرى. نحن نعلـــم أن أعضاء مجلس الأمن لهم وجهة نظرهم.. كيف ســـيتصرفون وفى أى اتجاه. نحن لن نخبر أيا منهم لاتخاذ قرار أو اتجاه معين. لكن الوقت ســـيأتى عندما نطلب من كل منهم أن يذكر شـــيئا. هذه المرحلة صعبة طبعا. نحن نعرف ذلك. هذا أمر ليس من الهين أن نراه مطبق.

جونار يارنغ: ليس ســـهلا. هذا ما يمكننى أن اتفق عليه معك. لا أدرى كيف ســـيكون الحل. لكن على أية حال فالأمر يستحق المحاولة مرة ثانية. هذا شىء مقنع.

الفصل الثامن

المراوغة الإسرائيلية تجمد القرار ٢٤٢

- ❏ كلمــة «احــترام» أو «يقبل» أو حتى (تنفيـذ) كلها كلمات يجب أن تترجم إلى أعمال
- ❏ ريــاض ليارنغ: الإســرائيليون يتلاعبون بالألفاظ وكل همهم التوسع.
- ❏ لــن نقبل بغير انسـحاب إسـرائيل الكامل مــن الأراضى العربية المحتلة.
- ❏ لا فرق بين المفاوضات المباشرة وغير المباشرة ومعاهدة الصلح تعنى معاهدة سلام.

كان واضحا أن مهمة السفير السويدى جونار يارنغ مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة تدور فى حلقة مفرغة وتسير فى طريق مسدود بسبب المراوغات الإسرائيلية لعرقلة تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢. الأمر الذى جعل جمال عبد الناصر لا يعلق آمالا عليها ويعتبرها محاولة كسب الوقت يضمن له الإعداد العسكرى للقوات المسلحة، وكان واضحا أن إسرائيل تسعى إلى عقد مفاوضات «مباشرة أو غير مباشرة» مع العرب وصولا إلى إبرام معاهدة صلح هى فى الحقيقة معاهدة استسلام، كما كان جليا أن إسرائيل تعمد إلى أسلوب المناورة والتلاعب بالألفاظ للتهرب من تنفيذ أى بند من القرار ٢٤٢.

ويبدو ذلك بوضوح من خلال محاضر اجتماعات جونار يارنغ مع ووزير الخارجية المصرى محمود رياض فى ٨ مارس ١٩٦٨ وهى وثيقة تنشر لأول مرة.

جونار يارنغ: تقابلت مع الكبار وكذلك مع القوى الأوربية ثم مع العراق ثم مع الهند.. وسوريا لم تقابلنى. رحلتكم كانت أطول.

محمود رياض: حول البحر الأبيض كله تقريبا. دول بحر أبيض مهتمة بالقضية خاصة الإيطاليين الذين يريدون فتح القناة بسرعة.

جونار يارنغ: بواخرهم كذلك.

محمود رياض: هل رأيت «يوثانت»؟.

جونار يارنغ: كان مشغولا جدا بموضوع فيتنام ولكنه لم ينس الشرق الأوسط. عقدنا أحاديث طويلة حوله. لقد قرأت الجرائد ولكنى لا أدرى بالضبط ماذا يحدث ولا أعتقد أن الوقت أيسر مما كنا عليه عند سفرى.

محمود رياض: منذ سفرك لم يحدث أى تغير سوى ما فعله الإسرائيليون. ونحن لم نتعجب من ذلك. وهذا يعطى للآخرين أنهم يلعبون بالألفاظ وأن كل همهم هو التوسع وأن ما عملوه لم يكن غريبا لنا. وقد يكون كذلك بالنسبة لآخرين. لقد سمعوا بعض الأصوات. ولكن تفسيراتهم لا تقنعنا. إذا لم يكن للتفسير نتائج عملية فلماذا عملوه. على هذا الموقف منذ سفرك طرأ عليه هذا العامل الخطر. وهذا يزيد من يقيننا أن الإسرائيليين يستمرون.. يريدون زيادة أراضيهم والتوسع.. عندما كنت فى باريس قالوا: إنهم يستغربون من تصريح رابين لأن ناصر لم تكن لديه نية لمهاجمة إسرائيل وأن إرسال الفرقتين إلى سيناء لم يكن إلا

من قبيل الـ bluff لكي يقال إنه بجهوده أوقف هجوم إسرائيل على سوريا. هذا مهم جدا لأن الأمريكان يقولون لا نعرف من الذى بدأ الهجوم.. راسك قال هذا، وقال: إنه فى خلال بعض الأيام سنعرف هذا الأمر - كذلك فى إحدى مناقشاتى مع جولد بيرغ أراد أن يوهم أنه يعرف الحقائق عندما قال: إنهم يعرفون أنه كان لدينا بعض الخطط لمهاجمة إسرائيل.

جونار يارنغ: لقد قرأت هذا التصريح.

محمود رياض: كل هذا لابد أن يعطى الحقيقة.. إننا لم نكن ننوى مهاجمة إسرائيل. وكذلك إن إسرائيل تريد التوسع، أمل أن تكون مقابلتكم مع الدول الكبرى فى نيويورك تؤدى بك إلى أن تخبرنا أنهم سيمارسون ضغطا على إسرائيل للانسحاب ولتنفيذ القرار.

جونار يارنغ: الاتحاد السوفياتى له موقف خاص وليس فى نفس الموقف الذى يتيح له ممارسة أى ضغط، ولا أظن أننى أتمكن من إحضار أى أنباء منهم. تحدثت مع السكرتير العام بتطويل فى هذا الموقف وما يمكن عمله. مازلنا نفكر فى إعفائى من السفر الكثير وأن تكون فى مكان واحد. كانت هناك مناقشة بين بانش والإسرائيليين من رودس. قلت للسكرتير العام إننى أشعر أننى لم أتمكن من أن أحصل على رد من إسرائيل على سؤالكم حول تنفيذ القرار.. رد صريح على سؤال صريح من مصر. المشكلة الثانية أن إسرائيل مصممة على المفاوضات. وفى القدس يشعرون أننا إذا اجتمعنا فى مكان ما سيؤدى هذا إلى مفاوضات مباشرة. هذا طبعا ما لا تشعرون به. ولكن بين الأول والثانى هناك dead lock ناقشنا هذا، وأظن أننى مقتنع أنه لا يمكن أن استمر فى التنقل بين العواصم. ولذلك فإنى أريد اقتراح مكان ما للمقابلة.. أى بلد يكون مناسبا ولدى formula وأريد أن أسالك عنها لا أريد اسمها proposal ولكننى أود أن اعرف ما إذا كانت هناك إمكانية من قبولها أو لا. ولكننى أريد feel my way إذا كان يمكن قبولها فسيكون فى شكل خطاب إلى السكرتير العام. لا يعنى خطاب منى إليكم- وهذا لا يؤدى بكم إلى أن ترسلوا ردا على. فقط يكون هناك اتفاق agreement حوله. وبغير هذا لا أرى فى الواقع كيف يمكن الاستمرار. لم أتقدم بذلك إلى الإسرائيليين ولا أدرى ماذا سيقولون عنه.

محمود رياض: هل تلقيت ردا من إسرائيل عما إذا كانوا يقبلون القرار؟.

جونار يارنغ: كلا، لم أتلق شيئا منهم ولكننى أريد وضع السؤال فى هذه الصياغة.

محمود رياض: لقد رايتهم وقدمت السؤال لهم. وفى المرة الماضية تكلمت معهم.. فماذا كان الرد؟

جونـــار يارنغ : كان هناك كلام كثير ولكن لم أتلق شـيئا هامــا وذلك قبل مقابلتى معك المـــرة الماضيـــة ، الآن أريد أن أتقدم بهذا لهم، لقد قلت لى وقتها إن القبول يكون خطوة إلى الأمام ولو أنها غير كافية.

مناورات إسرائيلية

محمود رياض: ما كنت أحاول أن أذكره لك فى كل مرة أنه بالنســبة لنا الموضوع ليس موضوع ألفاظ لأن الألفاظ يجب ترجمتها إلى أفعال، ومع هذا فإن كلمة «احترام» أو «يقبل» أو حتى (تنفيذ) كلها كلمات يجب أن تترجم إلى أعمال، وإن هذه الأعمال يجب أن تكون واضحة لنا وللكل، وفى نفس الوقت الكل يجب أن يكون له حق أن يسألنا نحن ماذا نعنى بقبولنا للقرار واستعدادنا لتنفيذه؟ نحن أمام موضوع سياسى، ولقد لاحظنا أن الإسرائيليين يرفضون تنفيذ القرار، لذلك لا يقولون بقبول القرار، لهذا فهم يمارسون المناورات واللعب، ونحن لا يمكن وغير مســتعدين للعب وللاستمرار فى هذا اللعب، ولا يمكن أن ننصح أنت ولا غيرك بالاســتمرار فى ذلك، ولذلك حاولت منذ البداية أن يكون موقفنا واضحا جدا، كما سألتك عدة مرات أن تعطينى أفكارك عن مهمتك.

كنت أحاول باستمرار تجنب الغموض حتى قبل إصدار القرار، قلت لكارادون: إن هذا الغموض سيعطيك الفرصة لإنهاء الموضوع من المجلس بسرعة، ولكن موقفنا موقف سياسى وهو لا يمكن أن نقبل بغير انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الاراضى العربية المحتلة، كذلــك لا يمكن أن نوقع اتفاقية صلح معهم، قلت له كذلك إن هذا القرار ســيدعو مبعوث الأمم المتحدة أن يعود إلى المجلس طالبا الشرح له والتفسير، وقلت له إذا كان الغموض قد ساعدك وقتئذ، ليكن، ولكن موقفنا هو كذلك، وعلى هذا فإذا نظرنا إلى الموقف الآن، وإذا نظرنا إليه بشكل عملى.. لدينا قرار من المجلس، قلنا إننا مستعدون لتنفيذ الحل الموجود فى هذا القرار، ولأشــرح لك كيف نحن مســتعدون لعمل هذا، ولقد أجبنا عن الأسئلة التى وجهت إلينا، وقلنا إننا مستعدون لتنفيذه كله، لم نضع أى شروط، وهذا كان موقفنا.

حل للتنفيذ لا جدول أعمال

الطـــرف الآخـــر ينظر إلى القرار علـــى أنه جدول أعمال للمناقشـــة وليس كحل للتنفيذ، والفرق كبير جدا.. طريقان مختلفان تماما. ومع هذا فبغير أن نجد أنفسنا على طريق واحد يجب أن نعرف أولا.. هل هذا القرار حل للتنفيذ، أو أنه جدول أعمال؟.

قــد يقولــون: إن الحدود الآمنة غير ممكن تحقيقها وكذلك فيما يتعلق بالملاحة، لا أظن أنــه يمكن لى أن أقول وقتها: إننى ســأفكر فيه عندما أريد، وعلــى هذا، من ماضينا فلن يكون هناك الحدود الآمنة وكذلك الملاحة.. وعلى هذا فلا داعى إذن لى أن أعلن إنهاء حالة الحــرب، هذا موقفنا وموقف العرب الآخرين، وفــى النهاية يكون الموضوع وكل ما تطلبه إسرائيل هو عقد معاهدة صلح تعتمد على رغباتهم وأفكارهم، ونحن غير مستعدين للوصول إلى هــذا، معاهدة صلح.. نقول: لا.. لا. والمفاوضــات معناها معاهدة صلح، وعندما يطلب منــا أى شــخص المفاوضات يكون هذا معناه توقيع معاهــدة صلح، وهذه تختلف تماما عن «رودس» التى اقتصرت على اتفاقية هدنة. هذا ما يطلبه رئيس الوزراء.

لا فرق بين المفاوضات المباشرة وغير المباشرة

وعندما نقول لا معاهدة صلح، معنى هذا.. لا مفاوضات.. كذلك لا يجب أن نضحك على أنفســنا حول المفاوضات المباشرة وغير المباشــرة، هذه المفاوضات مع الإسرائيليين لا معنى لها، ليس هناك أى فرق بين المفاوضات المباشرة وغير المباشرة إذ إن المهم فيها أنها تنتهى بتوقيع معاهدة صلح.

قد يقال: إن هذا غير مباشر مثلا، لكن رجل الشارع لا يفرق بين المباشر وغير المباشر، إننا سياسيون نعرف تماما أنه لا فرق، ولذا يعنى هذا أننا نضحك على الناس. على أطفال، روضة أطفال، الإســرائيليون يقولون (المفاوضات) المباشــرة ثم يقال إنهم عملوا تنازلا بغير المباشرة، فــى «رودس» كنــا مع بعض لأننا وقعنا ســويا على وثيقة. «بانش» كان يحاول شــيئا عمليا ويسعدنا بالكلام معنا لتذليل العقبات، وهذا ما يعمله الجميع فى مختلف المجالات.

أريد أن نكون واضحين تماما. لا داعى للكلام عن مباشــرة، ثم أصبحت غير مباشــرة، إذ المهم هو لماذا نتفاوض؟ لعقد معاهدة صلح- وهذا ما يطلبه الإســرائيليون؟ ماذا يريدون؟ القرار؟ أنا مســتعد لتنفيذه، لكنهم مصممــون على عقد معاهدة صلح. فالتفاوض إذن يحتم على أن أوافق على ما يقولون، لا يمكن أن أرفض، عندما ذهبنا إلى «رودس» كانت تعليماتنا التوقيع، حقيقة مكثنا أربعين يوما. ولكن هذا من أجل تفاصيل الهدنة. ووقعناها.

إذا ذهبنا إلى قبرص مثلا فلابد أن تكون هناك تعليمات- ماذا.. يعمل ماذا.. لابد لى أن أذكر لمثلى.. إما أن يوقع معاهدة بعد المناقشات ومعنى هذا أن أوافق على شروطهم لأنهم على أرضى وعلى الشاطئ الآخر. وهذا لن يكون معاهدة صلح، ستكون معاهدة استسلام.

ونحن لا نرى أننا مضطرون لهذا الآن، الوضع فى سنة ١٩٤٨ كان ربما يحتم عقد اتفاقية هدنة.. الآن.. حتى إذا وقعنا فإن الأهالى والمواطنين عندنا سيخرقونها ولن يقبلوا نتائجها، ما هو الموقف الصحيح إذن، يطلبون منا أن نتفاوض معهم من أجل معاهدة صلح؟ هذا مستحيل، لذا.. بكل صراحة.. لن تكون هناك معاهدة صلح، وبالتالى لن تكون هناك مفاوضات.

الذى أمامنا الآن هو قرار ننظر إليه على أنه حل.. ونحن لا زلنا نصمم على الحل السلمى.. وأنه بالنسبة لنا هو تنفيذ قرار المجلس.. كيف؟ هذا موضوع آخر ونحن غير مستعدين لبحثه. لكن لسنا مستعدين إطلاقا لعقد اتفاقية صلح، وكما قلت لك، وكما قلت للفرنسيين، إن هناك طرقا عديدة لتنفيذ القرار فى نيويورك. وفى قاعة المجلس، يمكنك أن تسأل الأعضاء الذين وافقوا على القرار، وأنا مصمم إنه حل حتى يقول لى أى شخص إنه ليس حلا.. وعندئذ أكون حرا من أى التزام تحت هذا القرار. إذا كان القرار هو فقط جدول أعمال فأنا حر تماما من جميع التزاماتى، إذا فكر الإسرائيليون أنهم أحرار من الالتزام، أكون أنا كذلك حرا من الالتزامات، إذا كان على التزامات لابد أن يكون على الآخر كذلك التزامات، لابد أن نعرف بالضبط ماذا نعمل.

كما قلت. يمكنك الذهاب إلى المجلس ونسأل الأعضاء.. هل كان هذا حلا أو أنه جدول أعمال؟ هل حتى وإن كان حل طالبوا به الجميع أن ينفذوه ويحترموه أم لا، يجب سؤال الأعضاء والمجلس. إذا كان هذا للتنفيذ نطالبهم بالمساعدة ووضع برنامج للتنفيذ ونبحث طريقة التنفيذ وschedule التنفيذ، يمكننا أن نناقش هذا فى المجلس.

يمكننا عمل هذا عن طريق مجلس الأمن. وبهذه الطريقة يكون لدينا ضمان الدول الأربع الكبرى من أجل تنفيذ قرارهم- قرار المجلس- التوقيع لا معنى له، إسرائيل لم تحترم توقيعها فى «رودس»، مثال سئ.

مع هذا فإنهم قتلوا الاتفاقية ودفنوها، وهذا توقيعهم لا يحترمونه، لهذا لا يمكننا أن نكون مستعدين للتوقيع ثالث مرة بعد رودس ولوزان.

نحن مستعدون لتنفيذ القرار فى مجلس الأمن، ويكون هذا طريقا ويكون هناك الأعضاء الكبار وسيعطون الضمانات، وعن طريق السكرتير العام ومعاونتك يمكننا فى المجلس الوصول إلى هذه النتيجة.

جونار يارنغ : هناك نقطة واحدة.. عندما قلت فى السابق.. كلمات «احترام» و«قبول» كلمات غير كافية. الآن تقول أن كلمة implement ليست كافية.. وهذه زيادة عما قلته فى الماضى.

محمود رياض: لقد قلت لك فى الاجتماع الماضى.. عندما تأتى كلمة accept سأطلب منك مرة أخرى أن تسألهم عن التنفيذ. وحتى عندما يقولون هذا. قلت لك إننى سأطلب مرة ثانية: ما معنى التنفيذ؟ لقد ذكرت لك ذلك.

لـذا فإن ما قلته لك اليـوم هو ترديد لما قلته فى الماضى. هل كل ما تنظر إليه هو النظر إلى ورقـة. كلا، نحن نريد الوصول إلى عمل. ولـذا قلت إن الكلمات يجب أن تترجم إلى أعمال، ليس هناك جديد من ناحيتى. لقد طلبت منك أن تسألنى أنت أيضا كما تسأل الإسرائيليين.. لذلك سننتظر أفعالا. اننى لا أضيف شيئا جديدا.

جونار يارنغ: حسـنا.. لدى الكلام بالضبط.. إذا أبدوا استعدادهم للقبول فسنتحرك وسنصل إلى السلام. وعلى هذا الأساس أنا حاولت المضى فى هذا الطريق. لقد دارت بيننا مناقشـات طويلة، وأصبح لدى الشـعور بأن «الاحترام» و«القبول» يقابل (التنفيذ). أما الآن فإن هذه نظرة إضافية.

محمود رياض: كل هذا إيضاح..

جونار يارنغ على أية حال كان الإسـرائيليون سيسـألون هم كذلك. وأنا اعتقد على أية حـال أنهم يرون بمعاهدة صلح فى حـين أن القرار لم ينص إلا على settlement ولو أنى أعتقد أن معاهدة صلح هى شـكل من أشـكال settlement وما ذكرته فى هذه الورقة كلمة accept لأننـى إذا عـدت مرة أخرى إلى موضوع التنفيـذ تجنبت كلمة مفاوضات. وليس هناك معاهدة صلح، لا أدرى ما إذا كان الإسرائيليون يقبلون هذا أم لا. ولكن ما ذكرته عن الذهاب إلى مجلس الأمن فهذا طبعا طريق جديد ويمكننى أن أتقدم باقتراح كهذا.. ولكن.. ماذا لو رفض الإسرائيليون.

محمود رياض: so what

جونار يارنغ: ولكن ما معنى so what؟ الطريق المسدود يستمر. هذا موقف واضح تماما.

حرب حقيقية

محمود رياض: هذه لم تكن لعبة رياضية. هذه كانت حربا. قتلا.. تدميرا.. إنها حرب فعلية حقيقية. هناك واجب وطنى يحتم علينا إخراج الأعداء. ونحن غير مستعدين لتوقيع معاهدة صلح مع الأعداء. إذا رفضوا يكونون راغبين فى وضع شروط ويتحملون هم المسئولية. نذهب إلى المجلس ونواجه الرأى العام العالمى بهذا الموقف. ولكن إخفاء رؤوسنا فى الرمال لن يخدم الموقف. تماما ولا يخفون نواياهم إطلاقا. الإسرائيليون يوضحون موقفهم تماما ولا

يخفـون نواياهم إطلاقا.. وهى توقيع اتفاقية صلـح. كيف لنا أن ننكر تصريحات قادته ؟ إنهم يقولون: «إن مباحثات يارنغ يجب أن تؤدى بنا إلى اتفاقية صلح». هذا واضح. نحن كذلك نقول: لا صلح. نحن ملتزمون بقرارات قمة الخرطوم؛ لقد قلت هذا عدة مرات، لن تكون هناك معاهدة صلح بيننا وبين إسـرائيل؛ إذا حدث هذا فهو يعنى الاستسلام، نحن هنا نتكلم بصراحة، ما هو الحل فى هذا الطريق المسـدود؟ إذا صمموا على موقفهم؛ ونحن على موقفنا، إذن لا داعى للاستمرار فى أية مناقشة، نحن على طرق مختلفة متوازية.. أو فى اتجاهات متعارضة.. وعلى هذا لا يمكن التقابل.

جونار يارنغ: التوازى لا يمكن أن يؤدى إلى تقابل.

محمود رياض: على الأقل.. التوازى يجعلنا نرى بعضنا، التوازى قد يؤدى بالتقابل.. اينشتاين.. من ملايين السنين..

جونار يارنغ: فى الفضاء الخارجى، قد؟

محمـود رياض: الأمريـكان يريدون تجنب مجلس الأمن لأسـباب خاصة بهم، يمكننا تأجيل هذا شـهرا، أنا لا أصمم على المجلس إذا كانت هناك إمكانية. ولكن.. أظن لابد من الذهاب إلى المجلس فى يوم من الأيام، الجمعية العامة ستجتمع فى ابريل.. بدايته.. الموضـوع على جدول الأعمال، لا يمكن تجنب الكلام عنه فى البيانات على الأقل، الدول الكبرى عليها مسؤولية خاصة، وإذا لم يريدوا تنفيذ هذه المسئولية..

جونار يارنغ: لابد أن يتخذوا القرار بأنفسهم، أنا لا يمكن أن أذهب إليهم وأطلب منهم عقد المجلس، لم أسـتخدم وقتى فى نيويورك للدعوة إلى هذا، هذا ليس من واجبى ولابد لهم أن يتخذوا القرار، وكل ما على أن أعمله هو أن اشرح الموقف.. وأقول: إن هناك طريقا مسـدودا، وكما قلت، ليس لدى أى اهتمام شخصى للاستمرار. وكذلك أعتقد أنه لا يمكن الاستمرار على هذا المنوال.. ليضيع الوقت من الطرفين..

محمود رياض: كنا نأمل أن يستجيب الإسرائيليون للقرار ويعلنوا عن موقفهم. أنا أتكلم من الناحية السياسية..

حدود ٦٧ آمنة

جونار يارنغ: هل لى أن أسألكم عن «الحدود الآمنة»؟ وكيف يمكن حل المشكلة فى ضوء هـذا العنصر، وهذا فى حد ذاته تنفيذ للقرار فـى أحد عوامله، كيف يمكن تنفيذ هذا من الناحية العملية؟ كيف يمكن عمله من ناحية المجلس؟

محمــود رياض: إذا انسـحب الإسـرائيليون خلف حدود الخامس مـن يونيو (١٩٦٧) فمعنــى هذا أنهم سـيكونون خلف حدودنا الدولية الآمنة، وهـم يعلنون هذا، كذلك الأمر بالنسبة لسوريا..

جونار يارنغ: لا يمكن لأحد أن يقول: إن الحدود السـورية تكون آمنة.. كانوا يرددون هذا دائما..

محمود رياض: معنى هذا أنهم يريدون تغيير الحدود الدولية..

جونار يارنغ: كلا، نزع السلاح فى بعض الأماكن..

محمــود رياض: لا يجب أن نخلط بين الحدود الدولية وبين المناطق منزوعة الســلاح، فبنــاء على اتفاقية الهدنة هناك- وكذلك ســوريا- لا علاقة بــين الاثنين، ومع هذا، فإذا كنت تتكلم عن الحدود الآمنة بمعنى الحدود الدولية فهى هناك، إلا إذا أرادت إســرائيل تغيير الحدود الدولية، وهذا موضوع آخر.

جونار يارنغ: الحدود «المعترف بها» معناها الحدود الدولية، ولكن «الحدود الآمنة» لها معنى آخر، هنا يتم بحث موضوع أماكن نزع الســلاح، وبتحديدها يمكن القول بأن هناك حدودا آمنة، أليست هناك إمكانية الوصول إلى الهدف؟

محمود رياض: هل نحن نناقش الموضوع مناقشة منطقية.. أو أننا نناقش من وجهة نظر القوى إلى الضعيف.

جونار يارنغ: يمكن القول.. من الناحيتين يمكن أن تقولوا أنتم كذلك (؛).

محمود رياض: لقد ســألت هذا الســؤال لأنه من أجل موقف الإســرائيليين فى شــأن المرتفعات السورية.. ومتى يقولون: إنهم مطمئنون، يمكنهم القول بأننا نريد تأمين المنطقة.. بنزع الســلاح أو بقوة أمم متحدة، ولكن فى نفس الوقت إذا قيل هذا فنكون قد وافقنا على موقف إســرائيل، وفى هذه الحالة يمكن للإســرائيليين الدخول فى هــذه المناطق منزوعة السلاح ومهاجمة سوريا. (هذا ما حدث معنا فى الهجوم من منطقة المعوجة سنة ١٩٥٦). المناطق منزوعة الســلاح يمكن أن تهددها إســرائيل وعن طريقها تستطيع معاودة الهجوم، فمعنى هذا أن يتم نزع ســلاح مناطق من الطرفين فيكون هذا.. عندما ســألت من ناحيتنا فإن الحدود الدولية موجودة، وعن المناطق منزوعة السلاح فيمكن قبول هذا من الناحيتين. المهم هو..

وهكـذا يمكن إتمامه فى المجلس بسـرعة جدا، أما تغيير الحدود فهذا يسـتدعى وقتا طويلا لأنه لا يمكن تنفيذه إلا عن طريق القوة أو الاتفاق، وعلى هذا فالحل سهل جدا عن طريق المجلس ويمكن أن يستمر مدة طويلة.

جونار يارنغ: نعم- بسيط جدا!- وأرجو أن يتم هذا فى لحظات.. ولكن لدى شكوكى حتى خلال عدة أشهر.

محمود رياض: نحن نعرف هذا، نحن نعرف أنه سيتطلب أكثر من هذا.

جونار يارنغ: لا يمكننى التكهن بما يمكن عمله..

محمـود رياض: يمكن عملـه، ليس فى لحظات طبعا. ولكن فى مـدة قصيرة إذا أراد الأمريكان أن يضغطوا على إسرائيل وهو ما عملوه فى سنة ١٩٥٦. إنهم لم يضغطوا وقتها على إسرائيل فقط، ولكن أيضا على بريطانيا وفرنسا. كذلك فى سنة ١٩٥٣ قام الأمريكان بتأخير إرسال شيك واحد فامتثلت إسرائيل.

جونـار يارنـغ: أنا اذكـر تماما (ما حدث سـنة ١٩٥٦).. على رغم أنها كانت سـنة للانتخابات الرئاسـية فى أميركا.. لا أظن أن هذا الحل ممكن الآن. سـأقول طبعا ما تقدم للإسرائيليين ثم نرى.. قد لا أحصل على أى رد إطلاقا بشأن حل المشكلة.. إلا إذا حدثت معجزة.

محمود رياض: سـأبعث برسـالة إلى (محمد عوض التونى) لكى يبلغ يوثانت بالصورة كاملة.. ولكن لا نستمر فى دائرة مفرغة. الموقف يجب أن يكون واضحا.

جونـار يارنـغ: ولكنك ذكرت لى من قبـل أننى إذا تمكنت من الحصـول على موافقة صريحة منهم، فيمكننا أن نسـتمر وانك مسـتعدا لمناقشة الخطوة التالية، ولقد سألونى عن هـذه الخطـوة التالية. وقلت لهـم: إنكم تقبلون القرار كمجموع، وإننى لا أشـك فى كلام مصر.

محمود رياض: هذا صحيح.

جونار يارنغ: لكن هناك تقييم إضافى جديد هو منى، وكيف وهذا يصل بنا إلى الخطوة التالية، وهو ما يسألنى الإسرائيليون عنه، لقد قلت لهم.. إعلان بإنهاء حالة الحرب، وإن له فائدة كبرى. (إنهم) يقولون إن هناك أمورا أخرى.. الانسحاب والملاحة.. ويقولون: إن الإعلان لا يكفى، وإن إسرائيل تكون.. قلت لهم إن مصر تريد تنفيذ القرار فى مجموعه.

محمود رياض: هذا ما قلته..

لا مرور بالقناة قبل حل مشكلة الفلسطينيين

جونار يارنغ: ولكن الإسرائيليين يسألون: هل ستمر سفن إسرائيل (من قناة السويس)؟

محمود رياض: لقد قلت لك صراحة.. حل موضوع اللاجئين (الفلسطينيين) سيسمح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى القناة. ما معنى ضمان حرية الملاحة فى القرار؟ إنها الآن مضمونة للجميع لذلك فإن إسرائيل هى المعنية..

جونار يارنغ: ولكن حل مشكلة اللاجئين (الفلسطينيين) يعنى عشر سنوات.. ومعنى هذا أن السفن الإسرائيلية لن تمر فى القناة قبل عشر سنوات.

محمود رياض: ولكن.. هل من الإنصاف أن يترك هؤلاء اللاجئون to suggest لمدة عشر سنوات بينما نسمح للسفن الإسرائيلية بالمرور فى القناة من باكر؟ هذا الموضوع إنسانى. لذلك يجب فى الواقع معالجته مبكرا بالقدر الواجب. إذا فكرنا من الناحية الإنسانية. لماذا نتركهم يعانون عشر سنوات؟

جونار يارنغ: إننى أفكر من الناحية العملية..

محمود رياض: إذا فكرنا هكذا. فلننس القرار ولنتكلم بطريقة أخرى. المسائل العملية بالنسبة لإسرائيل هى التوسع، (ليفى اشكول)، يتحدث عن ضرورة تهجير خمسة ملايين يهودى إلى إسرائيل.. وهو يعنيها. فلا بد لهم من التوسع..

جونار يارنغ: هل يريد خمسة الملايين نيويوركى.. هل هم مستعدون للذهاب؟

محمود رياض: فى سنة ١٩٤٨ كان هناك عدة آلاف..

□□□

الفصل التاسع

وقف حرب الاستنزاف

- ❑ اسـتعداد مصـر لتحمل الثمن كان تعبـيرا عن الإصرار على رفض الأمر الواقع الاسرائيلى
- ❑ تقرير المخابرات الإسرائيلية يقول: عبد الناصر يغلق الحجرة على نفسـه كل يوم لدراسـة كل التسجيلات العسكرية الإسرائيلية
- ❑ مصر ترفض مشروعا أميركيا بانسحاب إسرائيل الكامل من سيناء وغزة لأنه حل منفرد.



أدركت مصر أن مهمة جونار يارنج مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ تدور فى حلقة مفرغة. لذلك كانت الأولوية المطلقة من وجهة النظر المصرية فى تلك الفترة هى تعديل الخلل العسكرى القائم منذ حرب يونيو. وكان جمال عبد الناصر فى القاهرة يعمل ١٨ ساعة يوميا لمتابعة التجهيزات العسكرية الجديدة. وسجلت تقارير المخابرات العسكرية الإسرائيلية أنه: «فى خلال ستة شهور من حرب يونيو وجدت إسرائيل أمامها على الضفة الغربية لقناة السويس جيشا مصريا جديدا يعادل تقريبا حجم الجيش الذى واجهته إسرائيل فى ٥ يونيو. وأصبح على إسرائيل أن تواجه هذا الجيش الجديد أمامها عبر قناة السويس. إن هذه الولادة السريعة كانت مجرد الفصل الافتتاحى فى عملية انشئت مصر فى نهايتها جيشا يبلغ حجمه ثلاثمائة ألف جندى. وبمجرد أن تلقت مصر المعدات الملائمة بدأ المصريون فى إغارتهم المحدودة- ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء- فى ١٩٦٨. والتى تطورت الى إعلان حرب الاستنزاف».

وكانت إسرائيل قد أصبحت مستفيدة من المزايا العسكرية الذى حققها الأمر الواقع الجديد فى الجبهة المصرية بعد حرب يونيو. ففى الطيران مثلا كانت «المسافة بين المطارات المصرية ومراكز السكان الإسرائيلية تبيح لإسرائيل فترة إنذار اليكترونى تعادل أربع دقائق. والأن بعد أن أصبحت القوات الإسرائيلية على حافة قناة السويس ارتفعت تلك الفترة الإنذارية إلى ١٦ دقيقة».

مع ذلك فإن تلك الحقيقة العسكرية الجديدة أصبح لها وجه آخر. فبعد أن أصبح معظم الجيش المصرى مرابطا فى الضفة الغربية لقناة السويس فى اشتباك بالمدفعية وإغارات القوات الخاصة عبر القناة. فان هذا الالتحام المباشر يمكن المصريين فى اللحظة المناسبة من التحرك إلى الهجوم الشامل فى «أقصر وقت ممكن».

ومع شهر نوفمبر سنة ١٩٦٨. بعد سنة ونصف من حرب يونيو ١٩٦٧. أصبح المصريون الذين أعادوا إنشاء جيشهم وأعادوا تسليحه من الاتحاد السوفيتى. يحسون بأنهم وصلوا إلى درجة من القوة تسمح لهم بشن حرب استنزاف كبرى. فى هذا الشهر شنوا هجوما ضخما بالمدفعية على القوات الإسرائيلية التى فاجأها الهجوم.. وسقط ١٨ إسرائيليا قتلى. وكان رد الفعل الاسرائيلى هو شن هجوم بقوات الكوماندوز فى العمق «المصرى» فى نجع

حمادى بوادى النيل. مدمرين بعض المنشآت الكهربائية. وبما أبرز للمصريين ضعفهم الأساسى أمام هجوم تقوم به قوات إسرائيلية متحركة. إن صدمة هذا الهجوم أقنعت الرئيس جمال عبد الناصر بأنه ليس. بعد. كامل الاستعداد. ومن ثم قام بتأجيل حرب الاستنزاف حتى شهر مارس ١٩٦٩، وخلال فترة التقاط الأنفاس التى أدى إليها قراره. ركز الإسرائيليون كل جهودهم فى إقامة خط «دفاعى» يكون هو الإجابة التى تتطلبها مثل هذه الحرب «.. وهو ما سمى فيما بعد بـ خط بارليف.

الواقع أنه من وجهة النظر المصرية فقد كانت المهمة العاجلة فى إعادة بناء القوات المسلحة هى أولا إعادة بناء خط دفاعى قوى فى الضفة الغربية لقناة السويس. ولم يكن هذا يتم فى ظروف عادية، فإذا كانت مصر تعد جيشها لتحرير سيناء بقوة السلاح. فإن إسرائيل تريد أيضا إصابة مصر أولا بأول باليأس الكامل من إمكانية الحل العسكرى. وهكذا سارت المرحلة الأولى من حرب الاستنزاف المصرية بجولات. وجولات مضادة. تعبر عن الهدف السياسى المتناقض لكل من الطرفين.

لقاء عبد الناصر وبودجورنى

وكانت نقطة الضعف البارزة الأولى التى تعانى منها مصر من البداية هى أن سماء مصر أصبحت مفتوحة تماما أمام الطائرات الإسرائيلية بعد أن خرجت من حرب يونيو بمطاراتها العسكرية مدمرة وشبكة إنذارها الجوى محطمة بالكامل. وفى مباحثات عبد الناصر مع الوفد السوفياتى برئاسة بودجورنى. قال لهم بصراحة فى جلسة ٢٢ يونيو ١٩٦٧: «إن مهمة إخراج إسرائيل من سيناء هى مسئوليتنا بالكامل وليست مسئوليتكم. أما الدفاع الجوى عن أراضى الجمهورية فهذا ما نطلب مشاركتكم فيه». ولكن السوفيات ظلوا مترددين تماما بشأن المخاطر الدولية لمثل تلك المشاركة. بحيث إنهم لم يتخذوا بشأنها قرارا حاسما إلا بعدها بسنتين ونصف السنة.

وأصبحت إسرائيل تلمس من تطور العمليات العسكرية المصرية أداء عسكريا مصريا جديدا ومختلفا بالمرة. لم تكن تتوقعه بمثل تلك الكفاءة المتزايدة فى مثل هذا الوقت القصير.

وكان من بين التفسيرات التى وضعتها المخابرات الإسرائيلية: «إن تصميم جمال عبد الناصر على أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة قد قوى من قيام السوفيات بإعادة بناء قواته وتقديم الدعم الضرورى لتحقيق ذلك. وهكذا ففى أعقاب حرب ١٩٦٧ مباشرة بدأ

جمال عبد الناصر فى دراسة أسباب النجاح الاسرائيلى، وخلال فورة النصر فى إسرائيل أذاع كل القادة الإسرائيليين وصفا لانتصاراتهم فى المعركة، وجاء ناصر بتسجيلات لكل ما أذيع، وأغلق على نفسه حجرة، وظل يستمع إليها لأيام طويلة حتى يقوم بتقييم العوامل الرئيسية التى جعلت من الجيش الاسرائيلى تلك القوة الضاربة الفعالة».

وبصرف النظر عن صحة أو عدم صحة هذا التفسير، فإن دراسة أسباب هزيمة ١٩٦٧ والاستعداد للمواجهة العسكرية الحتمية القادمة، كانت مهمة جميع القيادات فى تلك الفترة، من جمال عبد الناصر إلى أصغر جندى فى القوات المسلحة، ولم تكن حرب الاستنزاف التى شنتها مصر ضد الاحتلال الإسرائيلى بلا ثمن. ولكن استعداد مصر لتحمل الثمن كان بدوره تعبيرا عن الإصرار الصلب على رفض الأمر الواقع الاسرائيلى، وفرض أمر واقع مضاد بقوة السلاح..

الانهيار الذى لم يحدث

وكان كل هذا يجرى فى ظل ظروف سياسية واقتصادية صعبة.. أعطت أساسا لكى تقامر السياسة الاميركية فى تلك الفترة على انهيار مصر من الداخل، إن لم يكن لأسباب عسكرية وسياسية، فعلى الأقل لأسباب اقتصادية.

ويتذكر الدكتور محمد حسن الزيات، وكان يشغل فى تلك الفترة منصب المتحدث الرسمى المصرى المكلف بشرح موقف مصر للصحافة الأجنبية أولا بأول، أن مراسل جريدة «النيويورك تايمز» فى القاهرة صارحه ذات مرة وهو يقول له بين الجد والهزل: «أرجوك يا دكتور.. لقد أرسلنى رؤسائى إلى القاهرة لكى أتابع مظاهر التململ بين الرأى العام المصرى من أعباء الحرب.. فإذا أصبحت أنا أول من ينشر خبر انهيار مصر من الداخل وقبولها لطلبات «الرئيس» جونسون فإن هذا سيضمن لى أكبر ترقية صحفية فى حياتى».

رسالة إلى الملك فيصل

فى تلك الفترة كانت السعودية تحاول استخلاص موقف محدد من الولايات المتحدة الاميركية للالتزام بالانسحاب الإسرائيلى الكامل من الأراضى العربية، وخصوصا بالنسبة للضفة الغربية المحتلة، وهكذا تلقى الملك فيصل فى ١٢ ابريل ١٩٦٨ مذكرة من السفير الاميركى بالسعودية تقرر أن الولايات المتحدة تتعهد: «بالتأييد الدبلوماسى والسياسى

الكامــل لقرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧... وهى تؤمن بأن يقدم الأســاس الذى يحقق السلام بشرط أن تخلص جميع الأطراف فى تطبيق القرار بنصة وروحه» و«معنى القرار واضح: ففى مقابل الانســحاب الاســرائيلى يجب أن يكون هناك اتفاق بشأن حالة الســلام Agreement on a stare of peace تقــوم على المبادئ التى أحتواها قرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٢ نوفمبر».. و«أن نفوذ الولايات المتحدة يمكن أن يستخدم بطريقة أفضل إذا حدث تقدم نحو التسوية، ويفضل أن يكون ذلك تحت إشراف السفير يارنغ».

أما بالنســبة للانسحاب الإســرائيلى، وهو ما تود الســعودية أن تعرفه، فإنه: «مازال موقفنا من الانســحاب هو ما ســبق أن عبرنا عنه للملك حســين فى نيويورك فى ٣ نوفمبر ١٩٦٧، وهــو فــى حين أننا لا نســتطيع ضمان أن كل شــىء يعود لــلأردن أو أن بعض التصحيحات الإقليمية لن تكون مطلوبة لإقامة الحدود الدائمة، إلا أننا مستعدون لاستخدام نفوذنــا للوصــول إلى أفضل الترتيبات الممكنة لــلأردن».. و: «فى حين أنه يجب أن يكون هناك انسحاب للقوات (الإسرائيلية) فإنه يجب أن تنسحب إلى حدود آمنة ومعترف بها، وليــس بالضرورة إلى خطــوط الهدنة القديمة وغير المناســبة Rather than necessarily; to the old and inadequate armistice lines.. و: «يجــب أن يكــون هنــاك مع ذلك تصحيحــات تعويضية نتيجة التغيير فى هذه الخطوط، ونحن نؤمن بأن هذه التصحيحات يجــب أن تكون فى الحد الأدنى المناســب للأمن المتبادل والمــبررات الاقتصادية». «We believe these adjustments must be the minimum compatible with mutual security and economic needs» ثــم: «إن مســتقبل القــدس يجــب ألا يحدده إجراء إســرائيلى انفرادى، ولكن يجب أن يحل بطريقة مرضية لمصالح الأديان الثلاثة والمجتمع الدولى، ونحن مســتعدون لاســتخدام نفوذنا بهدف إعداد تسوية واستطلاع لترتيبات يمكن القيام بها لحماية المصالح الدولية، ومن أجل دور سياســى واقتصادى ودينى مناسب تقوم به الأردن فى المدينة المقدسة».

انسحاب كامل من سيناء

وقد مضى شــهر نوفمبر من قبل، والآن يمضى شــهر أبريل من عام ١٩٦٨. والولايات المتحدة لا تتحرك حتى لتنفيذ تلك التعهدات المراوغة بشــأن الضفة الغربية والقدس، لكن الشــىء الوحيد المحدد الذى كانت إدارة الرئيس جونســون مستعدة لتقديمه، كان يتعلق

بسيناء والأرض المصرية.. فقط. وهكذا اجتمع دين راسك وزير الخارجية الأميركى بمحمود رياض وزير الخارجية المصري فى نيويورك فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩٦٨ ليقدم إليه مشروعا أميركيا من سبع نقاط هى:

١ - انسحاب إسرائيل من الاراضى المصرية بالكامل.

٢ - إنهاء حالة الحرب بين مصر وإسرائيل.

٣ - يتبع ذلك فتح قناة السويس للملاحة الإسرائيلية.

٤ - حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين على أساس سؤال كل لاجئ بطريقة سرية وبصفة شخصية عن مدى رغبته فى العودة إلى إسرائيل، وفى حالة رفضه فله أن يختار أى بلد يريد أن يذهب إليه دون أن يشكل هذا ارتباطا مسبقا على تلك الدول.

٥ - تواجد قوات دولية فى شرم الشيخ، على ألا تنسحب إلا بقرار من مجلس الأمن أو الجمعية العامة.

٦ - تفهم حول مستوى التسلح فى المنطقة.

٧ - توقيع مصر على وثيقة تتضمن هذه الالتزامات، وكذلك إسرائيل.

وبداية كان هناك شك فى الظروف التى تقدم من خلالها إدارة جونسون هذا العرض، ففى التاسع من أكتوبر أعلن الرئيس جونسون عن موافقته المبدئية على إمداد إسرائيل بطائرات فانتوم أميركية لأول مرة، وتمثل الفانتوم فى ذلك الوقت أحدث الطائرات المقاتلة القاذفة الاميركية ذات الإمكانيات المتطورة والمدى البعيد الذى ينطلق بسيطرة إسرائيل الجوية إلى آفاق جديدة تدعم استمرار احتلالها للاراضى العربية، وكان طبيعيا أن يتصاعد هذا بمستوى الغضب ضد الولايات المتحدة فى أنحاء العالم العربى، «وأملاً فى احتواء ردود الفعل العربية السلبية لصفقة الفانتوم» جاء اجتماع دن راسك بمحمود رياض وتقديمه هذا العرض المحدد.

اجتماع راسك ورياض

وبمجرد أن تقدم دين راسك بعرضه الرسمى هذا، قال له محمود رياض: «إن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ يقضى بانسحاب إسرائيل من كافة الأراضى العربية المحتلة وليس من الأراضى المصرية وحدها.

وأجابه دين راسك قائلا: إننى الآن أتحدث مع وزير خارجية مصر...

قـال محمود رياض: هذا صحيح، ولكن التزاماتنا العربية تحول دون أن ندخل فى أى حل منفرد مع إسرائيل، تاركين الأردن وسوريا خلفنا.

رد وزير الخارجية الاميركي بقوله: إننا نرى أن على كل دولة عربية أن تستقل بنفسها في مناقشة موقفها بدون أن تربط موقفها بالدول العربية الأخرى. ففى هذه الحالة نستطيع أن نعالج كل مشـكلة على حدة. فيكون هناك حل مصرى اسـرائيلى. وأردنى اسرائيلى. وسورى اسرائيلى، وهكذا، فعندما نجمع الحلول الثلاثة معا فى النهاية نكون قد وصلنا إلى التسـوية الكاملة، لقد بدأت الاتصالات بكم لأن إسرائيل لا ترغب فى الاحتفاظ بالأراضى المصرية، بالنسـبة للأردن فهو قادر على أن يتكفل بنفسـه. وقد كان من الممكن أصلا ألا يواجه الأردن مشكلته الحالية لو أنه امتنع عن التدخل فى يونيو ١٩٦٧.

وهنا قاطعه محمود رياض قائلا: إنه سـوف يكون عملا غير أخلاقى من جانبنا لو أننا ركزنا الحل على الانسحاب الاسرائيل من سيناء وتركنا وراء ظهورنا باقى الأراضى العربية المحتلة، وأحب أن أذكرك بان الأردن وسـوريا قد دخلتا الحرب بعد أن بادرت إسرائيل فعلا بالعدوان على مصر فى ٥ يونيو ١٩٦٧، ولذلك فإنه من غير المقبول أن نسعى لإيجاد حل لأنفسـنا مع إسـرائيل وترك الآخرين، لقد قلنا للملك حسـين إنه يسـتطيع ألا يقيد نفسـه بنا، ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نقبل لأنفسنا التحلل من التزاماتنا للدول العربية.

قال دين راسك: ولكنى أتيت لك بانسحاب كامل من الأراضى المصرية..

رد محمود رياض: لا خلاف حول أهمية انسـحاب إسـرائيل من سـيناء. وهذا يفرضه علينا اتفاق الهدنة الذى وقعته معنا فى سنة ١٩٤٩ وقرار مجلس الأمن فى نوفمبر ١٩٦٧. واعتراضى ينصب فقط على مطالبتنا بإنهاء حالة الحرب من جانبنا بينما القوات الإسرائيلية لا زالت تحتل الأراضى العربية، ونحن على اسـتعداد لإعلان إنهاء حالة الحرب بمجرد انسحاب إسرائيل من جميع الاراضى العربية المحتلة، فإلى جانب الاعتبار الأخلاقى هناك التزام قانونى تقتضيه اتفاقية الدفاع المشترك بيننا وبين بقية الدول العربية.

قال دين راسـك: إننى نيابة عن الولايات المتحدة أسـتطيع أن أتقدم باقتراح مماثل إلى الأردن. ولكننا لا نسـتطيع أن نفعل نفس الشـىء مع سوريا طالما أنها ترفض قرار مجلس الأمـن. على أية حال. لماذا لا ترسـل لى ردك على مقترحاتـى فى مذكرة بعد عودتك إلى القاهرة. يمكنك أن تضيف على النقاط السبع أى نقاط تقترحها..

ويبدو أن دين راسك كان يأمل فى تغيير محمود رياض لموقفه بعد أن يعود إلى القاهرة ويعرض المشروع على الرئيس جمال عبد الناصر، لذلك كرر طلبه بتلقى رد مكتوب منه بعد عودته إلى القاهرة.

اجتماع مغلق برئاسة عبد الناصر

وفى القاهرة كان جمال عبد الناصر يحضر اجتماعا مغلقا للجنة المركزية للاتحاد الإشتراكى جرى فى السادس من نوفمبر ١٩٦٨ ، ومحضره «سرى للغاية». إن عبد الناصر شرح للمجتمعين أبعاد الموقف السياسى وتناول العرض الأمريكى الجديد ورد دين راسك عليه طبقا للبرقية الواردة من نيويورك.

وطبقا لمحضر الجلسة ، علق جمال عبد الناصر بقوله : « لو ركزنا الحل على انسحاب إسرائيل من سيناء، وتركنا وراء ظهورنا باقى الأراضى العربية المحتلة.. فإنه يعتبر خيانة منا لأشقائنا العرب. ووزير الخارجية «محمود رياض قال لدين راسك إننا أوضحنا للملك حسين أنه يستطيع أن يحل مشكلته (بشأن الضفة الغربية) إذا شاء دون أن يقيد نفسه بنا، ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نحل أنفسنا من التزاماتنا إزاء الدول العربية».

وأضاف جمال عبد الناصر قائلا: «كنا قد طلبنا من الملك حسين أنه ما يقطعش علاقاته مع الولايات المتحدة الاميركية، وبعد زيارته الأولى لنا هنا قلنا له : إنه يستطيع أن يتخذ أى خطوة من الخطوات مع أميركا فى سبيل حل مشكلته والجلاء عن الضفة الغربية، وقلنا له: إن أحنا ها نؤيد هذه الخطوات ولن نقف ضده.

«وسافر الملك حسين إلى الولايات المتحدة وقابل جونسون مرتين وتكلم معه، وبين له أنهم ماشيين مع الغرب ومع السياسة الغربية، ولكن كل هذا لم ينفع فى أى شىء، وأميركا مشيت فى سياستها اللى هى تبنى كامل لسياسة إسرائيل».

وقال جمال عبد الناصر: إن مصر قبلت قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لسبب أساسى وهو حاجتها إلى الوقت اللازم لإعادة بناء القوات المسلحة ولكنه شخصيا لا يؤمن بجدوى ذلك القرار لان اللغة الوحيدة التى تفهمها إسرائيل هى القوة.

وأضاف جمال عبد الناصر قائلا: «فى الحقيقة إن أحنا ملتزمين على أساس أننا لا يمكن أن ننهى حالة الحرب (مع إسرائيل) طالما أن هناك شبر من الأراضى العربية محتل باسرائيل، وحتى لو تعهدنا أمام مجلس الأمن بإنهاء حالة الحرب سيكون معلقا بالجلاء

الكامل أو الانسحاب الاسرائيلى الكامل من كافة الاراضى العربية المحتلة بما فى ذلك القدس، طبعا هذا الكلام تعرفه إسرائيل لان أحنا قلناه ليارنج».

أما بالنسبة لما ينص عليه القرار ٢٤٢ فمن حق كل دولة فى أن تعيش. فإن تأييد أميركا المستمر لإسرائيل يجعل العرب هم المهددين وليس العكس. أما بالنسبة لنص قرار مجلس الأمن على حرية الملاحة فى الممرات المائية الدولية ومنها قناة السويس، فقد قرر جمال عبد الناصر فى هذا الاجتماع المغلق موقف مصر قائلا: أننا «نربط هذا باللاجئين (الفلسطينيين) وخصوصا أن الاثنين جايين فى فقرة واحدة، فإذا حلت مشكلة اللاجئين تحل مشكلة قناة السويس، لأنه تبقى المشكلة كلها أتحلت ويبقى الفلسطينيون لهم الحق فى أن يعودوا إلى بلدهم».

وعن الموقف العسكرى على جبهة القتال قال جمال عبد الناصر أننا: «استكملنا الدفاع ولكن لم نستكمل مقومات الهجوم» وهذا سيتطلب وقتا وجهدا.

□□□

الفصل العاشر

العروض الإسرائيلية والرفض المصرى

- نحن نؤمن بأن مصر ليست ماضيا انتهى أمره، ولكنها مستقبل نشترك جميعا فى صنعه. ودورنا العربى هو قدرنا ولا رجعة عنه
- مصر ترفض عرضا إسرائيليا بإعادة سيناء بلا شروط مقابل دعوة أشكول لزيارة القاهرة
- معارضة مصرية تواجه عبد الناصر..
- لماذا لا نترك العرب والفلسطينيين لشأنهم ونحل مشكلة سيناء؟
- أشكول: نهر مصر المشار إليه فى العهد القديم هو نهر العريش وليس نهر النيل
- لماذا أحال عبد الناصر رئيس الأركان المصرى إلى التقاعد؟

في نفس الاجتماع المغلق الذى ترأسه عبد الناصر يوم ٦ نوفمبر ١٩٦٨ لأعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الإشتراكي، والذى كانت تعتبر نصوص محضره سرية للغاية، ثارت مناقشة هامة حينما علق العضو أحمد العماوى على معنى التزام مصر الأخلاقى برفض الحل المنفرد والارتباط بالتسوية الشاملة القائمة على انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الأراضى المحتلة وبحقوق الفلسطينيين. قائلا: «الدول العربية تحملنا عبء قضية فلسطين بالكامل، وإنى أرى أنه يجب أن نتحمل نصيبنا فقط من هذه القضية وليست كلها، ويجب على الدول العربية أن تتحمل نصيبها أيضا. لأن ما نشعر به أن الدول العربية كلها تلقى العبء كله على كاهل الشعب المصرى، ونحن بدورنا نتحمل كافة التضحيات».

ورد جمال عبد الناصر بقوله: «فى الحقيقة أنا أعتقد أن هذا الدور هو قدرنا لعدة أسباب، لأن مصر هى أكبر دولة عربية».. وفى حواره مع الفريق محمد فوزى وزير الحربية قال له: إنه على رغم الجهود القائمة لعمل جبهة شرقية. من سوريا والعراق والأردن. إلا أن الخطط العسكرية المصرية لابد أن تقوم على أساس أن مصر ستحارب وحدها، وأنه قام بإقناع السوفيت مؤخرا بهذا المنطق بصعوبة.

وقال جمال عبد الناصر: «إن الشعوب العربية هى فى طبيعتها أيضا عندها موقف أخلاقى يتساوى مع الموقف الاخلاقى بتاعنا».. والناحية الأخرى هى: «هل نقبل أن أحنا نتفاهم على الجلاء عن سيناء، ونسيب القدس والضفة الغربية، وننهى حالة الحرب؟.. هل حتى هذا الشعب (المصرى) يقبل أن تكون الضفة الغربية محتلة، بينما تنسحب إسرائيل من سيناء وتنهى مصر حالة الحرب معها قائلة إنها تعتقد أنها تنفذ قرار مجلس الأمن؟».

إن شهر نوفمبر ١٩٦٨ شهد على هذا النحو خلاصة السياسة الأمريكية فى ظل رئاسة ليندون جونسون، ورد مصر عليه، فالسياسة الأمريكية قامت أولا على جنى ثمار حرب يونيو سياسيا من خلال «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» وحينما لم تأت بوادر النجاح بالسرعة المطلوبة أصبح الهدف هو إحراج مصر سياسيا بتقديم عرض إليها لا تستطيع أن ترفضه.. على حد تعبير والت روستو فى مذكرته السرية للرئيس جونسون فى اليوم الثالث لحرب يونيو. والآن. قبل أن تنتهى رئاسة جونسون بشهرين ونصف فإنه يعرض على

مصر استرداد سيناء بالكامل، وحق العودة للفلسطينيين، مقابل إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل والانفصال عن الأردن وسوريا.

وطوال هذا كله كان الضغط العسكرى على مصر مستمرا من خلال الاحتلال الإسرائيلى من ناحية، وعرقلة بناء القوات المسلحة المصرية بأى ثمن، وإمداد إسرائيل بالمزيد من الأسلحة التى تضمن لها السيادة العسكرية فى المنطقة كلها من ناحية أخرى.

وبعد أن عرفت إدارة جونسون بإصرار جمال عبد الناصر على التسوية الشاملة، وبرفضه «الجزرة» التى تعرضها عليه، فإن تكرار استخدام «العصا» معه ربما يجعله يلين، أو يجعل الشعب المصرى يرتعد، ومن هنا تم فى أواخر ديسمبر «١٩٦٨» التوقيع على صفقة بخمسين طائرة فانتوم أمريكية أف- ٤ إلى إسرائيل، على أن تتسلم إسرائيل ١٦ طائرة منها فى أواخر ١٩٦٩، والباقى فى سنة ١٩٧٠، ولتخفيف الآثار المتوقعة فى العالم العربى ضد الولايات المتحدة، اقترنت الصفقة ببضع دبابات تنوى إدارة جونسون بيعها إلى الأردن. بينما قرر ليفى اشكول رئيس وزراء إسرائيل أن الرئيس جونسون أعطاه تقريبا حق الفيتو «الاعتراض» لو أراد.. فلا تحصل الأردن حتى على تلك الدبابات الرمزية...

وكانت تلك الصفحة الأخيرة التى أنهى بها ليندون جونسون رئاسته للولايات المتحدة. لقد نجحت السياسة الأمريكية فى حرب يونيو، ونجحت فى ضمان استمرار الأمر الواقع الجديد، لكنها لم تنجح مطلقا فى أى من الأهداف الأخرى التى تستلزم عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

نيكسون وروجرز.. وكيسنجر

مع العشرين من شهر يناير ١٩٦٩ أصبح هناك رئيس جديد فى البيت الأبيض الامريكى، حيث أصبح ريتشارد نيكسون رئيسا لأربع سنوات تالية، وكان من بين الوجوه التى جاء بها إلى إدارته.. وليم روجرز كوزير للخارجية.. وهنرى كيسنجر كمستشار له لشئون الأمن القومى.

وكان هنرى كيسنجر. كيهودى صهيونى أمريكى متعصب تماما لإسرائيل مثل سلفه فى نفس المنصب- والت روستو- يتحرق لهفة ليصبح مساهما فى صياغة وتشكيل السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط، ولكن الرئيس الجديد نيكسون جعل هذا الجزء بالذات مدينا فى انتخابه لأصوات اليهود الأمريكيين. أو لأموالهم. كغيره من الرؤساء

السابقين، بالإضافة إلى أنه كان عميق الخبرة بالشؤون الدولية، ولم يكن يثق كثيرا فى قدرات وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.. كل تلك العوامل تجعله على طرفى نقيض من سلفة ليندون جونسون.

وأذكر وقتها أننى بعثت من نيويورك بمقال نشرته لى «أخبار اليوم» انتهيت فيه إلى أن السياسة الأمريكية الجديدة فى الشرق الأوسط لابد أن تكون أفضل فى ظل رئاسة نيكسون. لسبب بسيط. وهو أنها فى عهد جونسون وصلت إلى أسوأ ما يمكن أن تصل إليه.

ومن البداية بادر نيكسون بإيفاد مبعوث شخصى له إلى المنطقة. وهو وليم سكرانتوم. ليجتمع مع الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة. مبشرا بسياسة أمريكية جديدة تقوم على التوازن Even handed policy والخطوة التالية حينما أعلن فى فبراير ١٩٦٩، عن «سياسة جديدة للولايات المتحدة للامساك بزمام المبادرة. إننا لن نجلس لننتظر حدوث شىء آخر».

أما الخطوة الثالثة التى اتخذها نيكسون. فهى مبادرته فى ٦ فبراير ١٩٦٩ بالموافقة على اقتراح سابق للرئيس الفرنسى شارل ديغول بضرورة عدم انفراد الولايات المتحدة بالتصرف فى أزمة الشرق الأوسط (كما كانت تصر سياسات جونسون من قبل) ولابد أن ياتى الحل نتيجة مشاورات تعقدها الدول الأربع الكبرى (الولايات المتحدة- الاتحاد السوفياتى- فرنسا- بريطانيا). ووافق نيكسون على أن تبدأ تلك المشاورات من خلال مندوبى الدول الأربع فى مجلس الأمن. مؤكدا فى نفس الوقت تأييده الكامل لمهمة جونار يارنغ ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة.

أشكول يعرض القدوم إلى القاهرة وإعادة سيناء

بعدها بأحد عشر يوما فقط أذاع ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل تصريحات مثيرة، فرد على سؤال يقول: «الرئيس ناصر يتهم بأن هدفكم هو إسرائيل الكبرى. من النيل إلى الفرات. ماذا نستطيع قوله لإقناعه بأن الأمر ليس كذلك؟».

ورد أشكول: من الصعب أن أقول مرارا وتكرارا إننا مستعدون لمناقشة مشاكلنا مع ناصر. اننى مستعد للسفر إلى القاهرة غدا. إننى لا أريد أن أتحدث كمنتصر. إننى أريد أن أزيل من ذهنة تلك الفكرة السخيفة المضحكة عن إسرائيل الكبرى. إنه لا يستطيع أن يقيم سياسته على جملة تفوه بها أفراد لا يمثلون شيئا سوى أنفسهم. فحتى الإنجيل لا يستخدم تلك

الجملة. إن «نهر مصر» المشــار إليه في «العهد القديم» ليس هو النيل ولكنه نهر العريش. وهو مجرى طينى طوله أميال قليلة داخل سيناء. إننى أستطيع أن أضمن كلمتى لناصر بأن إسرائيل الكبرى لم تكن مطلقا هى سياستنا. إننى مستعد لمقابلته في أى مكان وأى وقت. ولن أنازع في الإجراءات. ولا في جدول الأعمال. ولا في شكل المائدة.

ثم سأل اشكول: أى تنازلات تصرون عليها في مقابل الانسحاب من الأراضى العربية؟ هل تصرون على نزع سلاح شبه جزيرة سيناء ووجود عسكرى دائم في شرم الشيخ؟.

رد أشكول: إننا لا نصر على شيء، جربونا وسوف تفاجأون بدرجة الأخذ والعطاء التى نحن مســتعدون لها. ففى شرم الشيخ يجب أن نكون في موقف «يسمح لنا» بحماية المرور إلى خليج ثيران- مينائنا الخلفى. إننا لا نستطيع الاعتماد على وعود من أطراف خارجية. ونحن لا نستطيع كبلد أن نعيش بغير معاهدة سلام. أما بالنسبة لمرتفعات الجولان. فإننا يبساطه لن نعيدها. نفس الشئ بالنسبة للقدس. هنا لا يوجد مرونة على الإطلاق.

و(حينما ســتجئ جولد مائير فيما بعد رئيسة للوزراء بعد وفاة اشكول. فإنها تكرر نفس النغمة. قائلة إنها مستعدة للذهاب إلى القاهرة فورا لو أن الرئيس جمال عبد الناصر دعاها إلى ذلك.. الخ).

سياسة العصا والجزرة

لم يكن في هذا العرض الاسرائيلى المحدد سوى إعلانه. فإسرائيل تريد بأى ثمن إخراج مصر من الصراع العربى الاسرائيلى لأن أطماعها العاجلة هى في الاراضى العربية الأخرى. إســرائيل مســتعدة للانسحاب الكامل من ســيناء. وإعطاء قطاع غزة لإدارة الأمم المتحدة. وهى لا تطلب بالمرة نزع سلاحها. والمقابل الوحيد الذى تريده هو إعلان مصر بإنهاء حالة الحرب. بمفاوضات مباشرة لو تيسر.

كان الموقــف الامريكــى من البداية يســير في نفــس الاتجاه. فمصــر. ومصر وحدها. تستطيع استرداد سيناء. وقطاع غزة. وبغير قتال. بل إن الولايات المتحدة لا ترى أن على مصر أن تعترف بإســرائيل. أو أن تجرى معها مفاوضات مباشــرة- طبقا لرسالة الرسمية ليندون جونسون إلى الرئيس اليوغوسلافى تيتو في أغسطس ١٩٦٧

ولم يكن ســبب هذا الموقف كرم مفاجئ نحو مصر. أو تعديل في الأهداف الأصلية من عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» فحرب يونيو كانت تستهدف أن نبدأ إعادة رسم

الخريطة من مصر، أما ومصر تقاوم ومصممة على الحل العسكرى وتمضى فيه متحملة كل التضحيـات، فلا بأس أن تبدأ العملية من دولة عربية أخرى.. لكى تنتهى بمصر بدلا من أن تبدأ بها، ومفتاح هذا كله هو أن تقبل مصر حلا منفصلا لمشكلة أراضيها المحتلة، وتفك ارتباطها بالقضية المحورية، وبالعالم العربى.

وطوال سنة ١٩٦٩ سيتبلور هذا فى استخدام سياستى «العصا والجزرة» مع مصر قبل أن تستقر المواقف عند نقطة جديدة مختلفة.

استئناف حرب الاستنزاف

لقد استأنفت مصر فى ٨ مارس ١٩٦٩ حرب الاستنزاف ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء فى مرحلة جديدة تعكس التطور الجديد فى الإمكانيات العسكرية والقيادات العسكرية المصرية، لقد أصبح الجيش فى معظمه من حملة المؤهلات العليا والمتوسطة، ولم تكن نوعيات الأسلحة الجديدة تحتاج إلى مستوياتهم التعليمية فقط، ولكن كل ما يرتبط بتلك الأسلحة، وفى بند واحد فقط، وهو بند السائقين اللازمين للدبابات والسيارات والعربات المدرعة، كان الجيش الجديد يحتاج إلى أربعين ألف سائق مثلا، وهؤلاء يحتاجون إلى المدربين والفنيين وكل الخدمات الأساسية الأخرى، وأصبح الجيش يمد مقاتليه بنشرة دورية عن أبعاد الموقف السياسى، ويعد لهم برامج مكثفة لتعلم اللغة العبرية، وينقل إليهم الدروس المستفاده من عمليات القتال الجارية أولا بأول وأصبح الضباط يسبقون جنودهم فى البذل والتضحية.

ففى يوم ٩ مارس ١٩٦٩ ورد إلى القاهرة خبر صاعق، ففى اليوم السابق كانت مصر قد بدأت مرحلة جديدة فى حرب الاستنزاف ضد الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء، لخمس ساعات متواصلة استمرت المدفعية المصرية من غرب قناة السويس تقصف التحصينات والتشكيلات العسكرية فى شرق القناة، تطور قالت عنه وكالات الأنباء إنه يعكس قفزة جديدة فى قدرات مصر العسكرية، والآن فى اليوم التالى، يجئ الرد الاسرائيلى المضاد بالقصف الشامل لمواقع الخط الأمامى المصرى، فى أحد تلك المواقع على حافة قناة السويس مباشرة جاءت الإصابات محددة: اثنان من الجرحى وشهيد واحد. أما الشهيد فهو الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية. تكهرب الناس جميعا، تكهربوا مرتين. مرة لأن إرادة القتال تزداد قوة وصلابة فى لهيب المواجهة.. نضرب..

فننضــرب.. فنضــرب من جديــد، ومرة لأن أكــبر رأس فى العســكرية المحترفة المصرية الجديدة استشــهد بين جنوده، وفى المواقع الأماميــة من الجبهة حيث كان «فى الخندق الأول فــى النســق الأول» لقوات الجيش الثانى فى مواقعهــا الغربية من الإسماعيلية ضمن مروره اليومى على القوات المصرية بامتداد خط الجبهة كله.

لم يكن عبد المنعم رياض منذ بدايته ضابطا عاديا، كان عاشــقا للعسكرية المصرية مؤمنا بأنــه لا حيــاة لمصر بغير جيش قوى يحميها، والجيش القوى الذى يســتعد لحرب قادمة وليس لحرب سابقة، يعنى التبحر فى العلم العسكرى، فى المعرفة، فى المزيد من المعرفة، يعنــى أن يطلب قائد من جنوده بقدر ما يعطيه لهم، يعنى أن يصبح القائد قدوة بســلوكه وليــس بكلماته، يعنى أن نتعلم دائما، حتى من العدو، يعنى ألا تقول لجنودك، تقدموا.. ولكن تقول لهم اتبعونى. يعنى أن يتفاعل القائد مع سلاحه وجنوده ومرؤوسيه، يعنى أن يؤمن بأن مصر ليست ماضيا انتهى أمره، ولكنها مستقبل نشترك فى صنعه.

وعبــد المنعم ريــاض كان أول دفعته فى التخــرج وكان تخصصه الدفــاع الجوى وكان يــزداد تواضعا كلما ارتفعت رتبته، وفى إحــدى المرات مثلا عاد العقيد محمد على فهمى (أصبح مشيرا فيما بعد ورئيسا لأركان الحرب) من بعثة تدريبية فاتصل به اللواء- وقتها- عبد المنعم رياض يســأله: عندك وقت أشــوفك لأعرف منك الجديد الذى خرجت به؟ رد عليه محمد على فهمى بود ومحبة: دقائق سيادة اللواء، وأكون فى مكتبك، لكن عبد المنعم رياض قاطعه قائلا: أنا الذى ســأجئ إليك يا أخى فى مكتبك لأتعلم، فالمعرفة ليس فيها عقيد ولواء. فيها معلم ومتعلم وأنا يا محمد أريد أن أتعلم.

تلــك- وغيرهــا كثير- حكايــات عرفناها عن عبد المنعم رياض فيمــا بعد، أما فى تلك اللحظة- لحظة الخبر الصاعق- فكل ما اكتشفناه، وبأثر رجعى، هو أن عبد المنعم رياض بصفته رئيس أركان حرب القوات المســلحة المصرية الجديدة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ كان يقوم بالعشــرات من الزيارات المفاجئة للضباط والجنود فى جبهة القنال، زيارات ســرية لا يعلن عنها فى حينها ولا بعدها، الآن، فى صدفة درامية، نكتشف أن الفريق عبد المنعم رياض استشــهد وضباطه فى الخط الأمامى على حافة قناة السويس مباشرة بينما هو يتابع على الطبيعة النتائج الفعلية ليوم جديد من حرب الاستنزاف.

فى المكاتب والبيوت، فى الأتوبيسات والشوارع، فى القرى والمدن اهتز المصريون جميعا بنوعين من المشــاعر متلازمين فى خط واحد، هناك أولا الشــعور بالذنب. لقد قسونا على

العســكريين كثيرا وطويلا بعد هزيمة يونيو. لكن عبد المنعم رياض باستشــهاده هذا أعاد الاعتبار إلى العســكريين جميعا، هذا النوع الجديد من العســكريين الذين يقع على أكتافهم إعادة الاعتبار للعسكرية المصرية وإعادة بناء القوات المسلحة.

أما الشعور الآخر فهو. الغضب، أقصى درجات الغضب، فى هذه المرة أصبح الغضب قوة إيجابية تماما، كنا نصر منذ يونيو ١٩٦٧ على أن الانتصار الاسرائيلى مجرد صفحة فى كتاب لكنه ليس آخر كتاب، وإســرائيل تريد من انتصارها أن يصبح النهاية، نهاية مصر أو حتى بداية النهاية، الآن يصر المصريون على أن استشهاد عبد المنعم رياض هو نهاية البداية، نهاية النظر إلى الخلف وبداية التطلع إلى الأمام، التطلع إلى تحرير الأرض. كل الأرض العربية.

ربمــا تكون هذه قفزة ســريع إلى الأمام نعود بعدها، ولأن الحــدث لم يكن مصريا وإنما عربيا، فعندما التقيت بالعماد أول (الفريق) مصطفى طلاس وزير الدفاع السورى فى مكتبه وجدت صورة عبد المنعم رياض تفاجئنى فى برواز خاص يضعه مصطفى طلاس على مكتبه، وعندما ســألته قال: هناك ســببان، احدهما موضوعى والأخر شخصى، أما الموضوعى فهو أن استشــهاد عبد المنعم رياض لم يكن واقعة مصرية، هو واقعة عربية، ففى حالة البلبلة والانهزامية واليأس التى حاولت إســرائيل فرضها علينا بعد ١٩٦٧ كان عبد المنعم رياض شعاعا مضيئا فى الظلام، هذا عسكرى محترف. ومتبحر فى العلم العسكرى، يتابع القتال من الخندق الأمامى وهو يعرف مسبقا أنه فى بؤرة الخطر. أقصى درجات الخطر.

مثل هذا السلوك لا يفعله إلا شخص مؤمن بجنوده وضباطه. مؤمن بجيشه، ببلده. بعروبته وبأن إرادة النصر يجب أن تبدأ من الرأس. ولو أخذتك الآن فجأة إلى مكتب رئيس أركان حرب الجيش السورى. أو حتى فى أية كلية عسكرية فى بلد عربى يحترم نفسه، فسوف تجد صورة عبد المنعم رياض باعتباره العملة الذهبية التى يقاس عليها الأداء العسكرى المحترف.

أما السبب الشخصى- مازلنا مع كلمات مصطفى طلاس- فهو أننى شاركت فى جنازة عبد المنعم رياض مبعوثا من سوريا. لقد وصلت إلى القاهرة متوقعا أن تكون جنازة عسكرية تقليدية أعود بعدها فى المساء إلى دمشق.

فــى القاهرة وجدت أن الرئيس جمال عبد الناصر قرر أن تصبح جنازة عبد المنعم رياض عســكرية وشــعبية معا، أنه هو نفسه فى المقدمة. ومع أننى عشت فى القاهرة من قبل إلا إننى فى ذلك اليوم فوجئت بأن شــوارع القاهرة وميادينها اتســعت فجأة لكى تضم مئات الآلاف من المصريين خرجوا بعفوية يشاركون فى الجنازة.

فى إحدى النقاط ذاب عبد الناصر من بيننا وسط الناس وهم جميعا يتدفقون إليه . كل واحد حريص على الاقتراب منه ليقول له : البقية فى حياتك يا ريس. ولا يهمك يا ريس، الثأر يا ريس، معك ثلاثين مليون عبد المنعم رياض ياريس.. الخ.

توقف مصطفى طلاس لحظة قبل أن يضيف: تطلعت حولى فوجدت أن طاقم الحراسة الخاص بالرئيس عبد الناصر ذاب هو الآخر وسط الناس، تطلعت من جديد فوجدت رؤساء أركان الحرب القادمين من الدول العربية للمشاركة تحولوا هم أيضا إلى مواطنين يغمرهم الانفعال.. مددت كلتا يدى يمينا وشمالا لأقول لهم، فلتتشابك أيدينا معا لتصبح طاقم حراسة للرئيس. نحيط بالرئيس. نحمى الرئيس.

فى المساء ذهبنا إلى الرئيس جمال عبد الناصر نستأذنه فى العودة إلى بلادنا واقتربت من الرئيس، لأقول له : سيادة الرئيس.. هذا التفاعل الذى شاهدناه اليوم من الشعب المصرى هو أكبر عزاء لك فى استشهاد عبد المنعم رياض، قاطعنى عبد الناصر قائلا: لا يا طلاس، أنا ذهبت إلى الجنازة لمشاركة الناس وليس لتقبل العزاء فى رياض، العزاء الوحيد عندى، وعند عبد المنعم رياض، وعند كل العسكريين المصريين، هو تحرير الأرض، كل الأرض. لا أتكلم هنا عن سيناء فأمرها محسوم. أتكلم عن القدس. قبل الجولان. هى القدس يا طلاس. قالها عبد الناصر بوجه من الجرانيت وعينين من النيران.. وهكذا تحولت جنازة عبد المنعم رياض فى القاهرة. التى اشترك فيها الرئيس جمال عبد الناصر وممثلين عن الدول العربى، إلى مظاهرة وطنية عارمة وغاضبة اجتاحت العالم العربى.. تصر على الثأر رغم كل التضحيات.

نعود.. فطوال سنة ١٩٦٩ أصبحت هناك مشاورات دولية بين جميع الأطراف. فالولايات المتحدة من جانبها تدير حوارا ثنائيا مباشرة مع الاتحاد السوفيتى. وحوارا آخر مع الاتحاد السوفيتى وفرنسا وبريطانيا. وحوارا منقطعا مع مصر. إن إسرائيل تريد تحييد مصر، ومصر تريد تحييد الولايات المتحدة، والولايات المتحدة تريد تحييد الاتحاد السوفياتى. ولكن وسط تلك الشبكات المتقطعة من الحوارات. كان الحوار الأهم الذى يفرض نفسه على كل الحوارات الأخرى هو حوار المدافع فى جبهة قناة السويس.

مذكرة رابين

إن إسحاق رابين سفير إسرائيل بواشنطن يكتب إلى حكومته فى إسرائيل أن حرب الاستنزاف التى يشنها المصريون عبر قناة السويس لها تأثير مباشر فى المباحثات السوفيتية الأمريكية..

وألح السـفير على حكومته بضرورة العمل على «سـحق» رغبة مصر فى المضى فى حرب الاسـتنزاف، فطالما اسـتمرت تلك الحرب، فـإن الولايات المتحدة تـرى أن مركزها فى الشـرق الأوسـط يتدهور بشـكل ثابت ومنتظم. وكلما زاد التآكل أصبح الأمريكيون مبالين إلى- ومقتنعـين بـ- وقف خسـائرهم فى المنطقة عن طريق التوصـل إلى تفاهم مع الاتحاد السـوفيتى، فطالما أن هذا الاستقطاب مستمر، حيث الاتحاد السوفيتى يتبنى مطالب مصر والعرب، والولايات المتحدة تتبنى مطالب إسـرائيل، والمصريون مستمرون فى القتال، فإن النتيجـة هى تصاعد العداء ضد المصالح الأمريكية فى العالم العربى، وفى مايو ١٩٦٩ وقع انقلاب عسـكرى فى السـودان أعلن من الدقيقة الأولى تضامنه الكامل مع مصر، وسـرعان ما سـيتبعه انقلاب مماثل فى ليبيا، والاتحاد السـوفيتى يحقق مكاسب سياسية وإعلامية بامتداد المنطقة بعد أن كان أحد أهداف حرب يونيو هو إخراجه بالكامل.. الخ.

وهكـذا، ففى أوائل يوليو ١٩٦٩ قررت الولايات المتحدة إيفاد جوزيف سيسـكو وكيل وزارة الخارجية إلى موسكو لإجراء مشاورات جديدة مع السوفيات.

وكانت علاقات السـفير الاسرائيلى إسحاق رابين مع كبار المسئولين فى واشنطن تجرى على مستويين، فهناك مستوى رسمى تسجل فيه المواقف فى محاضر مكتوبة، ولكن هناك مستوى أخر غير رسمى أكثر صراحة مما تسمح به المحاضر المكتوبة المسجلة.

سيسكو يتحدث بصراحة

وخلال أحد تلك الحوارات غير الرسمية، وأثناء تناولهما الغداء معا قبل سفر سيسكو إلى موسكو، قال وكيل وزارة الخارجية الأمريكى للسفير الاسرائيلى رابين:- إن مصالحنا فى الشرق الأوسط لا تتركز على إسرائيل وحدها، إن التزامنا المعنوى والعملى نحو إسرائيل لا يمتد بأى شـكل إلى شـىء تريد إسرائيل أن تفعله، ودعنى أخبرك بصراحة: إذا أصبحت الصداقة مع إسرائيل هى كل ما يتبقى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فإن هذا سيصبح نكسـة وكارثة للسياسـة الأمريكية، وعلينا أن نبحث عن حل سياسى لأنه الشىء الوحيد الذى يؤدى إلى تأمين مصالحنا فى المنطقة.

وحاول السـفير رابين أن يشرح للمسئول الأمريكى أنه من وجهة النظر الإسرائيلية لا يوجد تناقـض بين المصالح بعضهـا وبعض «- يقصد صدور بيانات عربيـة بإنهاء حالة الحرب يتم إيداعهـا فى الأمم المتحدة- ولكن إسـرائيل تريد التوصـل إلى اتفاق ملزم يتحمل فيه الأطراف

التزامات متبادلة، ولكى يدوم السلام لا بد أن يكون له مضمون عملى قائم على الحدود المفتوحة وحرية تنقل الأشخاص والسلع وعلاقات دبلوماسية بين إسرائيل والدول العربية المعنية».

وقاطعه جوزف سيسكو قائلا: «إن الولايات المتحدة لن تود ما هو أفضل من ذلك، ولكن، طالما أن العرب يرفضون مثل هذه الإمكانية برمتها فيظل السؤال هو: ما هو الحد الأدنى الضرورى لوضع نهاية للصراع؟ إننا لا نستطيع إرغام المصريين على أن يحبوكم، وبقدر ما يعنينا الأمر فإن أى حل أقل من هذا النوع من السلام الذى تصفه، سيكون كافيا، فبالنظر إلى الظروف القائمة، يجب علينا أن نكون واقعيين».

ولم تكن هذه «الظروف القائمة» التى يقصدها المسئول الأمريكى سوى حرب الاستنزاف المصرية.

إنزال إسرائيلى فى «الزعفرانة»

وهكذا بدأ السفير الإسرائيلى فى واشنطن يمطر حكومته فى إسرائيل بضرورة توجيه ضربات ساخنة إلى المصريين ترغمهم على وقف حرب الاستنزاف، وخصوصا من خلال عمليات عسكرية خاصة يمكن استخدامها دعائيا على نطاق واسع لإحباط الإصرار المصرى على المضى فى الحرب.

وفى هذا السياق مثلا فإن إسرائيل قامت فى فجر التاسع من سبتمبر ١٩٦٩ «بإنزال مجموعة سرية مختلطة بتسع دبابات برمائية على شاطئ خليج السويس الغربى قرب نقطة حدود الزعفرانة ١٠٠ كيلو متر من جنوب السويس، وقضى على أفراد نقطة الحدود، خمسة أفراد، وقطع طريق السويس/ الغردقة المار بحذاء الشاطئ وخط التليفون الهوائى، ولعدم وجود قوات فى هذه المنطقة أخذ العدو يصور فيلما لقواته الهابطة على الشاطئ، واستمر هكذا ٦ ساعات، وعادت قواته من حيث أتت». وخلال ساعات ستروج إسرائيل لتلك العملية المسرحية فى العالم كله بعد أن أطلقت عليها اسم «عملية غزو مصر».

وفى ذلك اليوم كان جمال عبد الناصر فى زيارة سرية للجبهة حتى يحضر مشروعا تدريبيا للفرقة ٢١ المدرعة المشكلة حديثا. وفى حوالى الساعة العاشرة صباحا جاء اللواء عبد الغنى الجمسى مدير الاستطلاع إلى موقع التدريب فى الكيلو ٥٢ بطريق القاهرة السويس الصحراوى، وابلغ الرئيس جمال عبد الناصر بنزول مجموعة سرية برمائية إسرائيلية فى الزعفرانة، ولم يكن لديه معلومات أخرى، وبعد التداول مع الفريق محمد فوزى وزير

الحربية واللواء احمد إسماعيل رئيس هيئة أركان الحرب أمر الرئيس بتكليف اللواء أحمد إسماعيل ومستشارة السوفياتى بالتوجه فورا إلى الزعفرانة رأسا لاستطلاع الموقف وحسمه، مع إخطاره بما يجرى على وجه السرعة.

إحالة رئيس الأركان للتقاعد

ولم يستطع عبد الناصر مواصلة حضور المشروع التدريبى فعاد إلى القاهرة فى الثانية والنصف ظهرا، وفى السادسة مساء علم جمال عبد الناصر بأن اللواء أحمد إسماعيل رئيس الأركان كان يتابع ما يحدث فى الزعفرانة من مكتبه بالقاهرة، بينما توجه المستشار السوفياتى مباشرة من الكيلو ٥٢ إلى الزعفرانة لكى يعود فى السادسة مساء ويقدم تقريرا إلى وزير الحربية، وشعر عبد الناصر بغضب شديد فقال لوزير الحربية : هو المستشار الروسى ينفذ أوامرى ورئيس الأركان يفضل البقاء فى المكتب؟.. إن رئيس الأركان لا يصلح للاستمرار فى تحمل المسؤولية.. شوف لك واحد آخر.

وفى تلك الليلة صدر قرار بإحالة أحمد إسماعيل إلى المعاش. بينما كان جمال عبد الناصر يغلى من الغضب وهو يتابع استغلال إسرائيل الدعائى حول العالم لتلك العملية، وفجأة شعر «وهو جالس خلف مكتبه وكأن خنجرا حادا يغوص فى صدره نافذا من ظهره متوسطا مكانا بين الرئتين. وعندما استدعى الأطباء قرر الجميع أن عبد الناصر يعانى من نوبة قلبية حادة وأن عليه أن يستريح تماما وأن يبتعد عن العمل. بل ويبقى فى فراشة سبعة أسابيع كاملة».

وفى القاهرة تم تكتم إصابة عبد الناصر بتلك النوبة القلبية الأولى، ونشر أنه مصاب بالإنفلوانزا، ولم يسمح له الأطباء بالعمل إلا فى أول نوفمبر بعد منعه نهائيا من التدخين.

أما فى إسرائيل فقد كانت الاستجابة مستمرة لنصائح رابين المتلاحقة من واشنطن، خصوصا وأن إسرائيل تسلمت أول دفعة من طائرات الفانتوم قبل أيام.

الحق والقوة

فى الجانب العسكرى كان هناك التفكير منصبا من «رجال اليوم السابع» على خط بارليف : الذى أقامته إسرائيل على الجانب الأخر لقناة السويس. ولكى يتم العبور بالقوات إلى سيناء كان لابد من البحث عن حلول.. إنه يشبه عمارة من سبع طوابق.. مطلوب أن

يسوى بالأرض.. كيف يحدث ذلك، وبأى نوع من المتفجرات؟ وخلال أى مهلة زمنية؟

إن هذا الساتر الرملى ليس عمارة ولا يضم أى فراغات ولا حتى أعمدة أو سقف بحيث لو جرى نسف أسفلها ينهار عاليها.. أبدا.. هو مكبوس كبسا بالرمال والأتربة.. وهناك طائرات فوق الرؤوس لمنع الاقتراب منه. وقذائف مدفعية من بعيد مسلطة على كل من يقترب منه.. والفشل فى إنجاز الهدف هذا لا يعنى فقط موت كل من يفكر فى العبور ولكنه يعنى أيضا إصابة القوات المعدة للعبور بالشلل.. ويعنى ببساطة استمرار إسرائيل فى احتلال الأرض المصرية.

تلك كانت واحدة من مئات المعضلات التى يواجهها المخططون المصريون من القوات المصرية بعد الهزيمة المروعة فى ١٩٦٧، لقد أصبحت قناة السويس مانعا مائيا يفصل بين الاحتلال الإسرائيلى وبين القوات المصرية الجديدة التى يتم إعادة بنائها بتضحيات جسيمة ودماء من الشهداء وإرادة فولاذية استعدادا ليوم العبور ومحو الهزيمة واسترداد الأرض.

قناة السويس طولها ١٦٠ كيلو متر وبعرض ٢٠٠ متر وعلى مسافات متباعدة أقامت إسرائيل سلسلة من التحصينات القوية على الضفة الشرقية لقناة السويس، وإذا كانت حرب الاستنزاف المصرية قد دمرت «خط بارليف» هذا فى معظمه، إلا أن إسرائيل سرعان ما أعادت بناءه.

لكن فيما بين تلك النقاط الحصينة أقامت إسرائيل شيئا أخر، فعلى حافة القناة مباشرة أقامت حائطا مرتفعا من الرمال بارتفاع عشرين مترا كوقاية إضافية. وقاية ضد القناصين المصريين على الضفة الغربية. والأهم من ذلك وقاية ضد أى محاولة مصرية للعبور إلى الشرق بمدرعات ودبابات.. الأفراد يمكن التعامل معهم لكن العبور بمدرعات ودبابات.. بدا وكأنه مستحيل.

لكن «رجال اليوم السابع» كانوا قد شطبوا من قاموسهم مبكرا كلمة مستحيل. ومع أن حرب الاستنزاف كانت لها جبهة قتال محددة هى خط قناة السويس إلا أن المواجهة سرعان ما أصبح لها بمرور الوقت جبهات شتى. هناك مثلا غارات إسرائيلية فى العمق المصرى بهدف ترويع المدنيين فى قراهم ومدنهم. هناك أيضا توحش يومى ضد كل محاولة تتقدم بها مصر لإعادة بناء جيشها.

لكن قناة السويس ذاتها أصبحت عقبة كبرى. فى نهاية المطاف هدف مصر من كل ما تفعله هو إعداد قواتها المسلحة للحظة عبور القناة إلى الشرق بدءا من تحرير الأرض..

فى تلك اللحظة ليس المطلوب عبور أفراد أو مقاتلين فقط ولكن أيضا عبور مدرعات ومدفعية ثقيلة ودبابات.. إذن المطلوب إقامة كبارٍ- جسـور مائية فيما بين ضفتى قناة السـويس- ثقيلـة تتحمل عبور مركبات ثقيلة. وطوال عام ١٩٦٩ بدأت مصر سـرا فى إجراء تجارب لإقامة هذا النوع من الكبارى، وحتى تكون التجارب أقرب إلى الطبيعة فقد اختيرت مناطق محـددة على نهر النيل لإجراء التجارب فيها للوصول إلى الإجابات المطلوبة: أى نوع من الكبـارى نحتاج إليه؟ كم من الوقت يسـتغرق تركيبه؟ كم معدل الحمولات التى يمكن أن ينقلها خلال الساعة؟.. الخ.

لكن هذا ليس كل شىء.. فبافتراض أن الكوبرى أقيم والدبابات عبرت فوقه فإنها سوف تجد على الجانب الأخر حائطا سميكا أصم مرتفعا من الرمال تغوص فيه وتدفن داخله إن لم يكـن بفعل القذائف الإسـرائيلية فهو بفعل الرمـال ذاتها، وهذا هو الهدف الأصلى من إقامة هذا الحائط الرملى السميك الكبير المرتفع بامتداد قناة السويس.. كيف يمكن إذن فتح ثغرة فى هذا الحائط الرملى بعرض يكفى لعبور الدبابات والمدافع الثقيلة؟

أصبح هذا السـؤال شديد الإلحاح والسـرية معا، الذى يواجه «رجال اليوم السابع» لقد جربوا الديناميت والمواد الأخرى شـديدة الانفجار والتجريف اليدوى والقذف المدفعى لكن بلا حل يناسب قصر الوقت المتاح لحظة العبور المستمر لقذائف العدو.

فى النهاية خرجت فكرة: لماذا لا نجرب القذف بالمياه؟

هى فكرة استثنائية بقدر بساطتها. لكن الفكرة نشأت من مشروع أخر بدا للعالم فى أوله مشـروعا اسـتثنائيا قبل أن يحوله المصريون إلى حقيقة.. وخلال شـهر يوليو ١٩٦٩ تلقى المهندس صدقى سـليمان، رجل السـد العالى الشهير.. تعليمات من جمال عبد الناصر بأن ينسـق فورا مع محمد فـوزى وزير الحربية لعمل تجارب فعليـة اختبارا للفكرة فى أرض الواقع. واختير موقع محدد فى منطقة اسمها «الخطاطبة» لكى يقيم فيه سـلاح المهندسين بالقوات المسـلحة ما يشبه خط بارليف والساتر الرملى فى سيناء، وجئ بالمعدات المطلوبة من أسـوان على وجه السـرعة وجلس مندوبوا سلاح المهندسين ووزارتى الرى والسد العالى يتابعون التجربة الأولى.

نعم الفكرة مدهشة وتنفيذها استغرق ساعة وربما من أجل عمل فتحة كافية تسمح بمرور دبابة. ولكن التعليمات جاءت سـريعة: كرروا التجربة باسـتخدام كبارٍ حقيقية على نهر النيل ومدرعات ودبابات حقيقية.

هكــذا تكـــررت التجربة وكان النجاح أكــبر، والوقت جرى اختصـــاره إلى ٥٥ دقيقة. لكن يجب اســتبدال الموتــورات الضخمة ومولداتها الكهربائية بنــوع خاص من الطلمبات الكهربائية يكون أخف وزنا وأســهل نقلا عبر قناة الســويس، بعد بحث ودراسة فى نفس الموقع ومن خلال خبرات مهندســى الرى والســد العالى تبين أن تلك الطلمبات توجد فى أحد مصدرين: ألمانيا (الغربية) أو بريطانيا وبشرط عدم الإيحاء مطلقا بالمهمة الحقيقية لتلك الطلمبات. والآن يريد «رجال اليوم الســابع» اســتخدامها فى هدف أخر يحولها إلى مدافع مائية، أو قذائف مائية تســحب المياه من قناة الســويس ذاتها لكى تســلطها على الحائط الرملى المرتفع فى الضفة الشــرقية لقناة السويس فتذوب الرمال أمام قوة الدفع وتتساقط إلى قناة السويس.

مــن يومهــا أصبحت فكرة مدافــع المياه هذه واحدة من أســرار الدولــة العليا المحظور تناولها أو الحديث عنها إلا فى الدائرة الضيقة تماما بين رئيس الجمهورية ومدير ســلاح المهندســين، إن تجارب إقامة كبارى العبور على نهر النيل اســتمرت. لكن فكرة «مدافع المياه» اسكت هس، الحرب أسرار وأرواح المقاتلين أمانة.

□□□

الفصل الحادى عشر

التوحش الإسرائيلى

- قنابل إسرائيلية على عتبات المصريين بمليون استرلينى.. يوميا
- رابين يعترف: اعتبرونى فى إسرائيل مجنونا لكن تأثير حرب الاستنزاف المصرية أشعرنى بالرعب
- كيسنجر يطلب من إسرائيل تدمير الجيش المصرى بالكامل
- الطيران الإسرائيلى يتحول إلى مدفعية طائرة لإسقاط عبد الناصر
- نيكسون وروجرز يفجران قنبلة سياسية: على إسرائيل أن تنسحب من سيناء وغزة والضفة الغربية

في ١٩ سبتمبر ١٩٦٩ بعث إسحاق رابين ببرقية سرية إلى جولدا مائير رئيسة الوزراء قال لها فيها: «إن مجلس الأمن القومي (الأمريكي) يدرس تأثير العمليات العسكرية الإسرائيلية ضد مصر، ويعطى الأمريكيين اهتماما بالغا لتأثيرها المحتمل في زعزعة استقرار نظام جمال عبد الناصر، لقد بدأت تظهر الخطوط التالية من التفكير: إن استمرار العمليات العسكرية الإسرائيلية (ضد ناصر) بما في ذلك الغارات الجوية من المرجح أن يؤدى إلى نتائج بعيدة المدى، فسوف يؤدى هذا إلى إضعاف مكانة عبد الناصر، وهذا بدوره سيؤدى إلى إضعاف مركز السوفيات في المنطقة، وبعض المصادر أخبرتني بأن عملياتنا العسكرية هي أكثر نسمات الهواء تشجيعا التي تمتعت بها الإدارة الأمريكية مؤخرا».

ولم تكن «بعض المصادر» التي يشير إليها إسحاق رابين في برقيته إلى رئيسه سوى هنري كيسنجر مستشار الرئيس نيكسون للأمن القومي، والذي كان يقدم للسفير الإسرائيلي نصائحه غير الرسمية أولا بأول.

وكانت وحدات الكوماندوز المصرية قد بدأت منذ منتصف إبريل ١٩٦٩ تقوم بانتظام بعبور قناة السويس والهجوم على المواقع الإسرائيلية.. وتزايدت خسائر إسرائيل بشكل مزعج خلال تلك الفترة، وفي يوليو ١٩٦٩ قرر الإسرائيليون إدخال سلاحهم الجوي في المعركة، فانطلقت ميزة المبادرة إلى إسرائيل، وأصبحت حرب الاستنزاف هي حرب استنزاف مضاد.

وكانت الحكومة الإسرائيلية على حد تعبير غولدا مائير رئيسة الوزراء، متأكدة من أن كل هذا يجرى استعدادا للمرحلة السابقة مباشرة على الهجوم المصري الشامل لتحرير سيناء.. وكما سجلت غولدا مائير فيما بعد فإن «الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تمنع الحرب الشاملة التي أعلنها ناصر نفسه ليلا ونهارا باعتبارها الهدف النهائي لحرب الاستنزاف، وكانت هي أن نرد الضرب، ونضرب بقسوة المنشآت العسكرية المصرية، وبقصف الأهداف العسكرية المصرية، وليس فقط في خط وقف إطلاق النار، ولكن داخل مصر ذاتها- وحينما يكون ذلك ضروريا- أن نصل برسالتنا إلى عتبات أبواب كل المصريين من خلال الإغارة في عمق الأراضي المصرية».. «ومن ثم فقد بدأنا، في تململ، قصفنا الإستراتيجي الانتقامي في العمق، مستخدمين طائراتنا كمدفعية طائرة، وواثقين من أن

الشعب المصرى بعد أن يسمع تلك الطائرات فوق المطار العسكرى قرب القاهرة. سوف يفهم أنهم لن يستطيعوا الحصول على النقيضين: الحرب لنا.. والسلام لأنفسهم»!

وتلقت غولدا مائير برقية سرية عاجلة أخرى من سفيرها فى واشنطون يقول لها فيها: «إن على المرء أن يكون أعمى وأصم وأبكم إذا لم يحس إلى أى درجة تحبذ الإدارة (الأمريكية) عملياتنا العسكرية (ضد مصر). وهناك احتمال متزايد بأن تصبح الولايات المتحدة مهتمة بتصعيد نشاطها العسكرى الذى يستهدف إضعاف مكانة (جمال) عبد الناصر، وبعض الدوائر تفكر فى إمكانية قيام إسرائيل بتدمير الجيش المصرى بالكامل من خلال هجوم واسع النطاق، وبالتأكيد لن يفزع أحد من مثل هذه الإمكانية، وفى اللحظة الحالية لم يتم التعبير عن هذه الأفكار بشكل رسمى.

ولكن لدى انطباع بأنه مع تطور الظروف فإن الولايات المتحدة سوف تأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار الجاد، وبناء على ذلك فإن الرغبة فى إمدادنا بأسلحة إضافية تعتمد على الإسراع بتصعيد نشاطنا العسكرى ضد مصر بأكثر مما نعتمد على تقليله».

ومرة أخرى فإن «بعض الدوائر» الأمريكية التى يشير إليها إسحاق رابين فى برقيته لم تكن سوى هنرى كيسنجر- الذى يحث إسرائيل بشكل منتظم على شن «هجوم واسع النطاق» يستهدف «تدمير الجيش المصرى» بالكامل.

الخارجية الأمريكية تتحفظ

وبالطبع لم تكن إسرائيل من البداية تريد أكثر من ذلك.. لو استطاعت. وبالطبع فشلت فى تحقيق هذا الهدف، بل إنه برغم غارتها الجوية ولجوئها إلى حرب استنزاف مضادة وضرب المدنيين فى العمق المصرى بوحشية لإحباط إصرار المصريين على القتال، فإن الجيش المصرى ليس مستمرا فقط فى حرب الاستنزاف، ولكنه يزداد إصرارا وضراوة كل يوم، برغم كل التضحيات، ففى أواخر تلك السنة سوف يصبح ما تلقيه إسرائيل على الأهداف المصرية من القنابل يوميا حسب تقرير الخبراء العسكريين ما قيمته مليون جنيه استرلينى. وجزء كبير منها يتم إلقاؤه على «عتبات كل المصريين» على حد تعبير جولدا مائير.. دون جدوى.

وإسرائيل لا تستطيع من البداية التحرك بغير إشارات أمريكية محددة. لكن السفير الإسرائيلى فى واشنطن يرى إشارات متناقضة، فالإشارات التى يلمح بها هنرى كيسنجر

بشكل منتظم، ولكن غير رسمى، هى استحقوا المصريين حتى ترغموهم على وقف حرب الاستنزاف، لكن هناك إشارات أخرى من وزارة الخارجية الأمريكية هى أن هناك خطاً تفترق عنده مصالح الولايات المتحدة عن مصلحة إسرائيل، وفى الظروف العادية لن يظهر هذا الافتراق، ولكن فى ظروف ملتهبة تخلقها حرب الاستنزاف المصرية. وتضامن من الرأى العام فى العالم العربى، وثورة جديدة فى السودان منذ ٢٥ مايو تتجه إلى مصر. وثورة أخرى فى ليبيا تسقط النظام القائم الموالى للغرب وتتجه إلى مصر وتطلب إغلاق القاعدة العسكرية الأمريكية هناك فورا، وتقلص متزايد للنفوذ الأمريكى لدى النظم التى بقيت تتعامل معه على استحياء، وتنامى معاكس للنفوذ السوفياتى، فإن الحسابات تختلف، إن إسرائيل ستظل تستمع فى واشنطن إلى كلمات معسولة، ولكن يجب عليها فى النهاية أن تمتثل.

رسالة من روجرز

وفى ٩ نوفمبر ١٩٦٩ تلقت مصر رسميا من وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكى عرضا أمريكيا جديدا، ما يزال يتحدث أساسا عن الإنسحاب الإسرائيلى الكامل من سيناء وحدها، ولكنه يضيف الآن فكرة وجود جدول زمنى للتنفيذ وترتيبات آمنة بالنسبة لقطاع غزة، وشروطا للتسوية العادلة للاجئين الفلسطينيين يتم الاتفاق عليها فى اتفاق نهائى بين الأردن وإسرائيل. وهذا المشروع الأمريكى الجديد. فى حالة موافقة مصر عليه. سيتم تسجيله كوثيقة تقوم كل من مصر وإسرائيل بإيداعها فى الأمم المتحدة.

ولكن روجرز فى رسالته التى تبلغ محمود رياض بالمشروع يقول له: «إننى أعرف أنك مهتم بالطريقة التى ستأخذ فيها فى الاعتبار الجوانب الأخرى من التسوية العربية الشاملة، وإننى أستطيع أن أؤكد لك أنه ليست لدينا نية لمحاولة فصل الجانب الخاص بمصر عن الأجزاء الأخرى، فنحن مثلكم نرى التسوية باعتبارها تسوية كلية لا تتجزأ».

وجاء رد مصر بعدها بأسبوع لا يحتمل رفضا.. ولا قبولا، فقط: ما تزال مصر فى انتظار الموقف الأمريكى المحدد بالنسبة للأراضى العربية المحتلة الأخرى.

وكلما اشتمت إسرائيل رائحة موقف امريكى يتبلور داخل الإدارة، كانت تسرع على الفور الى استشارة ممثلها الخاص داخل الإدارة- هنرى كيسنجر- ومن خلاله عرفت إسرائيل بان الولايات المتحدة أخطرت الاتحاد السوفياتى مقدما بالمشروع الخاص بمصر.

رابين يلح

وبعث إســحاق رابين فى ٢٥ أكتوبر برقية جديدة إلى حكومته يكرر فيها إلحاحه على «تغير مســار الحرب، وركــزت على أن أهدافنا لا يمكن تحقيقها مــن خلال تقييد قصفنا المضاد لمنطقة قناة السويس. إن علينا أن نقوم بغارات جوية تخترق عمق مصر (أكثر وأكثر) ونضــرب الأهداف العســكرية فى قلب مصر. فهذه هى الطريقــة الوحيدة لإغراء المصريين بوقف الحرب. أكثر من ذلك فإن قيامنا بتوجيه ضربة قاصمة ضد جمال عبد الناصر سوف يســاعد مكانة أميركا فى الشرق الأوســط على أن تطفو من جديد. ومن ثم يوقف تراجعها فى المباحثات مع الاتحاد السوفيت.

ويقول إســحاق رابين أيضا: إنهم فى إســرائيل اعتبروا أننى على وشك أن أفقد عقلى، إننى لم أكن صقرا، ومع هذا فها أنذا أطالب بشن هجمات على أهداف تقع فى عمق مصر. ولكــن اقتراحاتى هذه لم يكن لها أى علاقــة بكونى صقرا، فقط.. كنت أرى إلى أين تقود حرب الاستنزاف (المصرية) أميركا.. وشعرت بالرعب.

ولم تكن الحكومة الإسرائيلية فى داخلها بأقل شعورا بالرعب بسبب حرب الاستنزاف من ســفيرها فى واشــنطون، إن أنباء الهجوم الشــامل للقوات المسلحة المصرية لا يبدو أنه اكتمل بعد، وســتظل هناك دائما ثغرات فى نظام الدفاع الجوى المصرى تستطيع إسرائيل من خلالها تصعيد غارتها فى عمق مصر، لكن المشكلة هى فى النتائج السياسية التى يمكن أن تترتب على ذلك. فمصر لا يبدو عليها أنها ســتذعن مطلقا مهما صعدت إســرائيل من حرب الاستنزاف المضاد، وبالتالى سيضطر الاتحاد السوفيتى إلى إمداد مصر بأسلحة جديدة تؤدى إلى تصعيد مماثل، وهذا بدوره ســيضاعف من تدهور المصالح الأمريكية فى الشــرق الأوسط، ما يجعل الولايات المتحدة مضطرة إلى التبكير بمواجهة لحظة «الاختبار الصعب» بــين مصالحها وبين دعم الغزوة الإســرائيلية فى المنطقة، وهــذا العامل بمفرده كان كفيلا بجعل الحكومة الإسرائيلية منقسمة على نفسها، وعليها أن تختار بين نوعيين من الرعب: حرب الاستنزاف المصرية.. واحتمالات التراجع الأمريكى.

خطة روجرز

وفى ٩ سبتمبر ١٩٦٩ جاءت قنبلة سياسية. أو «صاعقة» على حد تعبير إسحاق رابين. كانت إســرائيل تحس بوادرها منذ ســتة أســابيع على الأقل.. لقد خرج وزير الخارجية

الأمريكى وليم روجرز لكى يعلن عن مشروع أمريكى للتسوية سيعرف فيما بعد باسم «خطة روجرز».

وكمـــا تبين فيما بعد، فإن وزير الخارجية الأمريكى روجرز طلب من مســاعديه البحث عــن أى منبر عام يعلن منه المبادرة الأمريكية الجديدة، وفى يوم ٩ ســبتمبر لم يكن هناك سوى اجتماع لشؤون تعليم الكبار فى واشنطن كان «من المقرر أن يذهب إليه موظف صغير من الخارجية الأمريكية» لكى يلقى بكلمة احتفالية.

وبــدلا من «الموظف الصغير من الخارجية» قرر وزيــر الخارجية أن يذهب إلى الاجتماع بنفســه، وهناك ألقى بقنبلة المبادرة الأمريكية الجديدة، وفى خطابه أعلن روجرز بوضوح «أن على إســرائيل أن تنسحب إلى حدودها السابقة على (حرب) ١٩٦٧ فى صحراء سيناء مقابل اعتراف من مصر وإنهاء حالة الحرب، وتناول روجرز أيضا تســوية أكثر شمولا فى الشرق الأوسط تتضمن مفاوضات بين إسرائيل والأردن بشأن الضفة الغربية ومستقبل القدس ومشكلة اللاجئين الفلسطينيين».

ويقول أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل: «إن خطة روجرز كانت إعلانا أمريكيا صريحا وقاطعا بضرورة انســحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل ١٩٦٧ بالنسبة لمصر والأردن فى إطار تسوية سلمية، وفى أحسن أحوالها فإن تلك الخطة تسمح بتعديلات طفيفة (بالنسبة للضفة الغربية)، وهكذا أضعف من قوة إسرائيل التفاوضية فى أية مفاوضات تدريجية لاحقة حول الحدود، وحتى أولئك الذين كانوا أبعد ما يكونون عن كونهم متطرفين بالنســبة للأراضى استاءوا من هذا الضغط. إن التوازن الدبلوماسى، الذى كان يميل ضدنا دائما، أصبح الأن غير مستقر بطريقة مثيرة لليأس... فخطة روجرز كانت بلا شك واحدة من الأخطاء الكبرى فى الدبلوماسية الدولية خلال فترة ما بعد الحرب».

صدمة فى إسرائيل

أما غولدا مائير فقد اعتبرت خطة روجرز هذه «كارثة لإســرائيل بحيث إن أى حكومة إسرائيلية تتبنى وتنفذ مثل هذه الخطة سترتكب بذلك خيانة لبلدها».

إن «خطة روجرز» هذه لم يتم إبلاغ إســرائيل بها مســبقا ســواء بشــكل رسمى أم غير رسمى، كما لم يعرف بها مسبقا مؤيدى إسرائيل فى الكونجرس وقد تسببت فى أن يسود إســرائيل شعور بالصدمة. وأصبح هناك فى إســرائيل شعور بالأزمة، وتم استدعاء مجلس

الوزراء الإسرائيلى إلى اجتماع طارئ فى اليوم التالى مباشرة حيث قرر رفض مبادرة روجرز رسميا.

هكذا بدأت تتدفق على البيت الأبيض فورا احتجاجات عنيفة من الرسميين الإسرائيليين ومن قيادات اليهود الأمريكيين، فعلى الرغم من أن الجزء الواضح المحدد فيما أعلنه روجرز هو الذى يتعلق بمصر.. هو ليس موقفا أمريكيا جديدا.. إلا أن إشاراته الإجمالية للضفة الغربية، وغير المحددة بعد، هى إشارة بالخطر.

وبعد أن كرر مجلس الوزراء الإسرائيلى فى ١٦ ديسمبر رفضه القاطع لخطة روجرز فى بيان جديد، تقرر أن يسافر أبا ايبان وزير الخارجية فورا إلى واشنطون لكى يبلغ موقف إسرائيل ويفهم ما يجرى وراء الكواليس.

وفى اجتماع إيبان مع وزير الخارجية الأمريكى وليم روجرز احتج الوزير الإسرائيلى بأن هذه المبادرة تحسم بشكل قاطع موضوع الحدود مع مصر بغير أن تتناول طبيعة السلام الذى تريده إسرائيل كمقابل، أين هو، مثلا، الحديث عن الحدود المفتوحة أو العلاقات الدبلوماسية وحرية انتقال السلع والأشخاص؟!

وهنا بادره جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الذى كان حاضرا الاجتماع قائلا: إن هذا السلام الذى تتحدثون عنه (مع مصر).. لم يعد متاحا الآن that peace is not attainable now.

وكان المعنى واضحا تماما، إن ما رفضته مصر بجيش محطم فى يونيو ١٩٦٧، لن تقبله الآن مطلقا وجيشها يقاتل فى حرب استنزاف كبرى، ولم تكن القضية بالنسبة لمصر من البداية هى حل منفرد، ولكن تسوية شاملة تقرر انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة.. وحقوق الفلسطينيين.

وفى مقابلة أبا أيبان مع وزير الخارجية روجرز سأله الوزير الإسرائيلى عن الموقف الأمريكى، الآن، بالنسبة للضفة الغربية، ورد روجرز بأنه على الرغم من أن الإدارة الأمريكية لم تقرر بعد ما إذا كانت ستتعامل مع الأردن فى الوقت الحاضر، إلا إنه: «ربما سنفعل شيئا فى هذا الخصوص على أساس نفس الخطوط الإرشادية التى اتبعناها بالنسبة لمصر».

وقال إيبان: إننا على اتصال مع الأردن ونفضل الاستمرار فى اتصالنا بغير تدخل الولايات المتحدة، ونحن نتحدث مع الأردنيين بشأن التغيرات الإقليمية (التى نريدها)

وخصوصــا فى وادى الأردن، وعلى الرغم من أن اقتراحاتنا ليســت مقبولة بعد من جانب الأردن، إلا أن الولايات المتحدة لو أعلنت الآن أن موقفها هو انســحاب إســرائيل من كل الأراضى، بما فى ذلك الاراضى فى الحدود الأردنية، فإن هذا سيضع نهاية لاتصالاتنا.

وحتــى لا يكون هناك أى لبس، فقد ســلم وزيرَ الخارجيةِ الإســرائيلى إلى وليم روجرز خطابا رسميا من حكومته تطلب فيه من الولايات المتحدة اســتبعاد «القضية الأردنية» من جدول مباحثات مندوبى الدول الأربع الكبرى فى نيويورك.

وتسلم وليم روجرز الرسالة الرسمية الإسرائيلية بلا تعليق.

مواجهة فى واشنطن

وكما هى العادة ذهب وزير الخارجية الإســرائيلى، ومعه سفيره إسحاق رابين، يستغيثان برجل إسرائيل فى الإدارة الأمريكية- هنرى كيسنجر-. وعقب أحد تلك الاجتماعات فوجئ الســفير إسحاق رابين باستدعائه إلى اجتماع مع ايليوت ريتشارد سون وكيل وزارة الخارجية الأمريكى، ويصف رابين ما حدث بقوله: «فى الاجتماع وضعنى ريتشارد سون أمام أمر واقع، فبغير التشــاور معنــا، قدمت الولايات المتحدة فى نفس هذا اليــوم وثيقة تفصيلية عن النزاع الأردنى الإسرائيلى فى مباحثات الدول الأربع الكبرى، وعلى الفور شعرت بشحوب حقيقى، فهذه الوثيقة الأخيرة تضاهى إلى حد كبير المشروع الأمريكى لحل الصراع بين مصر وإسرائيل، إنها تطالب إسرائيل والأردن بإجراء مباحثات تحت إشراف السفير يارنغ، وتتعهد بأن تكون الحدود بين الدولتين متطابقة بدرجة أو بأخرى مع خط الهدنة لسنه ١٩٤٩... وبالإضافة إلى ذلك فإن كلا الجانبين سيناقشــان مســتقبل القدس على أساس أن تبقى المدينة موحدة تحت إدارة بلدية واحدة، ولكن الأردن هو الذى سيسطر على النصف الشرقى من المدينة».

ويعلــق رابين قائــلا: لم يكن هناك حتى مجرد تلميح من الاعتذار فى لهجة ريتشــارد ســون، لقد استشــطت غضبا وقلت له: لم يحدث مطلقا فى أى من قراراتها (السرية) أن وافقت الحكومة الإســرائيلية على الانســحاب من الضفة الغربية... وحتى بالنسبة لسيناء ومرتفعات الجولان فإن انســحابنا إلى الحدود الدولية هناك شــروط باتخاذ ترتيبات أمنية ترضى إســرائيل. ثم فوق هذا كله، كيف أفســر لحكومتى حقيقة أنه منذ يومين فقط كان وزير خارجيتنا يتحدث مع وزير خارجيتكم، ولم يتم إخطاره بمضمون هذه الوثيقة؟.. إننى لا أستطيع أن أفهم هذا، كما أننى لا أستطيع أن أفسره لحكومتى!

قبل القمة العربية بيوم واحد

ولكن وزير الخارجية الإسرائيلى أبا إيبان كان يفهم ما يجرى بأفضل من سفيره فى واشنطن، فالسر فى تلك العجلة الأمريكية لتوضيح الموقف هو أنه: «فى واشنطن كانت هناك خشية من أن مؤتمرا للزعماء العرب فى الرباط فى ديسمبر سوف يتبنى قرارات معادية للمصالح الغربية. ولمنع الإضرار بالمصالح الأمريكية قررت وزارت الخارجية، فى ظل وليم روجرز، أن تعمل لفتة استرضائية للعالم العربى».

والذى حدث هو أن الولايات المتحدة سلمت الأردن الجزء الخاص بها فى يوم ١٩ ديسمبر، أى قبل المؤتمر بيوم واحد من انعقاد مؤتمر مقرر للقمة العربية فى الرباط سيبدأ أعماله فى اليوم التالى مباشرة. وفى نفس الوقت قامت الولايات المتحدة بإخطار الاتحاد السوفياتى بمضمون «الوثيقة الأردنية» ليقوم بإبلاغه إلى مصر، وعلى وجه السرعة. لأنه كانت هناك خشية أمريكية من أن تطالب مصر القمة العربية بالرباط بموقف أكثر صلابة فى دعم مجهودها الحربى، خصوصا وأن النظاميين الجديدين فى ليبيا والسودان مرتبطان مع مصر فى علاقة وثيقة. ولم تكن التقديرات الأمريكية تعرف أن اجتماع القمة هذا فى الرباط سيدخل فى مناقشات جانبية جعلت عبد الناصر ينصرف بعد الجلسة الأولى مغادرا الرباط إلى ليبيا، وبانصراف عبد الناصر، لم تتخذ القمة قرارات على الإطلاق.

نص رسالة روجرز إلى محمود رياض

منذ يونيو ١٩٦٧ ظل الصدام بين السياستين الأمريكية والمصرية يدور حول نقطة جوهرية وأساسية: أن الولايات المتحدة تعرض على مصر انسحابا إسرائيليا كاملا من سيناء وحدها، منفصلا عن مصير الأراضى العربية المحتلة الأخرى.. بينما مصر ترفض هذا الحل المنفرد وتصر على أن تأتى الضفة الغربية والجولان قبل سيناء فى أية تسوية سلمية.

وفى التاسع من نوفمبر ١٩٦٩ وقع أول تغيير جوهرى فى السياسة الأمريكية بسبب حرب الاستنزاف الدامية التى أعلنتها مصر ومضت فيها على رغم كل التضحيات. فى هذا اليوم تلقت مصر رسالة من وزير الخارجية الأمريكى وليم روجرز. وكان أهم فقراتها هو أن الوزير الأمريكى يسجل رسميا لأول مرة استجابة حكومته لإصرار مصر على الربط بين سيناء والأراضى العربية المحتلة الأخرى.

إن هذه الرسالة، التى يتم نشرها هنا، أصبحت فيما بعد هى الخطوة الأولى لطرح ما سمى بعد ذلك «خطة روجرز».. ولم ترد مصر على هذه الرسالة بالقبول أو الرفض فورا، إلى أن تلقت الأردن رسميا الجزء الخاص بالضفة الغربية بعد شهر، وهو ما اعتبرته إسرائيل أكبر خيانة أمريكية لها منذ قيامها فى الشرق الأوسط وهذه الرسالة تلقاها دونالد بيرجس الوزير المفوض ورئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية بالقاهرة «حيث كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وأمريكا مقطوعة رسميا منذ حرب يونيو ١٩٦٧».. وبدوره قام بنقلها فورا إلى السفير صلاح جوهر وكيل وزارة الخارجية المصرية، وهى بالطبع موجهة إلى محمود رياض وزير الخارجية.. والنص الكامل لهذه الرسالة- الذى ينشر هنا لأول مرة- يمضى على النحو التالى:

«القاهرة- ج. ع. م».

٩ نوفمبر ١٩٦٩

صاحب السعادة،

لى الشرف أن أنقل إليك نص رسالة من وزير الخارجية تلقيتها فى السابعة والنصف من صباح اليوم.

عزيزى السيد الوزير

«لقد طلبت من الوزير بيرجيس أن ينقل إليك من خلال السفير جوهر النص الحالى لما آمل فى أنه سيكون ورقة عمل مشترك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. لقد طلبت أيضا من الوزير بيرجيس أن يشرح لحكومتكم بالكامل المنطق الذى تقوم على أساسه ورقة العمل الأمريكية السوفيتية المشتركة».

«إننى أبعث إليك بهذه الرسالة المختصرة بروح المحادثة الصريحة التى جرت بينى وبينك فى نيويورك، لقد شعرت خلال تلك المحادثة بأنه يوجد قدر كبير من التفاهم بيننا، خصوصا بالنسبة للمصاعب التى تواجهها كل من حكومتينا فى السعى إلى السلام فى الشرق الأوسط. وإذا أدركنا جميعا الفرص القائمة، فإننى على ثقة من إمكانية إحراز تقدم لصالح كل شعوب الشرق الأوسط. إننى آمل أيضا بأنه سيكون من الممكن فى الأيام المقبلة إقامة علاقات أفضل بين حكومتينا».

«وبناء على ذلك فإننى ألح على أن تعطى حكومتكم لمشروع ورقة العمل الأمريكية السوفيتية أقصى درجات الاهتمام والتعاطف. إنها تمثل جهدا متوازنا أو محاولة ملاقاة الاهتمامات الرئيسية لكلا الجانبين».

«إنى أعرف أنك مهتم بالكيفية التى سيمكن بها مراعاة الجوانب الأخرى من التسوية العربية الإسرائيلية الشاملة.. وأستطيع أن أؤكد لك بأنه لا توجد لدينا النية لمحاولة فصل الجانب المتعلق بـ ج. م. ع عن الأجزاء الأخرى.. فنحن نرى التسوية كما ترونها، تسوية متكاملة وشاملة؛ إن المطلوب هو استجابة إيجابية من حكومتكم للورقة الأمريكية السوفيتية المشتركة.. على أساس الفهم بأن القوى الكبرى تستطيع حينئذ المضى من غير إبطاء للتركيز على الجوانب الأخرى من التسوية، وكما تعرف، فلا يمكن أن يتم أى تطبيق إلا حينما يكون هناك اتفاق على كل عناصر المشروع المتكامل».

«اننى أتطلع إلى تلقى استجابتك»

المخلص

«توقيع» وليام روجرز

الفصل الثانى عشر

القرارات المصيرية

- نوعيات الطائرات الأمريكية أتاحت لإسـرائيل تحويل المدنيين فى العمق المصرى إلى رهائن
- عبد الناصر يسـافر سـرا إلى موسـكو ويهدد السوفيات بالاستقالة إذا لم يتحركوا فورا
- قرار لمجلس السوفيات الأعلى بحماية العمق المصرى
- ٢٦٤ طائـرة إسـرائيلية تهاجم مصر لمدة ٨ سـاعات
- إسـرائيل أعدت عام ١٩٦٨ خطة «الغزالـة» التى طبقتها عام ١٩٧٣ فى «الدفرسوار»

حينما تشاورت الأردن مع مصر بشأن الجزء الخاص بها من خطة روجرز. كان من رأى مصر أنه طالما إن إســرائيل أعلنت رسميا رفض خطة روجرز فإنها بذلك تتجرد من قيمتها العملية، ولن توقف مصر حرب الاســتنزاف إلا إذا كانت الولايات المتحدة أكثر جدية فى موقفها، ومثل تلك الجدية لا تتحقق حينما تســمح الولايات المتحدة لإســرائيل بمثل هذا الرفــض العلنى الصريح، وعلى أية حال، وتلك كانت النصيحة المصرية. فإن على الأردن أن يستمر فى النقاش مع الأمريكيين.

إما بالنسبة لإسرائيل فإن السفير إسحاق رابين حينما بعث إلى حكومته بمضمون «الوثيقة المصريــة» و«الوثيقــة الأردنيــة» فإنه اقترح علــى حكومته فى نفس الوقــت ألا تدخل مع الحكومة الأمريكية فى مناقشة تفصيلية حول الورقتين، وبدلا من ذلك فإنه يقترح أن تبعث رئيســة الوزراء جولدا مائير برســالة موجزة إلى الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون. تعبر فيها عن استغرابها مما يجرى ورفضها الورقتين جملة وتفصيلا، وكذلك فإن السفير يقترح على حكومته شــن حملــة إعلامية متصاعدة داخل الولايات المتحــدة ضد وزير الخارجية روجرز وتلك المبادرة الأمريكية التى تعرف باسم «خطة روجرز».

وفيما بعد زعم كيسنجر فى مذكراته أن روجرز لم يحصل على موافقة سابقة على خطابه من نيكســون أو منه هو. ففى اليوم (٩ ديســمبر ١٩٦٩) على الأقل، اغتصب روجرز حق كيســنجر فى اغتصابه، وكان كيسنجر مغتاظا وغاضبا ومهتاجا بينما هو ومساعدوه يقرأون سطرا سطرا التقرير الاخبارى عن خطاب روجرز بينما يتوالى وروده على آلات التيكرز فى البيت الأبيض.

وقد يكون هذا كله حركات مســرحية (من كيســنجر). إن (جوزيف) سيسكو يتذكر أن خطاب روجرز تم إرســاله إلى البيت الأبيض قبل الإدلاء به، وأن كيســنجر لم يوافق على نص الخطاب فحسب، بل إنه وضع تعليقات واقتراحات للتغيير بشأن المضمون. ويضيف سيســكو قائلا: إننى لا أعرف ما إذا كان كيســنجر لم يعرض الخطاب على الرئيس مقدما بحيــث إنه حينما تأتى الاحتجاجات المتوقعة من إســرائيل- حيــث كان توقيت الإدلاء بالخطاب متروكا لروجرز- فإن كيسنجر يستطيع أن يقترح على نيكسون حينئذ القول بأن روجرز أدلى بخطاب بغير موافقته المســبقة. ومثل تلك المناورة تفســر أداء كيســنجر المتقن

أمام مساعديه عند ورود التقارير الأولى عن الخطاب وفشله فى التسليم فى مذكراته بأن مقترحات روجرز الأساسية، إن لم يكن توقيتها، قد حصلت على بركاته.

والواقع أن كيسنجر كان أول من يعرف أن خطة روجرز تلك قد حصلت على الدعم الكامل من نيكسون، وسوف تؤكد الأحداث فيما بعد التزام الولايات المتحدة بها رسميا واستمرار الرئيس نيكسون فى بلورتها لكى تقترب من مفهوم التسوية الشاملة لأنه الأكثر تمشيا مع حماية المصالح الأمريكية بالشرق الأوسط.

كيسنجر: لا تهاجموا الرئيس

وفى حينها ذهب السفير إسحاق رابين إلى كيسنجر يستشيره، ولأن مشورات كيسنجر المطلوبة ستتم بشكل غير رسمى، وربما ضد الموقف الرسمى الامريكى ذاته فقد طلب رابين الانفراد بكيسنجر بعيدا عن مساعديه، وقال له كيسنجر: «إن ما حدث قد حدث. وأصبحت الوثيقتان (المصرية والأردنية) ملزمتين للإدارة الأمريكية. ولكننى أتوسل إليك: لا تهاجموا الرئيس (نيكسون) تحت أى ظرف من الظروف! إن هذا سيكون معناه مواجهة مع الولايات المتحدة، وهو آخر شىء تستطيع إسرائيل أن تتحمله، لقد أعطى الرئيس لروجرز يدا مطلقة، ولكن، طالما أن الرئيس لم يلتزم علنا، بعد، بهذه الخطة. تظل أمامكم فرصة للعمل. إما كيف تتصرفون، فهذا شأنكم، ماذا تقولون لروجرز. أو ضده، هو أيضا أمر عليكم أن تقرروه، ولكنى مرة أخرى أنصحكم: لا تهاجموا الرئيس نيكسون!».

وبالطبع كان إسحاق رابين يبعث إلى حكومته تلك المعلومات أولا بأول: «بأسرع ما توقعت جاء الرد من القدس: تعال إلى إسرائيل فورا، لقد غادرت واشنطون فى ١٠ ديسمبر، وخلال أسبوع عدت إلى واشنطن بموافقة (من الحكومة) على شن حملة علنية ضد «خطة روجرز» وبرسالة من مائير إلى الرئيس نيكسون».

لكن رحلة إسحاق رابين العاجلة إلى إسرائيل فعلت أيضا شيئا آخر. لقد رجحت كفة ذلك الفريق الاسرائيلى الذى يرى أن وقف هذا التغيير فى السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط لن يتم إلا بوقف حرب الاستنزاف المصرية. ووقف الحرب لن يتم إلا بتوجيه ضربات ساحقة ترغم عبد الناصر على إعادة التفكير فى جدوى استمرار الحرب. حتى لو كان هذا يعنى أن تتحمل إسرائيل مخاطر جديدة كانت تتردد حتى الآن فى الإقدام عليها. لقد جاء رابين إلى الحكومة الإسرائيلية للتشجيع ضد مصر من دائرة يعرفها بشكل وثيق.

وفى تلك النقطة يقول أبا أيبان: «لقد كان العنصر الحاسم فى المناقشة هو حماس سفيرنا فى واشـنطن للمدخل المتشـدد (فى التعامل مع الأزمة القائمة). إن (إسـحاق رابين) كان يمطرنـا ببرقيات تحثنا على التصعيد (العسـكرى) ضد مصر وباقـى الدول العربية، وكان من الواضح أن هناك بعض الناس فى واشـنطن (ويقصد هنرى كيسـنجر ووكالة المخابرات المركزية) قد يكون رد فعلهم متعاطفا مع هذا السلوك، إن هذا التحليل كان مغريا، ولكننى لم أكن مؤمنا بأنه يتمشـى مع الحقائق الدوليـة، وأدت معارضتى لتحليل رابين بعد ذلك إلى سـحابة مـن التوتر فى السياسـات الداخلية اسـتمرت لبعض الوقـت. مع ذلك فإن مناصرة رابين القوية ساعدت بالتأكيد فى ضمان أغلبية (داخل مجلس الوزراء) تؤيد القيام بهجمات جوية أكثر تركيزا وكثافة عبر القناة».

ولكن الأمر فى هذه المرة كان يتجاوز هذا النطاق.. كثيرا.

٢٦٤ طائرة إسرائيلية فى يوم واحد

ففى ليلة ٢٣/ ٢٤ ديسـمبر (١٩٦٩) قامت قوات الكوماندز الإسـرائيلية المحمولة جوا بطائرات الهليكوبتر بغارة ناجحة على محطة رادار مصرية تقع خلف وحدات النسق الأول للقوات المصرية بخليج السويس عند رأس غارب. وقامت بفك الجهاز ونقله كاملا بعد مقتل أفراد طاقمه، مما أحدث ثغرة واسـعة فى الدفاع الجوى المصرى. أصبح ممكنا لإسـرائيل بعدهـا اخـتراق المجال الجوى المصرى والقيام بالهجوم الشـامل الذى يسـتهدف «تدمير الجيش المصرى» مرة واحدة وحاسمة توقف تماما ضغوط الحرب على الإدارة الأمريكية.

وفى ٢٥ ديسـمبر مباشرة، وكان عبد الناصر موجودا فى ليبيا، قامت إسرائيل بسلسلة مستمرة من الغارات الجوية الكثيفة ضد مصر استخدمت فيه ٢٦٤ طائرة، بينما كان مجموع الطائرات التى اسـتخدمتها فى حرب يونيو ١٩٦٧ لا يتجاوز ٢٢٠ طائرة. وفى ذلك اليوم استمرت الغارات الجوية الإسرائيلية على المواقع المصرية المختلفة، من الثامنة صباحا حتى الرابعة والنصف عصرا بلا توقف، قاذفة بآلاف الأطنان من القنابل الزمنية وغير الزمنية.

واعتبارا من ٧ يناير سـنة ١٩٧٠ بدأت طائرات الفانتوم الإسـرائيلية بشـن موجة أكبر كثافـة وطموحا من الغارات الجويـة فى العمق المصرى. مُسـقطة قنابلها فى مناطق تبعد عن القاهرة مسـافة أقل من ١٢ ميلا، فيما اعتبر إسـحاق رابين أن «هذا التاريخ هو نقطة تحول».

فمن يومها فصاعدا بدأت الإدارة الأمريكية تتحرر تدريجيا من الشعور بالاكتئاب لكونها تساند الطرف الخاسر فى الشرق الأوسط ونتيجة لذلك تخسر مكانتها فى المنطقة. وحينما دعانى (جوزيف) سيسكو إلى الغداء فى ١٢ يناير لم يكن فى موقف يسمح له بأن يقر بأن عمليات إسرائيل الجوية هى محل ترحيب مماثل فى الولايات المتحدة، إنه لم يكن محتاجا أن يقول، فهو يعرف أننى أعرف.

ومن حيث إن هذا التصعيد الإسرائيلى الشامل، وبسلسلة الغارات الجوية فى العمق المصرى التى بدأت فى ٧ يناير ١٩٧٠ كانت نقطة تحول، فهو بالفعل أصبح كذلك. وما يقصده رابين هو أن المصريين أصبحوا شبه عراة من وجود نظام فعال للدفاع الجوى. والطائرات الإسرائيلية تخترق الأجواء المصرية بكثافة وتركيز ونجاح يضاعف حجم الخسائر المصرية، ومن هنا أصبح على إسرائيل أن تهنئ نفسها، فقد تجمد الحديث عن خطة روجرز، وتدعيم موقف كيسنجر داخل الإدارة الأمريكية من أن لغة القوة ضد مصر وعبد الناصر هى التى ستوقف التدهور فى المكانة الأمريكية بالشرق الأوسط.

هذا صحيح جزئيا، لكن القصة لم تتوقف عند هذا الحد، فالحرب تجرى بين طرفين. وإذا كان هذا هو ما يريده طرف وينجح فيه مبدئيا، فإن الأمر يتوقف على نوع ردود الفعل التى سيقوم بها الطرف الآخر.

اجتماعات عسكرية سرية لعبد الناصر

وبعكس ما توقع إسحاق رابين وهنرى كيسنجر وفريقاهما داخل الحكومتين الإسرائيلية والأمريكية، فإن فكرة الرضوخ للأمر الواقع لم تخطر على بال جمال عبد الناصر والشعب المصرى مطلقا.

فأولا، بادر جمال عبد الناصر إلى عقد ثلاث اجتماعات سرية على مستوى عال فى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة فى أيام ٦ و٧ و١٠ يناير (١٩٧٠) وحضر المستشارون السوفيات الاجتماعين الأخيرين منها. وكان جمال عبد الناصر يريد فى تلك الاجتماعات أن يستمع صراحة وبتفصيل إلى قادة القوات المسلحة وهم يشرحون موقف قواتهم، وسألهم عبد الناصر صراحة: هل فى الإمكان الاستمرار فى حرب الاستنزاف. أو أنها أصبحت سلاحا ذا حدين بعد التصعيد الذى تستغل فيه إسرائيل تفوقها الجوى؟.

وكان تقدير الرئيس جمال عبد الناصر أن إسرائيل تعتقد أننا سنعبر القناة المصرية فى صيف ١٩٧٠. وهدفهم هو منع القوات المسلحة من عبور القناة. وهذا لا يأتى إلا بالسيطرة

الجوية لإسرائيل وضرب وسائل الدفاع الجوى فى النسق الأول والنسق الثانى، ثم المطارات وبذا يضمنون عدم عبور القوات المصرية القناة».

من هنا ففى خلال سنة ١٩٦٩ وحدها قامت إسرائيل «بحوالى ٢٥٠٠ طلعة جوية لضرب وسائل الدفاع الجوى وقواته وقوات الجبهة» فى مقابل «٢٩٠٠ طلعة جوية للحماية قام بها الطيران المصرى، وكانت خسائر مصر من الطائرات ٢٣ طائرة فى مقابل ١٤ طائرة للعدو».

ثم «استمع الرئيس جمال عبد الناصر خلال هذه الاجتماعات الثلاث إلى جميع القوات المسلحة، حصل منها الرئيس بنفسه على استعداد القوات المسلحة فى تصعيد العمليات العسكرية بروح قتالية عالية لأن الظروف قد تضطرنا إلى العبور (الشامل) هذا العام، كما انتهى الرئيس إلى ضرورة الضغط على الاتحاد السوفياتى لاستكمال النقص المزمن فى الدفاع الجوى ووسائله ومعداته، خاصة الصواريخ، وكذا استكمال عدد الطيارين والطائرات المتطورة وطائرات الردع».

إسرائيل تتوقع عبورا مصريا

والواقع إنه منذ سنة ١٩٦٨ «بدأ أعضاء القيادة (العسكرية) الإسرائيلية يضعون فى اعتبارهم بشكل جاد تصور الهجوم المصرى» الشامل لتحرير سيناء بقوة السلاح، لقد أدركت إسرائيل مبكرا أن «الخطة المصرية كانت تقوم على أن يؤدى قصف المدفعية إلى تدمير أكبر ما يمكن من خط بارليف فى المرحلة الأولى من حرب الاستنزاف، وبمجرد أن يتم تدمير التحصينات الإسرائيلية بدرجة كبيرة، تقوم المرحلة الثانية على سلسلة من حالات العبور بواسطة الكوماندوز المصريين لفترات قصيرة من الوقت، والمرحلة الثالثة تتضمن عمليات أوسع نطاقا فى العمق بامتداد القناة، بينما المرحلتان الرابعة والخامسة ستكونان عملية عبور شاملة بهدف احتلال قطاعات الضفة الشرقية لقناة السويس».

وبطبيعة الحال كان هدف إسرائيل فى كل مرحلة من حرب الاستنزاف هو إحباط مصر حتى لا تنتقل إلى المرحلة التالية فى تصعيد الحرب، مع ذلك، وبرغم الخسائر فى المعدات والأرواح، كان التصميم المصرى مستمرا ومتزايدا فى الخطط الموضوعة.

وهكذا فمنذ سنة ١٩٦٨ أصبحت إسرائيل متأكدة تماما من حتمية الهجوم المصرى الشامل لتحرير سيناء بمجرد استكمال القوات المسلحة لاستعداداتها. من هنا: «قاد

الجنــرال جافيتش القوات الإســرائيلية ضمــن ألعاب الحرب (الافتراضيــة) بينما الميجور جنــرال موردخاى جور الذى عين فيما بعد رئيســا لأركان حرب القوات الإســرائيلية فى أعقــاب حرب يوم كيبور، تصــرف كقائد (مفترض) للقوات المصريــة، وفى تلك الألعاب قام جور بالعبور بطول الجبهة كلها، متقدما على كل المحاور الرئيســية، وناشــرا القوات المحمولة بطائرات الهليكوبتر فى العمق حيث يوجد خطة الجبهة الإســرائيلية- بالضبط كما فعل الجيش المصرى فعلا بشكل محدود بعدها بخمس سنوات.

إن إسرائيل إذن بدأت منذ ١٩٦٨ تتصور الشكل الذى سيتخذه الهجوم المصرى الشامل فى سيناء، حتى تضع مقدما الخطط اللازمة لمواجهته حينما يحدث.

مناورات بدون جنود

ومن اللفت أن مصر كانت هى أيضا تفعل نفس الشــىء، فحينما قامت قيادات القوات المســلحة المصرية بوضع خططها الأولى لعبور قناة السويس فى هجوم شامل لتحرير سيناء، كان لا بد أن تتصور أيضا كيف ســيأتى رد الفعل الاســرائيلى المحتمل حتى تتحسب له مقدما، إن هذا هو ما يسميه العسكريون «مناورات بدون جنود». وهى تعنى أن تنقسم القادة إلى فريقــين، فريق يمثل الطرف المهاجم ويتصرف بإمكانياته الفعلية، وفريق يمثل الطرف المدافــع ويتصرف بما يعلمه عن إمكانياته الفعلية متقمصا أفكاره وأســاليبه، وهكذا يدخل الاثنــان فى مباراة عقليــة هدفها أن يتنبه الطرف الأول إلى نقــاط ضعفه الحقيقية، ونقاط قــوة العدو المحتملــة، فتراجع الخطط الموضوعة حينئذ لمواجهــة أقصى قدر من المفاجآت والاستعدادات لها مسبقا.

فى مرحلــة تالية (٧٠- ١٩٧١) وضع القادة المصريــون تصوراتهم الفعلية للكيفية التى سيأتى بها رد الفعل الاسرائيلى عسكريا ضد الهجوم المصرى الشامل حينما يتقرر تنفيذه، إن إســرائيل تختــار أضعف النقاط فــى الجبهة الممتدة بطول ١٧٠ كيلــو مترا بطول قناة الســويس، لكى تشــق ثغرة تحاول منها العبور إلى الضفة الغربية لقناة السويس. ثم تلتف محاولــة ضرب الجيش المصرى من خطوطه الخلفية. ويومها أبلغ المستشــار الســوفياتى، الذى كان يحضر تلك المناورات، أو البروفة العملية، بمعلومات حصل عليها السوفيات من وجود خطة إسرائيلية لهذا الغرض فعلا. كان اسمها منذ سنة ١٩٦٨ «خطة الغزالة».. ثم تعدلت فيما بعد إلى «الغزالة- ٢».

وكما هو معروف فإن هذا الذى قامت به إسرائيل فعلا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، ووقتها لم تواجه مصر تلك الثغرة «الإسرائيلية فى الحال كما هو مقرر، لأن القوات المخصصة لتلك المهمة وتدربت عليها عدة مرات كان قد جرى التفريط فيها فى مهمة عسكرية أخرى»!

رحلة سرية إلى موسكو

لكننا الآن ما نزال فى شهر يناير سنة ١٩٧٠، وكل من الطرفين، بعد أن استقرأ نوايا الآخر، أصبح يريد منعه من التطور إلى مرحلة تالية، لقد تأكدت إسرائيل بالفعل من نوايا المصريين. وكل تركيزها الآن هو على أن ترغم المصريين على أن ينكفئوا على أنفسهم عسكريا. فلا يفكروا أبدا فى الانطلاق إلى مرحلة الهجوم الشامل الأخير. وفى تلك اللحظة (يناير ١٩٧٠) أصبحت يد إسرائيل تبدو هى العليا بشكل واضح. خصوصا ضد أجهزة الدفاع الجوى المصرى، بما جعل جمال عبد الناصر يعقد اجتماعاته السرية الثلاث مع قادة القوات المسلحة لكى يتأكد أولا من صلابة تصميمهم على استمرار حرب الاستنزاف وتطوراتها.

بعدها قرر جمال عبد الناصر على الفور أن يطير إلى الاتحاد السوفياتى فى رحلة سرية. هى التى قدر لها فيما بعد أن تصبح نقطة التحول الفاصلة فى الشرق الأوسط. وليس «نقطة التحول» التى يهنئ سفير إسرائيل فى واشنطن نفسه عليها وهو يتناول غداءه مع جوزيف سيسكو يوم ١٢ يناير.

واستمرت رحلة عبد الناصر السرية إلى موسكو من ٢٢ إلى ٢٥ يناير ١٩٧٠، ومن الجلسة الأولى حدد جمال عبد الناصر مطالبه للقادة السوفيات مقررا إنه يريد ردا قاطعا وفوريا الآن. وقبل أن يعود إلى القاهرة. وبمجرد أن انتهى عبد الناصر من حديثه، أبدى ليونيد بريجنيف على الفور تخوفه من أن تؤدى بعض الخطوات التى يطلبها جمال عبد الناصر إلى مضاعفات دولية خطيرة أهمها احتمال وقوع مواجهة حادة بين الاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة.

عبد الناصر يهدد بالاستقالة

وعند هذا الحد: «تعمد الرئيس عبد الناصر تصعيد المباحثات وتوتيرها. لدرجة أنه هدد أمام القادة السوفيات بترك الحكم لزميل آخر يمكنه التفاهم مع الولايات المتحدة

الأمريكية، إذ إن الشعب فى مصر يمر الآن بمرحلة حرجة. فإما نسلم بطلبات إسرائيل.. وإما أن نستمر فى القتال، وإن دفاعنا الجوى فى الوقت الحاضر لا يتمكن من منع غارات إسرائيل على العمق المصرى، واسترسل الرئيس عبد الناصر فى طلب وحدات كاملة من الصواريخ سام- ٣ بأفرادها السوفيت وأسراب كاملة من الميج- ٢١ المعدلة. بطيارين سوفييت، وأجهزة رادار متطورة للإنذار والتتبع بأطقم سوفيتية. وبرر الرئيس عبد الناصر طلبه هذا بأن الزمن ليس فى صالحنا لأن تدريب الأطقم المصرية والطيارين المصريين على الأسلحة الجديدة سوف يستغرق وقتا طويلا. كما أن مدى عمل الطائرات القاذفة المقاتلة الموجودة لدينا لا يمكنها من الوصول إلى عمق إسرائيل مثل طائرات سكاى هوك والفانتوم التى تضرب عمق مصر حاليا.

إن ما يطلبه عبد الناصر فى هذه المرة شىء بسيط تماما بقدر أهميته الكاملة، ففى يونيو ١٩٦٧ طلب عبد الناصر من السوفيات المشاركة فى حماية العمق المصرى حتى يتفرغ العسكريون المصريون لإعادة بناء قواتهم المسلحة. ويومها سحب السوفيات موافقتهم على طلبه بعد ٢٤ ساعة فقط، ولم يعترض عبد الناصر لان حجم الهزيمة كان ما زال ماثلا للعيان. أما الآن. فى سنه ١٩٧٠، فهناك جيش مصرى آخر غير ما يتشكك فيه السوفيات فى سنه ١٩٦٧، والعسكريون المصريون مصممون على استكمال مهمتهم لتحرير الأرض، ولكن ماذا عن حماية المدنيين فى العمق المصرى؟ إن الولايات المتحدة. من خلال نوعيات الطائرات التى أمدت إسرائيل بها. قد أتاحت لإسرائيل عمليا تحويل المدنيين فى العمق المصرى إلى رهائن تتوحش ضدهم كلما زاد الضغط العسكرى المصرى عليها فى جبهة القتال. والآن.. إما أن تتملك مصر نفس المقدرة الابتزازية ضد المدنيين فى إسرائيل بأن يعطيها السوفيات طائرات مقاتلة قاذفة طويلة المدى مثل الفانتوم الأمريكية.. وأما أن تتملك مصر مستوى من الدفاع الجوى يوفر حماية كاملة للمدنيين فى العمق المصرى، هذا.. أو ذاك.. أو كلاهما معا، والمهم، أن جمال عبد الناصر لن يعود إلى القاهرة إلا بقرار سوفيتى واضح ومحدد.. يستطيع هو على أساسه أن يشكل سياسات المستقبل.

اجتماعان للقيادة السوفيتية

وكان القرار الذى يطلبه عبد الناصر هو على مستوى من الخطورة بحيث لا يمكن أن ينفرد باتخاذه «الترويكا» السوفيتية فى الاجتماع.. ليونيد بريجنيف السكرتير العام، واليكسى

كوسيجين رئيس الوزراء، ونيكولاى بودجونى رئيس الدولة، وهكذا، فخلال الساعات القليلة التالية جرى اســتدعاء مجلس الســوفييت الأعلى، وكذلك اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الحاكم، إلى اجتماعين طارئين لاتخاذ أول قرار من نوعه منذ الحرب العالمية الثانية.

وبعد ٢٤ ســاعة من ذلك اللقاء المتوتر العاصف بين عبد الناصر و«الترويكا» الســوفيتية الحاكمــة. «دعى الوفد المصرى لجلســة مباحثات صباح يــوم ٢٥ يناير ١٩٧٠ حيث قرر الرئيس بريجنيف أمام الحاضرين موافقة اللجنة المركزية ومجلس الســوفيات الأعلى على طلــب الرئيس عبــد الناصر. وقال إنها أول مرة يخرج فيها جندى ســوفيتى من الاتحاد (السوفيتى) إلى دولة صديقة منذ الحرب العالمية الثانية».

قرار مجلس السوفيات الأعلى

وقــرأ بريجنيــف قرار مجلس الســوفيات الأعلى وينص علــى: أولا: إمداد مصر بفرقة ســوفيتية كاملة للدفاع الجوى تتكون من ٣٢ كتيبة صواريخ ســام- ٣ بأجهزتها ومعداتها وأطقمها السوفيتية، على أن تصل إلى موانئ مصر فى خلال شهر واحد، وأن تعمل تحت القيادة المصرية لأغراض الدفاع الجوى عن العمق المصرى.

ثانيــا: إمداد مصر بخمس وتســعين طائــرة ميج- ٢١ معدلة، بأطقم ســوفيتية كاملة لها من القيادة والطياريــن والفنيين. وكذلك بأجهزتها ورادارتها للإنذار والتوجيه، وتوضع هى الأخرى تحت القيادة المصرية للمساهمة فى الدفاع الجوى عن العمق المصرى. على أن تصل إلى مصر خلال شهر واحد، وذلك بالإضافة إلى خمسين طائرة سوخوى- ٩ وأجهزة أخرى.

ثالثا: إمداد مصر بأربعة أجهزة رادار متطورة طراز «ب- ١٥» لرفع كفاءة الإنذار الجوى فى شبكة الدفاع الجوى المصرى.

واتفق جمال عبد الناصر مع السوفيات بعد ذلك على شيئين، فمهمة الوحدات السوفيتية المقاتلــة تقتصر فقط على حماية العمق المصــرى، وذلك لفترة مؤقتة تعود بعدها إلى الاتحاد السوفياتى بمجرد أن تنتهى تدريبات الأطقم المصرية التى تحل محلها.

فى نفس الوقت تلتزم مصر بإقامة مواقع الكتائب الجديدة من صواريخ ســام- ٣. وهى ٣٢ موقعا فعليا بخلاف المواقع البديلة والمواقع الهيكلية للتمويه، خلال أربعين يوما كحد أقصى. كما أن السوفيات والمصريين سيعملون فورا لتنفيذ خطة تكفل أقصى درجات السرية بالنسبة لهذا التطور الجديد وخطواته العملية.

الفصل الثالث عشر

قنبلة ذرية على مصر

- وزير خارجية إسرائيل: إننا نعمل بتركيز شديد لإسقاط عبد الناصر
- إنذار أمريكى للقاهرة: وقف حرب الاستنزاف فى الحال أو يتلقى الاقتصاد المصرى ضربات جوية قاضية
- من رئيس الولايات المتحدة إلى رئيس الاتحاد السوفيتى: سنستمر فى تقديم الأسلحة إلى إسرائيل.. ومصر هى المسئولة
- من رئيس الاتحاد السوفيتى إلى رئيس الولايات المتحدة: سنضطر إلى مد الدول العربية بما يمكنها من الرد على المعتدى المتغطرس
- فرنسا تختلف مع أمريكا وتدين الغارات الإسرائيلية ضد مصر



بمجرد عودة عبد الناصر إلى القاهرة من موسكو بعد ظهر ٢٥ يناير دُعى مجلس الوزراء إلى جلسة طارئة فى اليوم التالى. حيث تم اعتماد ١١٠ ملايين جنيه من بند الطوارئ ليبدأ فورا بناء التجهيزات الجديدة، بمتوسط إنفاق ثلاثة ملايين جنيه يوميا. فيما أصبح سباقا مع الزمن من ناحية، وسباقا لضمان السرية من ناحية أخرى.

ولم يكن الأمر يتعلق بمجرد مواقع وتجهيزات جديدة. وإنما هذا كله يجرى وسط غارات جوية إسرائيلية مركزة، واستطلاع جوى لا يتوقف. وآلاف من المهندسين والجنود والعمال يتم حشدهم، ودفعات جديدة منهم تحل محل من يستشهدون، ومئات أخرى من الاحتياجات، لدرجة أن «إنشاء النطاقات الوقتية بين القاهرة وغرب القناة احتاج إلى ملايين من شكائر الرمل اضطرت مصر إلى استيرادها من الهند وباكستان والصومال فى وقت واحد وبسرعة» على حد تعبير الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية.

وبالرغم من اتخاذ وسيلة الأمان فى الإنشاءات.. وزيادة طلعات المظلات الجوية من طائرات ميج- ٢١ إلا أن العدو اكتشف اقتراب النطاقات الدفاعية للصواريخ سام- ٣ إلى منطقة غرب القناة فبدأ يركز على ضرب المواقع تحت الإنشاء التى تبنى بالاسمنت المسلح أو الحوائط مسبقة الصنع التى كانت تنقل من مصانع غرب القاهرة. وكانت قنبلة واحدة زنة ١٠٠٠ رطل تلقى على الموقع قبل تجفيفه فتبطل استخدام الموقع نهائيا ونضطر إلى اختيار موقع آخر قريب ونبدأ فى إنشاء موقع جديد، وبدأ الصراع بين لواءات الصواريخ سام ٣ والمدفعية ٢٣ م... وطيران العدو فى معارك تحولت بعد ذلك إلى معارك صواريخ سام- ٣.

وفيما بعد. حينما ستظهر النتائج عمليا فى ميدان القتال، فإن التقييم الإسرائيلى سيصبح هو أنه: «فى تلك النقطة جاءت نقطة تحول كبرى فى الشرق الأوسط من وجهة النظر التاريخية بزيارة ناصر السرية إلى موسكو. وما تلاها من وصول معدات وأطقم سوفيتية إلى مصر».

أما قبل أن تظهر تلك النتائج. فإن إسرائيل مستمرة فى غاراتها فى العمق المصرى بطائرات الفانتوم الأمريكية دون عقاب مصرى مؤثر. بينما المسئولون الإسرائيليون يعلنون صراحة أن هدفهم هو إسقاط نظام جمال عبد الناصر فى مصر.

وفى الثالث من يناير ١٩٧٠ أعلنت جولدا مائير أنها لا ترى فرصة للسلام ما دام عبد الناصر فى الحكم، وبالتالى فان إسقاط عبد الناصر والنظام كله الذى يمثله يجب أن يسبق أى حديث عن السلام.

وصرح أبا ايبان بما يفيد أن «بعض الجهات الأمريكية– يقصد كيسنجر ووكالة المخابرات المركزية– تعاتبنا على موقفنا السلبى فى الوقت الحاضر وتقاعسنا عن العمل الايجابى فى مصر، وقد طلبوا منا أخيرا أن نركز جهودنا فى الفترة المقبلة على ما يؤدى إلى إسقاط عبد الناصر شخصيا».

وكتبت جريدة «النيويورك تايمز» الأمريكية فى ١٨ يناير أن إسرائيل قررت إعطاء أولوية للحرب النفسية (ضد مصر) وأن الهدف من هذه الحرب النفسية مزدوج: أولا– إيصال الحرب إلى الشعب المصرى.. وثانيا– تقويض القيادة المصرية وخلق انقسامات داخلية مما يؤدى إلى نتائج ملائمة بالنسبة لإسرائيل.

وفى حديث دار بين أحد الصحفيين الغربيين وأبا ايبان وزير الخارجية الإسرائيلى سأله الصحفى عن سبب تركيز إسرائيل وأمريكا على جمال عبد الناصر شخصيا؟.. فقال أبا ايبان: «إننا نعمل بتركيز شديد لإسقاط عبد الناصر لأننا مقتنعون بأنه بعد سقوطه سيهدأ الموقف مع مصر وسيتغير لصالحنا».

وفى ٢٩ يناير ١٩٧٠ نشرت النيويورك تايمز الأمريكية تصريحا جديدا لموشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى يقول فيه: «إن احد أهداف الغارات فى العمق ضد مصر هو مواجهة المصريين بحقيقة الحرب، إننا نقول للمصريين: الآن انظروا هنا، إن قادتكم لا يفعلون بكم أى خير». ونفس النغمة كررتها جولدا مائير رئيسة الوزراء فى تصريحها لجريدة «لوموند» الفرنسية يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٠.

تحذير أمريكى لمصر وسوفياتى لواشنطن

وفى الثانى من فبراير وجهت الولايات المتحدة تحذيرا ضمنيا إلى مصر، ورد فى رسالة من الحكومة الأمريكية سلمها دونالد بيرجس القائم بأعمال رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة، حيث توجه الحكومة الأمريكية نصحها إلى القاهرة بأن تعلن «فى الحال» قبولها بوقف إطلاق النار كما حدده قرار مجلس الأمن فى يونيو ١٩٦٧، وفى هذه الحالة يجب على مصر «ألا تربط قرار وقف إطلاق النار بالانسحاب الإسرائيلى». أما إذا لم تقبل مصر

ذلك «فإن الغارات الإسرائيلية فى العمق المصرى سوف تستمر، وربما بصورة أكبر مدى ويتزايد ليشمل أهدافا تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسية».

ويومها تجاهلت القاهرة تماما هذا التحذير الامريكى، وبالطبع لم تفكر لحظة واحدة فى الأخذ «بالنصيحة» الأمريكية بقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط.

لقد كان لدى القاهرة تفسيرها الخاص لتلك الرعونة الأمريكية المفاجئة. فقبل يومين اثنين- أى فى ٢١ يناير ١٩٧٠- وجه رئيس الوزراء السوفيتى اليكسى كوسيجين رسالة غير معلنة إلى الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون اتسمت لهجتها بتحذير غير مألوف من السوفيات من «استمرار إسرائيل فى مغامراتها» بقصف أراضى مصر والدول العربية الأخرى، لأن هذا يعنى أن الاتحاد السوفيتى «سوف يكون مضطرا إلى العمل على أن يكون لدى الدول العربية الوسائل التى تمكنها من الرد على المعتدى المتغطرس».

وفى نفس الوقت بعث كوسيجين برسالتين مشابهتين إلى كل من الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو ورئيس الوزراء البريطانى هارد ويلسون.

وفى تلك الرسائل غير المعلنة، والتى يحتوى هذا الكتاب على صور لها، كان السوفيات يبلغون الولايات المتحدة بان ما تفعله إسرائيل قد وصل إلى النقطة التى ستجعلهم «مضطرين» إلى العمل. وبالطبع، سيجئ رد نيكسون بلهجة مماثلة محبذا العودة إلى وقف إطلاق النار والحد من التسلح فى المنطقة وبأن الولايات المتحدة «لن تتردد فى إمداد الدول الصديقة بالأسلحة» إذا اختل التوازن العسكرى النسبى فى المنطقة.

فرنسا ترد وتدين الغارات

جاء الرد البريطانى على الرسالة السرية التى بعث بها اليكسى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى متماشيا مع الموقف الامريكى من تحميل مصر مسئولية حرب الاستنزاف الدائرة فى الشرق الأوسط، بينما جاء رد الرئيس الفرنسى مختلفا مع الموقف الامريكى البريطانى. وجاءت رسالة الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو الجوابية على النحو التالى:

«السيد الرئيس

«أشكرك على رسالتك التى تفضلت بإرسالها إلى فى ٢ فبراير وتتعلق بتفاقم الموقف فى الشرق الأوسط.

«اننى أشاركك القلق لتوسيع العمليات العسكرية فى هذه المنطقة من العالم. إن هذا يؤدى فقط إلى إشعال المناخ وإعاقة السعى إلى حل سلمى كانت فرنسا تسعى إليه دائما فى نشاطها».

«إن انتهــاكات الهدنة أيا كانت تتصادم مع القرارات التى تبناها مجلس الأمن كمرحلة أولى فــى ٦ و٧ و٩ يونيو ١٩٦٧، والأمر لا يحتــاج إلى القول بأن هذه القرارات تظل قائمة وتمثل أساسا لا غنى عنه بالنسبة لاى تسوية حقيقية».

«لقد عبرت حكومتى، كما عبرت حكومتكم، مرات عديدة عن أسفها من حقيقة أن تلك القرارات حظيت باهتمام قليل فى المنطقة ذاتها، لقد أشرنا بشكل متكرر إلى أن انتهاكات الهدنة قد تؤدى إلى تصعيد للعنف لا يمكن التحكم فيه، وكذلك إلى تهديد الســلام، وفى كل مناسبة أكدنا على الحاجة الماسة للحل السياسى».

«إننــى أؤمن بــأن الموقف الحالى يدلل على ضرورة الاســتمرار بتصميم فى الجهود التى يقوم بها الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن بنيويورك من أجل وضع مشــروعات مشــتركة حــول شــروط تنفيذ قرار ٢٢ نوفمــبر ١٩٦٧ (القرار رقــم ٢٤٢)، وفــى الحقيقة فإنه من الضرورى اســتئناف المهمــة التى أناطها القرار بممثل الســكرتير العــام للأمم المتحدة فى المستقبل الوشيك».

١٠٠ طائرة ميج لليبيا

وفى تلك اللحظة كان هناك داخل الإدارة الأمريكية من يرى أن التوازن العسكرى اختل بالفعل- ليس بسبب المدى الذى سيتطور إليه الدفاع الجوى المصرى.. وهو أمر لم يكن قد عرف بعد- ولكن بسبب صفقة عسكرية شديدة الأهمية أبرمتها فرنسا- وليس السوفيات.

ففى نفس الشهر يناير هذا سنة ١٩٧٠ أعلنت فرنسا عن إبرام صفقة مع النظام الجديد فى ليبيا تتضمن توريد مائة طائرة «ميراج» إلى ليبيا على امتداد أربع ســنوات، ولقد أدى هذا إلى إخراج الولايات المتحدة من الاتفاق على الحد من التسلح فى الشرق الأوسط. وكان معنى هذا الطلب أن يتوقف الاتحاد الســوفياتى عن إمداد مصر أساســا بالأسلحة اللازمة لتحريــر أراضيهــا المحتلة، ونتيجته هى اســتمرار إســرائيل فى هــذا الاحتلال إلى ما لا نهاية.. طالما هى تتمتع بتفوق عســكرى- خصوصا بالنســبة للطيران، والآن فرنسا- وهى الدولة الحليفة- كى تسجل عمليا اعتراضها على سعى السياسة الأمريكية لإضعاف العرب لمصلحة إسرائيل.

ومــن ناحية أخرى، فإن نظــام الحكم الجديد فى ليبيا أعلن من البداية ارتباطه بجمال عبد الناصر فى مصر. وفى ظل التأكد الأمريكى من إصرار عبد الناصر على الحل العسكرى،

فلابد أن تجد تلك الطائرات الفرنسـية المتطورة الجديدة إلى ليبيا.. طريقها فى النهاية إلى الجبهة المصرية.

وحينما تلقى الرئيس الأمريكى ريتشـارد نيكسـون تلك الرسائل التحذيرية من رئيس الوزراء السـوفيتى كوسيجن فى ٢١ يناير ١٩٧٠، فإنه اضطر خلال مؤتمر صحفى عقده فى نفس اليوم إلى الإعلان عن وجود خلاف بين واشنطن وباريس بسبب صفقة طائرات الميراج إلى ليبيا، مضيفا قوله: «إننى أخشى من استخدام هذه الطائرات فى الحرب الدائرة فى الشرق الأوسط».

رسالة من نيكسون إلى كوسيجين

ويومها لم يناقش نيكسـون مضمون رسـالة كوسـيجين لأنها لم تكن معلنة، لكن هنرى كيسنجر- مستشار نيكسون للأمن القومى- اعتبر على الفور أن تحذير كوسيجين «هو أول تهديد سـوفيتى» للإدارة الأمريكية فى ظل رئاسـة نيكسون، وهو الأمر الذى يتطلب «ردا حازمـا». واتخذ هذا الرد «الحازم» طريقـين.. فالطريق الأول هو تهديد مصر صراحة- من خـلال الرسـالة التى نقلهـا دونالد بيرجس فى ٢ فبرايـر- بالمزيد من الغـارات الجوية الإسـرائيلية.. وضد أهداف «قد تضر بالاقتصاد المصرى بصورة أساسـية». والطريق الثانى من خلال الرد الذى بعث به نيكسون إلى كوسيجين فى الرابع من فبراير، ويتهم فيه مصر بأنها هى التى تعمدت إشـعال دائرة التصعيد العسكرى فى ١٩٦٩.. وإن الولايات المتحدة ترقب بعناية التوازن النسـبى فى الشـرق الأوسط، ولن تتردد فى تقديم الأسلحة إلى الدول الصديقة إذا ظهرت الحاجة إلى ذلك.

وحينما لم تنخلع القلوب فى القاهرة من التهديد الامريكى، ولا اهتزت شحنات السلاح السـوفياتى إلى مصـر نتيجة التحذير الأمريكى.. أصبح لابد مـن التفكير بمزيد من الهدوء داخل الإدارة الأمريكية.

لقد كتب هنرى كيسنجر مذكرة إلى الرئيس نيكسون يقترح فيها أن تعلن الولايات المتحدة إصرارها على وقف إطلاق النار بلا قيد أو شـرط بين مصر وإسـرائيل. و: «هكذا يكون الرد المضاد على التحرك السـوفياتى هو إلقاء تبعة وقف إطلاق النار على عبد الناصر والعرب، ومن خلالهم تلقى التبعة على السوفيات أنفسهم، وليس علينا، ولا على الإسرائيليين».

وحينما سمع السـفير الامريكى فى موسـكو رد أندريه جروميكو وزير الخارجية فى ١١ فبراير أدرك على الفور أن السوفيات غير مهتمين بالمرة بتلك الأفكار الأمريكية.. فالاتحاد

السوفياتى لا يستطيع أن يبحث وقف إطلاق النار، ولا حتى أن يفاتح مصر بشأنه، ما لم تكف إسـرائيل أولا عن الغارات ضد المدنيـين فى العمق المصرى (ولم يقم جروميكو بإبلاغ السـفير الامريكى يومها بأن مصر أخطرته بالفعل بأنها ترفض جملة وتفصيلا وقف إطلاق النار ما لم تعلن الولايات المتحدة.. رسميا وبالتحديد.. موقفها من الالتزام بالانسحاب من الإسـرائيلى الكامل من الاراضى العربية المحتلة). أما بالنسـبة لبحث الحد من صادرات الأسلحة فى الشرق الأوسط، فان الاتحاد السوفياتى لا يعارض مناقشة المبدأ ولكن ليس فى ظل استمرار الاحتلال الإسرائيلى للاراضى العربية.

وبـدأت تتراكم نذر أخرى بالمزيد من الخطـر، إن التقارير ترد من المخابرات الأمريكية إلى كيسـنجر بشـأن زيارة سـرية قام بها جمال عبد الناصر مؤخرا إلى موسكو (وهى التى كانـت قد تمت فى ٢٢ ينايـر).. والى وجود دلائل مبكـرة– وان لم تكن محددة– بوجود اسـتعدادات سـوفيتية لتصعيد مسـتويات الدعم العسـكرى إلى مصر بشـكل يختلف عن المستويات السابقة.

كيسنجر يستدعى رابين

وعلى الفور اسـتدعى كيسنجر السفير السوفياتى فى واشنطن، دوبرينين، لكى يقول له باسم الرئيس نيكسون: «إننا نريد من الزعماء السوفيات أن يعرفوا أن إدخال جنود مقاتلين سوفيات إلى الشرق الأوسط– يقصد مصر– سوف ينظر إليه هنا بأخطر درجات القلق..».

وقال كيسنجر أيضا: إننا اخترنا هذا الأسلوب فى الاتصال لأننا لا نريد مواجهة رسمية، وفى نفس الوقت فإننا نرغب فى أن تجرى بيننا، عبر القنوات الخاصة، مناقشات ثنائية جديدة حول الشرق الأوسط. لكن السوفيات ظلوا لنحو شهر بعدها لا يهتمون بمجرد الرد على تلك الرسالة الأمريكية.

ومع المزيد من تقارير المخابرات الأمريكية، كان كيسـنجر يزداد غليانا. لقد تشـكلت مجموعة عمل خاصة فى مجلس الأمن القومى الأمريكى لبحث الموقف على ضوء هذا التطور الجديد الذى لم تتضح كل أبعاده بعد، وهو ذهاب وحدات مقاتلة سـوفيتية للدفاع الجوى إلى مصر.

وفى تلك الاجتماعات كان كيسنجر يلح على انه: «إذا ادخل السوفيات قوات عسكرية» (إلى مصر) فلن يصبح أمامنا خيار سوى المقاومة، فليس فى وسعنا أن نقبل بوجود عسكرى

سوفيتى جديد، كما أننا غير مستعدين لرؤية المتطرفين العرب (يقصد عبد الناصر) وقد حصلوا، ربما، على دفعة حاسمة».

ويقرر كيسنجر صراحة أنه طلب فى تلك الاجتماعات التخطيط لعمل رد انتقامى أمريكى ضد السوفيات، ولكن: «كانت جميع الوزارات فى الولايات المتحدة أقل حماسا، فمعظم من هم فى الحكومة ألقوا اللوم على التعنت الإسرائيلى باعتباره سبب تجميد الموقف، إن الجميع- باستثنائى أنا- كانوا مقتنعين بان قيامنا بإعطاء معونة (عسكرية) ضخمة جديدة إلى إسرائيل يمكن فى هذه الظروف أن ينسف المنطقة ويحولها إلى شظايا، أما عن خطط الطوارئ، فإن أحدا لم يستطع أن يفكر فى عذر مقبول لمقاومة الجهد الذى يستهدف الإعداد للمستقبل، ولكن.. كان من الواضح أن القيام باى عمل عسكرى مضاد لتحرك سوفيتى كبير سوف يصطدم بمقاومة بيروقراطية مكثفة».

ويضيف كيسنجر فى الجزء الأول من مذكراته بعنوان «سنوات البيت الأبيض» قوله: «إن وزارة الدفاع الأمريكية قدمت مذكرة رسمية تؤكد فيها على أنها تفضل اللجوء إلى اختيارات سياسية. مما يعنى- كما هو الحال فى فيتنام- أن وزارة ما أخرى يجب أن تتحمل العبء والمخاطرة. ولم تفسر المذكرة الكيفية التى ستحقق بها انسحابا إسرائيليا كاملا- وهو الاختيار السياسى الوحيد المطروح على المائدة- أو الكيفية التى لن يبدو فيها هذا الانسحاب نتيجة لضغط سوفيتى فى حالة ظهور أفراد مقاتلين سوفيات فى المنطقة».

فى رد نيكسون على إحدى مذكرات كيسنجر. سجل الرئيس الأمريكى التأشيرة التالية: «على رغم أن السياسة المتوازنة هى الصواب. إلا أن مصلحتنا فوق كل شىء، وتكمن فيما يثير للسوفيات أشد المتاعب، لا تدعو النزاع العربى الإسرائيلى يحجب هذه المصلحة».

خلافات بين نيكسون وكيسنجر

لكن الذى كان يجعل كيسنجر يغلى من الغيظ تماما، هو أن اقتناع الرئيس نيكسون بوجهة نظر خبراء وزارة الخارجية- [illegible] وجهة نظره هو- بشأن تفسير تزايد النفوذ السوفياتى فى الشرق الأوسط. وخصوصا منذ تصاعد حرب الاستنزاف المصرية فى مارس سنه ١٩٦٩، إن كيسنجر كان يلح على فكرة أن مضاعفة المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل هو الذى يحبط مصر. وبالتالى يرغمها على تقليل اعتمادها على الأسلحة السوفيتية. مما يؤدى إلى فى النهاية إلى تراجع النفوذ السوفياتى فى الشرق الأوسط.

وردا علـى مذكرة قدمها كيسـنجر وكرر فيها مزاعمه تلك: كتب الرئيس نيكسـون فى تأشـيرته: «إننى اختلف تماما مع هذا الاسـتنتاج.. لقد كنا نتباهى بـ «هزائم» السوفيات فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٦٧»، وقالت وزارة الخارجية أن حرب (١٩٦٧) كانت هزيمة للسـوفيات، إنها لم تكن كذلك، فقد أصبحوا أصدقاء للعرب، والولايات المتحدة عدوهم، واستمرار هذه الحالة على المدى الطويل يخدم مصلحتهم».

وفى اللحظة الراهنة كان كيسـنجر يعتمد على إسرائيل، بأكثر مما هو يعتمد على إقناع رئيسـه، فى إثبات إمكانية خضوع مصر لسياسة «العصا الغليظة» حتى تذعن لقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شـرط، خصوصا وأن إسـرائيل لها اليد العليا فى السيطرة الجوية، وامتدادا لكيسـنجر، استمر إسـحاق رابين السفير الإسرائيلى يهنئ نفسه وحكومته: قائلا فى برقية سرية بعث بها إلى جولدا مائير: «لقد انجزنا تحسنا ملحوظا فى موقف الولايات المتحدة، إن استمرار هذا التحسن يعتمد أولا وقبل كل شيء على استمرارنا فى شن غاراتنا الجوية فى قلب مصر».

تصعيد الغارات ضد المدنيين

وهكذا، بمجرد أن بدأت تقارير المخابرات الإسـرائيلية عن دلالات شـحنات السـلاح الجديدة إلى مصر، بدأت إسرائيل تتصاعد بغارتها ضد المدنيين فى العمق المصرى، لتتخذ طابعا هستيريا ومحموما، وفى سباق إسرائيل مع الوقت لمنع الصواريخ الجديدة من اتخاذ مواقعهـا طبقـا للخطة المصرية، زادت من توحشـها ضد المدنيين داخـل مصر. ففى ١٢ فبراير (١٩٧٠) اسـتخدمت إسرائيل طائرات الفانتوم فى الإغارة على مصنع مدنى فى أبو زعبل على مشـارف القاهرة، توقيت الغارة محسوب. فى المصنع ورديات تتناوب العمل، كل ورديـة مـن ألفى عامل يأتون وينصرفون فى مواعيد محـددة بقطار محدد. والطائرات الإسـرائيلية تسـتهدف إلقاء حمولـة المتفجرات على العمال فـى الدقائق التى تجمع بين انصـراف ورديـة وقدوم وردية أخرى. هذا كان يعنى أن الهـدف هو أربعة آلاف عامل.. مدنى.. أقصى أنواع الإرهاب.. ضد المدنيين لكن أسـفرت الغارة البشعة عن مصرع سبعين عاملا وإصابة ٦٩ بجراح، ثم خرج موشـى ديان وزير الدفاع الإسـرائيلى ليقول إن هدفه من هذه الغارات الإسـرائيلية بعيدا عن جبهة المواجهة الفعلية فى قناة السـويس هو: «أن يحافظ على معنويات الشعب الإسرائيلى وتقويض الزعامة السياسية والعسكرية فى مصر»..

وإزاء الاستنكار الدولى لتلك الجريمة البشعة وغير المسبوقة اضطرت إسرائيل إلى الزعم بأن الغارات وقعت بطريق الخطأ!.

وفى ٨ ابريل أغارت إسرائيل على مدرسة فى قرية بحر البقر بالصالحية، فراح ضحيتها ٣١ قتيلا و٢٦ جريحا من أطفال المدرسة، ومرة أخرى واجهت إسرائيل الإدانة العالمية ضدها بإنكار وقوع الغارة من أساسها، ثم اضطرت إلى التراجع عن إنكارها حينما انتقل المراسلون الأجانب فى مصر إلى مكان الغارة وسجلوا آثارها.

وبالتدريج، مع استكمال نطاق الصواريخ الأول الذى يحمى العمق المصرى، واكتشاف إسرائيل لهذا التطور بدأت قلوب القيادات العسكرية هى التى تنخلع نتيجة لأن قدراتها على التوحش ضد المدنيين فى مصر بدأت تتراجع شيئا فشيئا. والسفير الإسرائيلى إسحاق رابين منتفخ الأوداج بدا يتراجع، مسجلا: «إننا مع نهاية شهر مارس ١٩٧٠ أصبحنا مضطرين إلى وقف غارتنا فى العمق (المصرى) لأن بطاريات صواريخ سام- ٣ تم وضعها حول مدن مصر الرئيسية»، هكذا تم إذن قطع الذراع الطويلة لإسرائيل ضد المدنيين المصريين بشكل تدريجى، ولكن إسرائيل سوف تستمر لبعض الوقت فى محاولاتها، إلى أن تجد تفسيرا ملائما تروجه لحقيقة اضطرارها أخيرا إلى وقف التوحش ضد المدنيين المصريين بعد أن حولت طائرات الفانتوم لديها إلى «مدفعية طائرة» على حد تعبير جولدا مائير لكى تسقط قذائفها على «عتبات المصريين» فى بيوتهم.

ما يعادل قنبلة ذرية

أما بالنسبة للأهداف العسكرية المصرية غرب القناة فقد تزايدت- عددا وكثافة- بشكل جنونى، بعد أن أصبحت ترى بمعدل أربع غارات يوميا بطائرات الفانتوم وسكاى هوك حيث تقذف «أكثر من عشرة آلاف طن متفجرات يوميا، وخلال يومى ١٤ و١٥ ابريل وصل قذف العدو إلى معدل تأثير قنبلة ذرية زنة عشرين ألف طن على المنطقة. التى شملت بالذات منطقة رقبة ألوزة أيضا التى نجحت فيها قوات الجيش الثانى وكتائب الصاعقة فى تدمير قوات العدو والحصول على أسرى أحياء فى ذلك الوقت. واستمر العدو فى غاراته المركزة ضد مواقع الصواريخ مستخدما أكفأ طياريه وطائراته الحديثة طراز سكاى هوك والفانتوم فى سباق مع الزمن ضد صواريخ سام- ٢٣ مم الرباعى الموجه والمدافع ٢٣مم الرباعى الموجه وصواريخ سام- ٧، والإرادة وقوة العزيمة من المصريين القائمين على استكمال مواقع الصواريخ حتى نهاية يوليو ١٩٧٠».

وكانت كل شبكات التجسس الإسرائيلية والأمريكية فى تلك الفترة معبأة بالكامل لرصد أى معلومــات عن مواقع الصواريخ المصرية الجديدة أولا بأول، وفيما بعد صور فيلم مصرى بعنــوان «الصعود إلى الهاوية»، وهو قصة شــبكة واحدة من التجســس أدت معلوماتها إلى استشــهاد مئات من المصريين فى مواقع الصواريخ الجديدة، كما ســقطت شبكة أخرى من الجواسيس تسربت إليها خريطة أحد مواقع الصواريخ بواسطة قريب مقاول مشهور جرى احتجازه فى حينها لبعض الوقت.

رجال اليوم السابع

فى الواقع لم تكن عملية إعادة بناء القوات المسلحة المصرية ترتكز على جانب الأسلحة والمعدات فقط، إنما كان هناك ما أسميه فى قاموســى الخاص «جيش اليوم السابع» جيش قامت مصر ببنائه مقاتلا مقاتلا وطوبة طوبة، وسلاحا بعد سلاح.

وكل مقاتل فى هذا الجيش، من أكبر ضابط إلى أصغر جندى، ظل ســنة بعد ســنة يرى زمــلاءه المقاتلين أضعاف أضعاف ما يراه من أســرته، ويأكل معهــم فى الخنادق طعاما لا يعرف مطلقا إذا كان سيعيش بعده حتى الوجبة التالية أم لا.

رجال ومقاتلون عرفوا وبثمن فادح وبغير فذلكة ولا بغبغة أن مصير الوطن.. بل والعروبة.. كلهــا يتوقف تماما على مــدى إيمانهم وإصرارهم، هناك جولة خســرناها بطريقة مفجعة سماها العدو دعائيا «حرب الأيام الســتة» الآن هو اليوم الســابع، وهؤلاء مقاتلوه، إن كل الأيام تساوى ٢٤ ساعة، لكن فى حياة الشعوب تصبح بعض الأيام أطول أو أقصر من الأيام الأخرى، والفترة من اليوم التالى للهزيمة المدوية فى يونيو ١٩٦٧ حتى اليوم الأخير لتحرير الأرض هى بذاتها يوم واحد متصل، إنه اليوم الســابع، وكان الجيل الذى انتمى إليه هو ذاتــه العمود الفقــرى لتلك الحرب، جيل من المتعلمين وخريجــى الجامعات الذين أصبح الجيش بكل فروعه يطلبهم بشــكل فورى، ولحســن حظ العروبة فإن هذا الجيل كان أول إنتاج متراكم لنهضة كبرى بدأت قبلها بسنوات، نهضة عنوانها: مجانية التعليم.

وإذا كانت دفعتى فى الدراسة مجرد نموذج هنا، فإن سبعين فى المائة منها على الأقل استمروا مجندين، جنودا وضباطا، فى يوم واحد متصل ما بين يونيو١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣. ولولا أنه كان هناك إصرار على أن تمضى الحياة المصرية، زراعة وصناعة واقتصاد ومرافق، كالمعتــاد، فربما كان ســيتم تجنيد مائه فى المائة من خريجــى الجامعات، لكن الجيوش الحديثة لا تصبح حديثة من فراغ، إنها تعتمد على- وتعيش من- اقتصاد حديث أيضا.

وإذا كان سبعون فى المائة من دفعتى الجامعية أصبحوا مجندين فى هذا «اليوم السابع» فـإن الثلاثـين بالمائة الأخرى كانـوا مجندين بشـكل مختلف، الأولون يرتـدون الكاكى والآخرون بملابسهم المدنية لكن هذا الخريج الجامعى بالملابس المدنية كان يدير حياته فى حـدود مرتبه المتواضع، والمرتب متواضع ليس لأن جهده متواضع ولكن لأنه يتقبل حقيقة أن عليـه أن يعيش فقط على الضروريات، لأن زميله فى جبهة القتال يشـارك فى تحقيق المستحيل.

والمستحيل كان هو أن يصبح لمصر جيش عصرى، والاستحالة هنا طبيعية لأن مصر تتاح لها فقط ربع سـاعة حرية فى كل قرن وإذا لم تسـتثمر مصر ربع السـاعة هذه بسرعة فى بناء جيش حديث تواجه به أطماع الوحوش الكاسـرة فى الغابة الدولية يصبح مصير مصر هـو الاضمحـلال، هكذا التاريخ المصرى فى حالته الدراميـة، فمصر إما فى القمة وإما فى الحضيض ولا وسط.

عقل كبير فى قضية أكبر

مـرة أخـرى نحن فى الإعداد الجيـد للحرب التى قررت مصر أن تخوضها لاسـتعادة الأرض المحتلة وبدأت فى إعداد الجيش القادر على اسـتعادة الأرض، ومن بين القرارات التـى اتخـذت فى ذلك الوقت قـرار كان ملفتا فى وقتها، لقد قرر جمـال عبد الناصر أن يصبح للدفاع الجوى المصرى قيادة مسـتقلة فى القوات المسـلحة واختار محمد على فهمى مسئولا أول عن تلك القيادة والصورة الوحيدة المنشورة له وقتها هى صورته وهو يقابل جمال عبد الناصر والى جواره الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية.

تسـلم إذن محمد على فهمى المسئولية وكانت هناك نكسة كبرى سجلت فيها إسرائيل انتصـارا مدويا، والقضيـة التى أجمعت عليها مصر كلها هى ببسـاطة أن «ما أخذ بالقوة لا يسـترد بغير القوة» والقوة ليسـت سـلعة متاحـة فى محلات البقالـة ودواء متوفرا فى الصيدليات، القوة هى نحن، هى ما نصنعه، هى ما نختطفه وسـط غابة دولية لسنا أقوى وحوشـها، وإسـرائيل بعد انتصار مدو أصبحت تسـتبيح سماء مصر بطائراتها الأمريكية، والغابة الدولية لا تتيح سلاحا بسلاح، والمتوحشون فى الغابة الدولية يقامرون على الوقت.. علـى الزمـن.. فبالمزيد من الوقت والغارات الجوية المتوحشـة على المدنيين من أطفال فى مدارسهم وعمال مدنيين فى مصانعهم.. لابد أن تستسلم مصر.

ولأن الاستسلام يبدأ من الروح فقد جرى تكليف العميد- وقتها محمد على فهمى بإنشاء سلاح جديد اسمه «الدفاع الجوى».. لكى يتكامل مع أسلحة المشاة والبحرية والطيران.. لم تكن المسألة هنا هى فقط أن تمتلك مصر قوة عسكرية رابعة ضمن قواتها المسلحة. كانت المسألة أساسا هى قطع اليد الإسرائيلية الطويلة.. يد الطائرات التى تستأسد يوميا ضد المدنيين فى مدن مصر وقراها.. بمن فيهم أطفال مدارس لم تستوعب عقولهم البريئة- بعد- أى شىء عن العدوان والتوحش الإسرائيلى. وأصبحت مشكلة محمد على فهمى هنا مشكلتين.. فهو القائد فى عملية كبرى صامته لإعادة بناء دفاع جوى حديث لمصر لن يعرف العالم بها إلا حينما تدخل- فيما بعد- فى مرحلة بناء حائط الصواريخ.. وهو أيضا يفعل ذلك فى ظل غارات جوية إسرائيلية يومية وعلى مدار الساعة.

ويوما بعد يوم.. وليلة بعد ليلة.. وشهداء بعد شهداء.. بدأ الشعب المصرى يستوعب لأول مرة ماذا يعنى بالضبط «دفاع جوى». الألفاظ واضحة، دفاع جوى. لكن بحلول الأسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٧٠ بدأت إسرائيل تدرك أن تطورا خطيرا قد حدث، تطور سيغير مسار الحرب الدائرة بل فى المنطقة كلها خلال ذلك اليوم السابع.. الطويل.

فى حرب «الاستنزاف» لم تكن لدى مصر- خصوصا المقاتلين فى القوات المسلحة- أية أوهام، هناك غابة دولية ونحن لسنا أقوى وحوشها، والوحوش الأكبر لكل منها حساباتها ومصالحها، من تلك المصالح مثلا أن تكفل الولايات المتحدة لإسرائيل، المغتصبة والمعتدية، تفوقا كاسحا فى الأسلحة على الدول العربية مجتمعة، وخصوصا فى الطيران، وإسرائيل بطائرات الفانتوم الأمريكية تقوم باختراق المجال الجوى المصرى فى العمق لكى تروع شعبها وتفقدهم أى أمل فى قوتهم المسلحة الجديدة، فى المقابل تملك مصر طائرات «الميج» السوفيتية الصنع، طائرات جيدة ولازمة وبنت حلال وتوجع العدو أيضا لكنها فى نهاية المطاف لا تتيح للطيار المصرى نفس الإمكانيات المتاحة أمريكيا لدى الطيار الإسرائيلى.. والاسوأ من ذلك.. ليس مسموحا فى الغابة الدولية أن نحصل على أية طائرات من أى مكان آخر.

فى مثل هذا الموقف هناك حلان لا ثالث لهما: نقفل الملف.. أو نفتح الملف.. فى حالة قفل الملف تصبح الخلاصة هى أن إسرائيل مستمرة فى الاحتلال ومصر فى «الطراوة». بل.. ولاحتى فى «الطراوة» مصر عليها فقط، وبعدها كل العرب.. الانتظار إلى جوار التليفون حتى يملى عليها وزير الدفاع الإسرائيلى المطلوب منها ثمنا للهزيمة، فى حاله فتح الملف تصبح الخلاصة هى: نضرب.. وننضرب.. نقع.. فنقوم من جديد. يضربون لنا أطفالا

صغـارا في بحـر البقر فنضرب لهم طيارين بطائراتهم، هنا يصبـح للدفاع الجوى بقيادته الجديدة المسـتقلة حديثا محل من الأعراب، ما يـزال على الورق اسمه دفاع جوى، لكنه في حروب «اليوم السـابع» المصرية أصبح دفاعا جويا في مهمة أولى فعلية أن تقطع ذراع إسرائيل الطولى المستأسدة ضد الأطفال المصريين في بحر البقر والعمال في مصنع أبو زعبل وغيرها، لكن تلك فقط كانت مقدمة للمهمة الأكبر: حماية القوات العابرة لتحرير سيناء.

بكلمات أخرى، أصبحت إسرائيل- طوال حرب «الاستنزاف»- تريد أن تقول للعسكرية المصريـة، لـكل حل.. مشـكلة، بينما العسـكريون المصريون عليهم أن يثبتـوا انه: لكل مشكلة.. حل.

بكلمات أخرى وأخرى..هناك امتحان كبير وفاصل للإرادة والعسـكرية المصرية وكانت النتيجة أن اسـتطاعت هذه الإرادة أن تفجر جوهر الإنسـان المصرى وتعلم العالم دروسـا جديدة في العسـكرية، في هذه المرة محور الدروس الجديدة هو: كيف تستطيع الصواريخ ارض/ جو والأسـلحة المضادة للدبابـات القيام بإذلال وقهر أحـدث الطائرات والمدرعات المتاحة لإسرائيل.

عـدت مرة أخـرى إلى المجلد الذى صدر في الغرب بعنوان «التاريخ العسـكرى للعالم» الـذى كنت قد تصفحته بسـرعة ثم توقفت مرة أخرى عنـد أحد فصوله بعنوان «الحروب العربية الإسرائيلية» الكتابة متحاملة ومنحازة ومن منظور موجه أساسا إلى القارئ الغربى. وتأكدت من أسماء مؤلفيه من الخبراء العسـكريين. تأكدت مرة أخرى من البيانات، هذه ليسـت رواية، ليست إبداعا من خيالات مؤلف، إن «إذلال» و«قهر» هنا تعبيران محددان تمامـا ومقصـودان حرفيا ومن خبراء عسـكريين غربيين وبعد سـنوات طويلة من- حرب الاستنزاف- هنا تصبح الترجمة من الإنجليزية إلى العربية هى: محمد على فهمى.

وعندما نجحت مصر بالوصول بحائطها الصاروخى إلى أقرب نقطة من قناة السـويس، وفى أسـبوع واحد- سمى عالميا: أسبوع تساقط الطائرات- أسقطت الصواريخ المصرية ١٧ طائرة إسـرائيلية من طراز فانتوم وسـكاى هوك، ووضعت مصر أيديها على تسعة طيارين إسـرائيليين أحياء، ووقف أبا أيبان وزير خارجية إسـرائيل يتكلم بمرارة في الكنيسـت الإسرائيلى قائلا: «الموقف خطير خطير، لقد بدأ سلاح الطيران الإسرائيلى يتآكل».

هنا يصبح ما قاله أبا أيبان وما عبر من خلاله عن مخاوفه من تآكل في سلاح الطيران كان لـه عنوان واحد بين رجال القوات المسـلحة المصرية: محمـد على فهمى.. والإرادة

المصرية، وأن تغيرا فعليا فى مسـار- حرب الاسـتنزاف- قد بدأ وأن نقطة تحول كبرى فى مسار الحرب قد حدثت، وعرف المصريون لأول مرة معنى وطعم أن يكون لديهم دفاع جوى، وإن التضحيات التى حدثت، والشـهداء الذين قدموا أرواحهم من أجل اسـتكمال بنـاء هـذا الحائط لحماية العمق المصرى والمدنيين والأطفال من غطرسـة ووحشـية العدو لم تذهب سدى.

أما بالنسبة لمحمد على فهمى نفسه فقاموسه الخاص ليس فيه بالمرة كلمة «أنا» فيه فقط «نحن» يتكلم عن: جنودنا المهندسـين جيشا وطيرانا.. مدفعيتنا.. شهدائنا.. صواريخنا.. و.. و.. كلها تنويعات وتنويعات للعنوان الرئيسى «نحن» الذى هو ببساطة «مصر».

□□□

الفصل الرابع عشر

الجانب السرى للتوسلات الإسرائيلية

- مصر لم تعلن أبدا مسئوليتها عن نسف الحفار «كينيتنج» ولا إسرائيل اتهمتها
- الصواريخ المصرية تقطع ذراع إسرائيل الطويلة ضد المدنيين
- لهذه الأسباب إسرائيل توقف غارتها على العمق المصرى
- نيكسون يقول للسفير الإسرائيلى: كل حكومتى ستقف ضدى
- ماذا دار فى الاجتماع السرى بين كيسنجر ورابين يوم ١٢ مارس ١٩٧٠ ؟



كان لحرب الاستنزاف أيضا جانبها السرى الذى لا يعلن عنه أى من الطرفين رسميا أبدا. وعلى سبيل المثال، ففى الصباح الباكر من يوم ٨ مارس ١٩٧٠ شهد ميناء ابدجان فى ساحل العاج على الساحل الغربى لأفريقيا سلسلة انفجارات ضخمة أدت إلى تعطيل حفار ضخم للبترول، كانت قد اشترته شركة أمريكية كندية من بريطانيا، واسمه «كينيتنج» ويجره بحرا جرار هولندى فى طريقه إلى البحر الأحمر كى تستخدمه إسرائيل لزيادة ما تستخرجه من البترول المصرى فى الساحل الشرقى لخليج السويس، إن مصر لم تعلن أبدا مسئوليتها عن نسف الحفار من خلال تلك العملية السرية التى تم التخطيط لها قبل شهرين، ولا إسرائيل وجهت الاتهام إلى مصر، وحينما وصفت الصحف البريطانية وقتها تلك العملية بأنها كانت «قاصمة لمشروعات إسرائيلية فى خليج السويس «وأن» الكوماندوز المصريين هم الذين قاموا بالعملية».. ابتلعت ما حدث بغصة فى حلقها ولم تتفوه بكلمة، لكنها كانت تدرك أن لمصر هى الأخرى ذراعها الطويلة فى ذلك الجانب السرى من حرب الاستنزاف.

أما فى الجانب المعلن من حرب الاستنزاف فقد أدركت إسرائيل أن غارات العمق ضد مصر لم تجعل الشعب المصرى يثور ضد النظام، وإنما الذى حدث هو العكس. فضلا عن أن العمق المصرى أصبح حصينا فى النهاية، وهو ما جعل إسرائيل تفكر منذ نهاية مارس فى إيقافها. وجاءت الحجة المناسبة فى ١٨ ابريل حينما أعلنت إسرائيل أن تشكيلا جويا لها كان فى طريقه إلى العمق المصرى فى العمق الشمالى من خليج السويس، حينما اعترضه تشكيل جوى مضاد من طائرات الميج- ٢١، وخلال اقترابه التقطت أجهزة الاستماع الإسرائيلية محادثات لاسلكية تدور باللغة الروسية بين أفراد التشكيل، وهو ما جعل الطائرات الإسرائيلية تعود من حيث أتت.

وبالطبع تريد إسرائيل أن توحى من خلال الترويج الدعائى لتلك الواقعة. أن الذى يمنعها من مواصلة ضرب العمق المصرى هو السوفيات. وليس المصريين، ولذلك فهى توقف غاراتها من الآن فصاعدا ضد العمق المصرى.

والحقيقة هى أن تلك الواقعة لم تكن أبدا السبب فى تراجع إسرائيل عن التوحش ضد المدنيين المصريين. حيث سجل إسحاق رابين فيما بعد أن القرار الإسرائيلى كان متخذا منذ أواخر مارس. وطبقا لرواية رابين فإنه «بمجرد أن حدث هذا تملكنى شعور مرعب ومروع بأننا ننزلق إلى الخلف من جديد. إن تلك الغارات (فى العمق المصرى) لم تغير فقط من

تـــوازن القوى عبر جبهة القناة، ولكنها أدت إلى ميل كفة الميزان فى المواجهة بين القوتين العظميـــين، ونحن الآن نرتد إلى، وننكفئ فى، موقف يصبح فيه الروس بمفردهم هم الذين يقومون بإملاء التحركات».

إسرائيل تطلب مزيدا من «الفانتوم»

وكما هى العادة، أســرعت إســرائيل إلى الولايات المتحدة تلح عليها فى إمدادها بأربع وعشرين طائرة فانتوم جديدة أخرى (غير الخمسين المتفق عليها من قبل) وكذلك ٢٤ طائرة اســكاى هوك، وقرر نيكســون أنه سيعلن قراره بشأن هذا الطلب الإسرائيلى الجديد خلال ثلاثين يوما، لعل المصريين يقبلون وقف حرب الاســتنزاف، أو لعل الســوفيات يضغطون عليهم فى هذا الاتجاه.

وعندما لم يحدث هذا أو ذاك، بدأت تقوى حجج الفريق الآخر داخل الإدارة الأمريكية– فريق وليم روجرز وخبراء وزارة الخارجية.. ضد فريق هنرى كيسنجر وبعض مساعديه فى مجلس الأمن والمخابرات، وإن الفريق الثانى قامر على أن المزيد من القوة ضد مصر سيردع السوفيات ويشق الخلاف بينهم وبين المصريين فضلا عن إنه سيجعل من عبد الناصر عبرة للعــالم العربى كله ويقوى أنصار الولايات المتحدة فى العالم العربى وفى النهاية– وهذا هو بيــت القصيد– يدعم إســرائيل. أما الفريق الأول الذى يمثلــه خبراء الخارجية فكان يرى أن المزيد من الانحياز الامريكى لإســرائيل هو الذى يفتح الباب لانتشــار المزيد من النفوذ الســوفيتى فى المنطقة، وأن صمود عبد الناصر هو الذى جعل العالم العربى يلتف حوله، والمزيد من ضرب مصر بالأسلحة الأمريكية المتطورة يؤدى إلى انحسار المصالح الأمريكية فى المنطقة وليس إلى تسابق العرب إلى عتبات الأبواب الأمريكية.

وفــى بعــض اللحظات كان يبدو أن فريق هنرى كيســنجر هو الذى يســتمد حجته من المجرى المتعرج لحرب الاســتنزاف، لكن صمود المصريين سرعان ما كان يثبت عمليا عقم «أسلوب العصا» وعدم جدواه، بل وانقلابه على ذاته محققا تأثيرا عكسيا تماما.

وفى تلك المرحلة يقول أبا ايبان وزير خارجية إســرائيل حينئذ: «ليس هناك فى رأيى دليل على أن الولايات المتحدة أرادت منا مطلقا أن نقوم بتصعيد الحرب (كما كان السفير إســحاق رابين يؤكد فى تقاريره المتتالية التى كان يرســلها من واشــنطن) وعلى أية حال ففى شــهر مارس ١٩٧٠ كان شعور الولايات المتحدة متسما بالبرود: إن الوزير روجرز جاء

رده تأجيليا بالنسبة لما تطلبه إسرائيل من الحصول على المزيد من الطائرات، وقد تسبب هذا فى إثارة قلقا فى إسرائيل بعد أن بدأت خسائرنا تتصاعد (بسبب حرب الاستنزاف المصرى)، إننى لن أنسى مطلقا اجتماعا عقدناه بمنزل (رئيسة الوزراء) غولدا مائير فى ساعة متأخرة من الليل، حيث طرح فيه (موشى) ديان (وزير الدفاع) تنبؤه المظلم لما يمكن أن يحدث لإسرائيل لو لم تصل إليها إمدادات الأسلحة الأمريكية على وجه السرعة. إن اعتقادى الشخصى هو أننا سنحصل على الأسلحة، ولكن متأخرة قليلا عمًا نأمله».

ويعلق أبا ايبان بقوله: «على الرغم من أن الحرب كانت تلحق بمصر تأثيرا أكبر تدميرا من تأثيرها علينا، إلا أن الحقيقة الباقية فى النهاية هى أننا نخسر الأرواح والطائرات، وبغير تأكيد (أمريكى) على استمرار إمدادنا بالطائرات والمعدات الأخرى فإن قياداتنا العسكرية لن تكون لديها الثقة التى تسمح لها بالإقدام على مخاطر تكتيكية لا بد منها».

هكذا إذن، فى نفس اللحظة التى كان المقاتلون المصريون «رجال اليوم السابع» يتعرضون فيها للقذائف من عشرين ألف طن يوميا، بما يعادل تأثير قنبلة ذرية، وفى نفس اللحظة التى توقعت فيها إسرائيل أن تنخلع قلوب المصريين وهم يرون أطفالهم قتلى فى مدارسهم بسبب قنابل طائرات الفانتوم.. كان إصرار المصريين على تحمل كامل التضحيات حتى يتم إعادة بناء القوات المسلحة هو الذى خلع قلوب القيادات الإسرائيلية، التى تظاهرت بالعكس علنا، بينما تلك القيادات تجتمع سرا «فى ساعة متأخرة من الليل» بمنزل رئيسة الوزراء لكى تتبادل مشاعرها بالرعب من جراء الصلابة المتزايدة للمصريين. لقد جاءت لحظة فى شهر يناير كانت تبدو إسرائيل وكان لها اليد العليا، والآن فى شهر مارس يتعلق مصير إسرائيل بكلمة تأتيها من واشنطن حتى تسترد القيادات الإسرائيلية العسكرية درجة من الثقة بالنفس «تسمح لها بالإقدام على مخاطر تكتيكية لابد منها».

إن المقاتلين المصريين لم يكونوا يعرفون فى حينها الحالة النفسية الحقيقية لتلك القيادات الإسرائيلية فى اجتماعاتها السرية هذه، لقد كانوا يعرفون فقط «أن ما اخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، وهم ماضون فى هذا الطريق بالضبط. ومصممون عليه.

كيسنجر يجتمع سرا برابين

أما هنرى كيسنجر مستشار الرئيس الامريكى للأمن القومى، الذى حرض إسرائيل على المزيد من الغارات المدمرة بهدف «تدمير الجيش المصرى».. فإنه الآن– فى ١٢ مارس–

يستدعى السفير إسحاق رابين إلى مقابلة سرية فى البيت الأبيض، وبتعبير رابين نفسه فقد: «تم اتخاذ إجراءات صارمة لضمان سرية هذا الاجتماع، وتم إدخالى إلى البيت الأبيض من مدخل جانبى».

وكيسنجر يتجه مباشرة إلى الموضوع الذى تلح عليه إسرائيل: المزيد من الطائرات، وقراره يتكون من «ثلاثة أجزاء»، فالجزء الأول، وهو الذى سيجرى إعلانه رسميا، وهو أن الولايات المتحدة قررت ألا تقرر، بكلمات أخرى- قررت تعطيل الاستجابة مؤقتا لطلبات إسرائيل من الطائرات، ولكنها ستستمر فى مراقبة التطورات العسكرية فى الشرق الأوسط، وفى حالة حدوث تغيير فى الموقف سيتم اتخاذ الخطوات الملائمة.

وكان العنصر الثانى عمليا: فالولايات المتحدة تريد تغيير القواعد المعمول بها بالنسبة لإمدادنا بالسلاح، فبدلا من صدور بيان علنى من الرئيس أو أحد كبار المسئولين بالموافقة علــى، أو الرفض، أو تأجيل البت فى، طلبات إسرائيل، فان الولايات المتحدة ستقوم بالمحافظة على التوازن العسكرى فى الشرق الأوسط من خلال تعويض إسرائيل عن السلاح الذى يتم استنزافه.

أما العنصر الثالث فهو أن الرئيس سيبعث برسالة شخصية إلى رئيسة الوزراء (غولدا مائير) يؤكد فيها التزامه بأمن إسرائيل.

وأصبح هذا الرد الامريكى نذيرا سيئا، فأولا هو ليس نعم.. وليس لا، فالجزء الذى فيه «نعم» لن يكون علنيا، بينما العلنية فى صفقات السلاح الامريكى المتطور إلى إسرائيل هو أكثر أهمية لأنه يضيف إليها رادعا سياسيا تستخدمه ضد العالم العربى، ومصر على وجه الخصوص؛ وثانيا- هذا يعنى أن الرئيس نيكسون لم يبتلع ما يلح عليه مستشاره للأمن القومى» هنرى كيسنجر، من أن شبكة الصواريخ المصرية الجديدة موجهة ضد الولايات المتحدة بأكثر مما هى موجه ضد إسرائيل.

لقاء مع نيكسون

ويبدو أن السفير رابين ألح على كيسنجر ليدبر له مقابلة عاجلة مع الرئيس نيكسون، وهى مقابلة تمت فعلا فى مساء ١٨ مارس، وصحبه فيها كيسنجر.

وفى تلك المقابلة قال الرئيس نيكسون للسفير الإسرائيلى رابين: «إن بعض أقسام الإدارة الأمريكية تعارض بقوة وحماس قيامنا بإمداد إسرائيل بأسلحة فى الوقت الحالى،

إننـــى لن أحددهم، ولكن صدقنى.. إنهم لم يتركوا دقيقةٍ واحدة بغير أن يســتخدموها فى إقناعى بذلك. وتســتطيع أن تتأكد من أننى ســوف اســتمر فى إمداد إسرائيل بالأسلحة، ولكننى سوف أفعل ذلك بأساليب أخرى مختلفة، وفى اللحظة التى تحتاج فيها إسرائيل إلى أســلحة، فأبلغنى بذلك عن طريق كيســنجر، ساعتها ســوف أجد طريقة للتغلب على البيروقراطية».

وكان الســفير الإســرائيلى يعلــم أن الإدارة الأمريكية كلها- فيما عدا كيســنجر وبعض مســاعديه فى مجلس الأمــن القومى والمخابــرات- تعارض أى صفقات ســلاح جديدة إلى إســرائيل، فى وقت يموج فيه العالم العربى بالغليان ضد السياســة الأمريكية، وتضامنا مع الصلابة المصرية فى حرب الاستنزاف، والآن فإن الرئيس نيكسون أصبح يخشى الإعلان عن صفقة طائرات جديدة تلح عليها إسرائيل منذ شهور، ويغير قواعد اللعبة كلها، لأن العلنية جعلت المصالح الأمريكية تدفع ثمنا غاليا لابد من وضعه فى الخسبان من الآن فصاعدا وهنا يقول رابين: إنه، على غير عادته، انطلق فى توســلات عاطفية متواصلة لمناشــدة الرئيس نيكســون تعديل موقفه لأنه: «حينما يســود الاعتقاد بان الولايات المتحدة تقلل من دعمها لإسرائيل، فسوف يستعيد العرب أملهم القديم فى التغلب علينا بواسطة القوة».

وحينما لم يجد هذا المدخل صدى لدى الرئيس نيكســون، جرب إســحاق رابين مدخلا آخر توسم أنه ربما يكون أكثر جاذبية لنيكسون المحارب التقليدى ضد الشيوعية والاتحاد السوفيتى فقال له: إنه بالإضافة إلى ما سبق فإنه: «كلما طالت حرب الاستنزاف (المصرية) تباهى الســوفيات بغطرستهم، إنهم سوف يفســرون قرار الولايات المتحدة بشأن الأسلحة على أنه علامة ضعف، وإذا اســتطاع الروس نصب صواريخ ســام- ٣ بفنيين سوفيت (فى مصر) بينما تستمر أميركا فى حرمان إسرائيل من الأسلحة، فإنهم سيفسرون هذا بأنه يعنى أن فى استطاعتهم المضى إلى ما هو أبعد»!

واختتم إسحاق رابين مرافعته العاطفية بقوله: «مرة أخرى يا سيادة الرئيس.. اننى أناشدك باعتبارك الرجل الوحيد الذى نثق فى تعاطفه وتفهمه لنا: أعطنا الأسلحة التى نحتاجها»!

مع ذلك فلم يكن اســحق رابين ســاذجا، لقد خرج من المقابلــة لكى يبرق إلى حكومته فــورا بفحواها، معلقا فى النهاية بقوله: «إننى لا أعتقد أن أمامنا أية فرصة للحصول على طائرات إضافية الآن (غير تعويض ما يســقطه المصريون لنا).. فإذا كنا نريد طائرات يجب علينا أن نتكيف مع القواعد الجديدة للعبة».

متاعب مع الحلفاء

كانت لكل من طرفى الصراع أذن- مصر وإسرائيل- متاعبه المستمرة مع حليفه. ولكنه يتكتمهـا تماما عن الطرف الآخر ويتظاهر بعكسـها علنا. فالسـوفييت مـن البداية كانوا أصلا غير متحمسـين بالمرة لقرار مصر بالبدء فى شـن حرب الاستنزاف. ولكن وجهة نظر عبد الناصر من البداية- طبقا لما سجله محضر رسمى «سرى للغاية» للمحادثات التى جرت بينه وبين الرئيس الجزائرى هوارى بومدين والرئيس العراقى عبد الرحمن عارف- وهى أن الموقف المصرى النهائى هو الكفاح المسلح.. «وعندما يجد السوفييت أننا مصرون تماما على الكفاح المسـلح، سيجدون أنفسـهم مضطرين فى النهاية للسير معنا، بالرغم من تخوفهم الدائم من أن الكفاح المسلح فى جبهتنا قد يشعل المنطقة كلها».

بعدها كان السوفييت متململين تماما من ضغوط الرئيس جمال عبد الناصر عليهم للمشاركة بوحدات سوفيتية للمشاركة فى الدفاع الجوى المصرى عن المدنيين فى العمق. لكى يكسب وقتا تتفرغ فيه القوات المسـلحة المصرية لجبهة القتـال، والآن أيضا- فى مارس ١٩٧٠- ينقل السوفيات إلى جمال عبد الناصر رغبة أمريكية بالوصول إلى وقف متبادل. وغير معلن، للحرب، ولكن عبد الناصر من البداية اعتبر قرارات الحرب والسـلام هى مسـئولية مصر وحدها، فالأرض المحتلة ارض مصرية وعربية، وليسـت أرضا سـوفيتية. ولذلك فقد كان يسوق السوفيات إلى حيث يرى مصلحة مصر، وهى الآن تأخذ بثأرها وتمنع عملية «إعادة رسـم خريطة الشرق الأوسط» فيجد السوفيات أنفسهم مضطرين فى النهاية إلى تقديم المزيد من الأسـلحة والدعم.. ويقدمون على مخاطرة رفضوا أن يتحملوا مثلها منذ الحرب العالمية الثانية.. لأنهم رأوا البديل أمامهم يمثل مخاطرة أكبر.

وطوال هذا كله لم يخرج عبد الناصر بمتاعبه مع السوفيات إلى دائرة العلانية لأن العبرة فى النهاية هى «هل يقترب الجيش المصرى يوما بعد يوم من إمكانية تحرير الأرض المحتلة بقوة السلاح. أو لا؟».

إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط

أما فى الجانب الإسرائيلى وعلاقته بالولايات المتحدة فلم يكن الأمر يتعلق فقط بإمدادات السـلاح التى تلح إسـرائيل دائما عليها. إنه يتعلق بقدرة بقاء إسـرائيل كدولة تتوسـع

باستمرار، وهو بقاء مرهون تماما بمدى سخاء المساعدات الأمريكية، والى جانب ذلك، فإن إسـرائيل تريد أن تكون الأداة، والشـريك الإقليمى للقوة العظمى، فى عملية «إعادة رسـم خريطة الشـق الأوسـط»، ولكنها تعرف أيضا أن الولايات المتحدة هى الشـريك الأكبر فى العملية كلها، وبالطبع، فإن من حق الشـريك الأصغر دائما أن يشكو، ويتذمر، ويتوسل، ويسـتعطف، ويحتج، ولكن فى النهاية ليس أمامه سـوى الإذعان حينما تصل الولايات المتحـدة إلى قرار، ورجل إسـرائيل داخل الإدارة الأمريكية- مثل والت روسـتو فى إدارة الرئيس جونسون.. وهنرى كيسنجر فى إدارة الرئيس نيكسون- يبلورون فقط الدور الإقليمى لإسـرائيل لكى يتمشـى مع المصالح الكونية للولايات المتحدة كقوة عظمى، ويسـعون لكى يحقق هذا الدور أكبر قدر من الأرباح.

ولكن المشـكلة الطارئة، والتى تحولت بالتدريـج إلى أن تصبح عقبة كبرى، كانت هى فى إصرار مصر على أن تمنع «إعادة رسـم خريطة الشـرق الأوسط» من أساسها، وكان هذا الإصرار مصحوبا بعزيمة لا تلين من تلك القوات المسلحة الجديدة التى قامت مصر ببنائها، والعزيمة الفولاذية التى تولدت لدى الشعب المصرى فى إيمانه بان «ما اخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة».

ومـن تلك النقطة فصاعـدا، لن يلخص هـذه العزيمة والإرادة المصريـة أكثر من حائط الصواريخ الذى يخطط المصريون الآن لإقامته موقعا بعد موقع، متقدمين من شـرق القاهرة، إلى الشرق فى اتجاه جبهة القتال بطول قناة السويس.

ياريف مع سيسكو

وفى السـابع من ابريل أوفدت إسـرائيل على وجه السرعة إلى واشنطن الجنرال أهارون ياريف رئيس المخابرات العسكرية الإسـرائيلية، كمحاولة جديدة لإقناع الإدارة الأمريكية بسـرعة التدخل لمنع تحول ميزان القوة لمصلحة مصر، إن إسـرائيل ما تزال متفوقة على مصر بهامش كبير بالنسـبة للطائرات وبعض المجالات الأخرى. ولكن نجاح المصريين فى إقامة شـبكتهم الصاروخية الجديدة، لو قدر له أن يتم فعلا معناه أن المصريين سيصبح فى اسـتطاعتهم التحول إلى المرحلة الأخيرة من حرب الاسـتنزاف. وهى الهجوم الشامل فى سيناء لتحرير الأرض، وهذا هو ما تقصده إسرائيل فى تلك المرحلة من الحديث عن «تحول ميزان القوى».

وفى اجتماع عقدة الجنرال ياريف مع جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية شـرح له موقف حكومته ثم سـأله: الآن.. ما الذى أسـتطيع أن أخبر به حكومتى بشان طلباتنا العاجلة من الأسلحة؟.

ورد عليـه سيسـكو قائلا: «قـل إن الخلافات تم تضييقها. وأنه يجـرى التعاطف مع موقفكم. وأن الولايات المتحدة لن تسمح بتحول ميزان القوى ضد إسرائيل».

لم يكـن هـذا كلام ينطلى على مدير مخابرات؛ لكن الذى تصدى للرد بدلا منه كان هو السفير اسحاق رابين، الذى كان حاضرا المقابلة، ويقول رابين عن تلك المقابلة السرية غير المعلنة: «إننى لم أستطع كبح جماح غضبى. فنحن، ولعدم وجود أى اختيار آخر أمامنا، وافقت على الأسـلوب الجديد لإمدادنا بالأسـلحة، ولكن ماذا كانت النتائج العملية لهذا الأسـلوب؟.. إننا حتى الآن لم نتسـلم ولا ذيل طائرة واحدة- بخلاف تنفيذ الالتزامات السابقة».

من مائير.. إلى نيكسون

حينما فشـل ياريف رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلى فى مهمته، جربت إسرائيل أسـلوبا آخر. لقد بعثت غولدا مائير رئيسـة وزراء إسرائيل برسـالة شخصية إلى الرئيس ريتشـارد نيكسـون تعبر لـه فيها عن قلقها العميق مـن انه. بالرغم مـن تزايد الانغماس السوفيتى فى حرب الاستنزاف المصرية، فإن الولايات المتحدة لم توافق- بعد- على طلبات إسرائيل من الأسلحة الإضافية.

وفى نفس الوقت بعثت غولدا مائير إلى سـفيرها فى واشـنطن بقائمة الأسـلحة العاجلة التى تريدها إسـرائيل من الحكومة الأمريكية: فإسـرائيل تريد طائرات فانتوم، وسـكاى هـوك، والمزيد من صواريخ هوك أرض- جو، وجو- جو. وآلاف القنابل، وعدد ضخم من الدبابات ومعدات الرادار.

مرة أخرى كان الرد: الحكومة الأمريكية تدرس طلبات إسرائيل.. بمنتهى الأهمية.

تلـك إذن هى الظـروف التى اضطرت إسـرائيل إلى وقف غارتها الوحشـية فى العمق المصرى. ظروف تعتمد على عاملين أساسـيين: صلابة المقاومة المصرية.. وفقدان إسـرائيل لثقتها السـابقة فى اسـتمرار إمدادها بالمزيد من الطائرات والأسلحة الأخرى.. وهو موقف امريكى نشأ بدوره عن تنبه إلى الخسائر التى تلحق بأمريكا فى العالم العربى نتيجة مواقفها

السابقة فى تسليح إسرائيل علنا لضرب المصريين فى العمق، أما الحادث العابر الذى روجت له إسرائيل.. وهو تسجيل حوار باللغة الروسية بين طيارين تصدوا لها فى يوم ١٨ ابريل بطائرات ميج- ٢١.. فلم يكن سوى الذريعة السياسية لتنفيذ قرار جرى اتخاذه فعلا منذ أواخر مارس لاعتبارات عسكرية محددة.

حرب الصواريخ والطائرات

ويعلق إسحاق رابين على تلك الأزمة الصامتة بين إسرائيل والولايات المتحدة فى مارس- ابريل ١٩٧٠ بقوله: «إن هذه السياسة (الأمريكية) تركتنا فى موقف كئيب، لكن ما يزال هناك ما هو أسوأ، فإذا استمر إيقاع التدخل العسكرى السوفيتى، وحرك الروس (!) نظام الصواريخ أمامنا إلى منطقة القناة ذاتها، فلن تكون لدينا طريقة لمواجهة مظلة الصواريخ (المصرية) هذه».

ويضيف رابين: لقد شرح لى صديق أمريكى فى الإدارة (الأمريكية) تلك المسألة بطريقة مؤلمة حينما قال لى: «إذا تم تحريك صواريخ سام- ٢ وسام- ٣ أمامنا فى اتجاه القناة، فإننا لا نمتلك حاليا المعدات القادرة على تدميرها، إنها لا تصبح مسألة اعتبارات سياسية تتعلق بما نعطيه لكم أو لا نعطيه، ففى الحرب بين الصواريخ والطائرات ستكون اليد العليا هى الصواريخ، والآن فى هذه اللحظة، فإننا لا نمتلك الوسائل العسكرية (اللازمة) للتعامل معها».

وهكذا أصبحت إسرائيل أكثر استماتة فى محاولتها منع المصريين من التقدم أماما- فى اتجاه قناة السويس- بحائط الصواريخ، وأعلن أيجال ألون نائب رئيسة وزراء إسرائيل (فى ٣٠ مارس) إن إسرائيل تنوى القيام بأقصى مجهود للحيلولة دون توسيع شبكة الدفاع المصرية، وأن وجود صواريخ سام- ٣ فى مصر يقلب ميزان القوى فى الجبهة المصرية الإسرائيلية.

فى نفس الوقت، بدأ جمال عبد الناصر فى القاهرة يوافق منذ ١٨ ابريل على قيام الطائرات المصرية بالتصدى للغارات الإسرائيلية. من خلال قيامها بغارات تتم ضد المواقع الإسرائيلية فى عمق سيناء.

□□□

الفصل الخامس عشر

الوعود الأمريكية لمصر

- ☐ عبد الناصر: «إننا لا نثق فيكم لانحيازكم لإسرائيل، ففى كل مشروع تتقدمون به تطلبون منا تنازلات جديدة».
- ☐ نيكسون يخطر إسرائيل:
  نحن وأنتم نواجه امتحانا عصيبا يفرضه المصريون
- ☐ كيسنجر يقدم استقالته ويهدد:
  إما أنا.. أو الصواريخ المصرية غرب قناة السويس
- ☐ محضر اجتماع عبد الناصر مع سيسكو فى ١٢ ابريل ١٩٧٠

حتى الآن كانت سياسة «العصا» الأمريكية ضد مصر قد استهلكت نفسها ولم تأت بأهدافها، لقد جربت الولايات المتحدة إمداد إسرائيل بطائرات الفانتوم، وإغماض عينها غالبا- مع التشجيع غير الرسمى كثيرا- لغارات إسرائيل الوحشية ضد المدنيين المصريين، بل وتوجيه إنذار صريح لمصر فى فبراير (١٩٧٠) بقبول وقف إطلاق النار بلا قيد أو شرط، وكذلك محاولة شق فجوة بين الاتحاد السوفيتي ومصر.. دون أن يؤدى هذا إلى النتيجة المرجوة، وهى وقف حرب الاستنزاف المصرية باعتبارها عنصر التفاعل المحورى فى اشتعال العالم العربى كله بالعداء ضد السياسات الأمريكية.

وهنا قررت الولايات المتحدة أن تجرب مدخلا آخر، ليس من الواضح حتى الآن، وعلى رغم مرور سنوات عديدة من الذى دفع إليه.. بالرغم من إنه كان يبدو أقصر الطرق من البداية. إن الرئيس ريتشارد نيكسون قرر فتح حوار مباشر مع مصر.. فى ظل فشل جميع المداخل الأخرى.

ولأن الإدارة الأمريكية من جانبها أدركت مسبقا أن مثل تلك الرغبة فى الحوار لن تكتسب مطلقا مصداقية لدى الرئيس جمال عبد الناصر فى القاهرة فى وقت تستخدم فيه إسرائيل طائرات الفانتوم الأمريكية لقتل المدنيين المصريين فى العمق المصرى، فقد سارع دونالد بيرجس رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية بالقاهرة إلى طلب مقابلة محمود رياض نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، لأنه مكلف بإبلاغ رسالة هامة وعاجلة من الحكومة الأمريكية إلى مصر.

وتمت إحالة دونالد بيرجس إلى مكتب السفير صلاح جوهر وكيل وزارة الخارجية، الذى وافق على استقبال بيرجس للاستماع إلى رسالته وفى المقابلة قال بيرجس أن إعلان الرئيس نيكسون تأجيل البت فى طلبات إسرائيل بالمزيد من الطائرات التى تلح عليها هو مجرد بداية سياسية جديدة للولايات المتحدة فى المنطقة، ولذلك فإن الإدارة الأمريكية تأمل فى أن تعرض على الحكومة المصرية قدوم جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية خصيصا لكى يشرح التفكير الامريكى الجديد. فإذا وافقت القاهرة من حيث المبدأ، فسوف تقرر واشنطون إيفاد سيسكو إلى الشرق الأوسط فى مهمة. ستكون القاهرة محورها، وفى نفس الوقت. فإن الحكومة الأمريكية ترجو أن يتمكن جوزيف سيسكو من مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر لكى ينقل إليه الموقف الامريكى الجديد.

سيسكو فى القاهرة

وطلب محمود رياض من السفير صلاح جوهر أن ينقل إلى بيرجس ما يلى: «بالنسبة للشق الأول فإن الخطوة الأمريكية بتأجيل البت فى طلبات إسرائيل من الطائرات، فإن مصر تعتبرها خطوة إيجابية بشكل عام، لكن «من الناحية العملية تعرف الولايات المتحدة أن إسرائيل تمتلك التفوق الجوى فعلا، ثم إن وزير الخارجية الامريكى أعلن فى نفس البيان أن الولايات المتحدة سوف تعيد النظر فى قرارها إذا حدث خلل فى الميزان الحالى للقوى. ويعنى ذلك أنه إذا قام الاتحاد السوفيتى بتزويدنا بالأسلحة لزيادة قدراتنا الدفاعية، فإن الولايات المتحدة سوف تستأنف تزويد إسرائيل بالمزيد من الطائرات، ولذلك فإن مثل هذه الخطوة تستهدف فى الواقع الضغط على الاتحاد السوفيتى لإيقاف إمداداته العسكرية إلى مصر بالدرجة الأولى».

أما بالنسبة للشق الثانى من الرسالة فإن القاهرة ترحب بقدوم جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية إليها مبعوثا من الحكومة الأمريكية، وسوف يجتمع به السيد محمود رياض نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، ولكن استقبال أو عدم استقبال الرئيس جمال عبد الناصر له لا يمكن تقريره بشكل مسبق إلا على ضوء مضمون مقابلته مع السيد محمود رياض.

ووصل سيسكو إلى القاهرة فى العاشر من ابريل، حيث استقبله محمود رياض فى اليوم التالى، وفى تلك المقابلة كرر سيسكو طلب الولايات المتحدة باستئناف العلاقات الدبلوماسية مع مصر. وتلقى سيسكو نفس الرد المصرى التقليدى: لا علاقات إلا فى ظل موقف رسمى معلن وصريح للولايات المتحدة من مبدأ التزام إسرائيل بالانسحاب الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة نتيجة لحرب يونيو.

ثم تحدث سيسكو عن سياسة أمريكية جديدة فى المنطقة، وشرح معالمها وخطوطها العريضة.

عبد الناصر وسيسكو

وفى اليوم التالى- ١٢ ابريل- وافق الرئيس جمال عبد الناصر على استقبال جوزيف سيسكو، وفى البداية حاول سيسكو أن يبدو منبسطا فى حديثه. فقص على الرئيس عبد الناصر ثلاث نكات كان قد رواها لوزير الخارجية محمود رياض من قبل. «وذلك نهجا على الأسلوب الأمريكى للتخفيف من جفاف الحديث وخلق جو من الألفة».

ثم توجه سيسكو بالسؤال إلى جمال عبد الناصر: سيادة الرئيس. لماذا لا تباشر معنا حوارا دبلوماسيا وسياسيا مباشرا. ولماذا تسمحون للاتحاد السوفيتي بالحوار معنا باسمكم؟.

«وهنا فوجئ جوزيف سيسكو برد صريح من جمال عبد الناصر الذى قال له: إننا لا نثق فيكم لانحيازكم لإسرائيل، ثم إنكم فى كل مشروع تتقدمون به تطلبون منا تنازلات جديدة».

وهنا حاول سيسكو أن يقنع الرئيس جمال عبد الناصر بأن هناك الآن تغييرا جذريا فى سياسة الولايات المتحدة، وأن من المهم أن تثق مصر فى حسن نوايا السياسة الأمريكية الجديدة.

ورد عليه عبد الناصر قائلا: «إن حسن نواياكم الذى تبشر به يجب أن يكون واضحا ومعلنا وقائما على تصرفات محددة وليس على مجرد وعود غامضة».

وطبقا لمحضر الاجتماع، وهو مصنف «سرى جدا» فإن جوزيف سيسكو قال للرئيس جمال عبد الناصر إنه مكلف من الحكومة الأمريكية بأن ينقل إليه ما يلى: «إن الولايات المتحدة لها نفوذها على إسرائيل بصفة خاصة، وذلك يشكل مفتاحا لحل الأزمة، ونحن نذكره لكم صراحة».

«إن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية متوازنة، وليس فى صالحنا أن ننحاز إلى جانب معين».

«إننا نعدكم بأن نقول للإسرائيليين.. إنهم إذا أرادوا السلام، فإنه لا يمكن أن يقوم على أساس اكتساب الأراضى فى الجولان أو غزة أو الضفة الغربية أو سيناء أو القدس».

«إننا من جانبنا لا نقبل موقف إسرائيل الذى يطالب بإجراء مفاوضات مباشرة دون شروط مسبقة، لأن هذه الشروط المسبقة موجودة فى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢».

«وأن موقف الرئيس نيكسون من عدم تزويد إسرائيل بخمس وعشرين طائرة فانتوم ومائة طائرة سكاى هوك هو قرار فى صالح السلام ويتمشى مع دور الولايات المتحدة فى حفظ السلام».

«إننا نأمل فى أن تعطى القاهرة واشنطن فرصة للاختبار، تتمثل فى قبول الجمهورية العربية المتحدة لمقترحات روجرز فى أكتوبر (والمتعلقة بمصر) وفى ديسمبر ١٩٦٩ (المتعلقة بالأردن).. والتى تنص على الانسحاب الإسرائيلى الكامل، إن هذا سوف يعتبر موقفا إيجابيا من جانب مصر (الجمهورية العربية المتحدة) من شأنه أن يؤدى إلى بذل أقصى جهد للوصول إلى الحل المعقول».

وفى الخلاصة، قال سيسكو: إن الإدارة الأمريكية تبلور أفكارها فى مبادرة جديدة سوف تستجيب لإصرار مصر على التسوية الشاملة وأنها: «سوف تكون فى صف العرب

بمقدار ٩٥ بالمائة».. فضلا عن أنها تستجيب لرفض مصر الدخول فى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل.

وقد انتهت المقابلة حينما طلب جمال عبد الناصر من سيسكو أن ينقل تحياته إلى الرئيس نيكسون، وأنه سوف يدرس فحوى تلك المهمة، وإذا انتهى إلى موقف إيجابى منها فسوف يكون رده عليها واضحا ومباشرا وعلنيا. بعدها سافر سيسكو إلى العاصمة الأردنية عمان، حيث لم يستطع دخولها بسبب المظاهرات الضخة المعادية للولايات المتحدة.

حوار السلاح

كانت مهمة جوزيف سيسكو فى القاهرة، بتعليمات من الرئيس نيكسون، تطورا هاما، ولكن حرب يونيو ١٩٦٧ علمت مصر درسا لن تنساه، ولم يكن يعيش هذا الدرس ليل نهار أكثر من جمال عبد الناصر على وجه الخصوص. وهو الآن لم يعد يثق إلا فى شيء واحد فقط هو: القدرة القتالية للجيش المصرى التى تستطيع فرض أمر واقع جديد فى المنطقة بقوة السلاح.

و«حوار» السلاح لم يتوقف لحظة واحدة، إن الغارات الإسرائيلية الجوية على الجبهة المصرية فى تلك الفترة أصبحت بمعدل ٥٢٦ طلعة أسبوعية، والهدف الإسرائيلى الآن هو: منع مصر بأى ثمن من استكمال بناء حائط الصواريخ فى جبهة القناة. وهاجمت الطائرات المصرية مستعمرة «ناحال يام» الإسرائيلية فى سيناء على مسافة مائة كيلو متر إلى الشرق من قناة السويس، بعدها بيومين هاجمت المواقع الإسرائيلية فى عمق سيناء قرب العريش. وفى اليوم التالى قام مائتان من وحدات الصاعقة المصرية، وهى وحدات فدائية خاصة، باحتلال موقع اسرائيلى فى القطاع الجنوبى من قناة السويس ودمرته. وفى الثامن والعشرين من ابريل أغارت الطائرات المصرية مرة أخرى على المواقع الإسرائيلية فى سيناء، فى سادس هجوم كبير يقوم به الطيران المصرى خلال أحد عشر يوما.

أما بالنسبة لموقف مصر من مهمة سيسكو، فالفرصة التى تطلبها الولايات المتحدة من مصر لاختبار جديتها، فقد أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر بعد عشرين يوما. ففى خطاب عام يوم أول مايو، وبعد استعراض عبد الناصر الموقف السياسى. وجه نداءه العلنى إلى الرئيس نيكسون بأن على الولايات المتحدة أن تختار بين أحد موقفين: أن تأمر إسرائيل بالانسحاب من الاراضى العربية المحتلة.. أو أن تكف عن تقديم أى دعم جديد، عسكرى وسياسى واقتصادى. لإسرائيل.. طالما هى تحتل الأراضى العربية.

لقد كان بيت القصيد في القصة كلها هو السلاح الامريكي الذى تضمن به الولايات المتحدة لإسرائيل تفوقا مستمرا على الدول العربية. وخصوصا مصر، وهذا ما يعرفه جمال عبد الناصر.. وإسرائيل أيضا.

نيكسون وأبا إيبان

وحينما ذهب أبا ايبان وزير الخارجية الإسرائيلى ليقابل الرئيس نيكسون فى نفس الشهر، مايو ١٩٧٠، كانت مهمته الأساسية هى الحصول على المزيد من الطائرات. وقد مهدت إسرائيل لتلك المباحثات بحملة دعائية كبرى حول الوجود العسكرى السوفياتى فى مصر، للإيحاء للعالم بأن إسرائيل تواجه الاتحاد السوفياتى فى ميدان القتال، وليس مصر.

وقد صحب أبا ايبان فى مقابلته مع نيكسون. السفير إسحاق رابين. كما حضرها من الجانب الامريكى هنرى كيسنجر مستشار الرئيس للأمن القومى وجوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية.

وتساءل الرئيس نيكسون: على ضوء الانغماس السوفياتى فى مصر، هل ما زال موقف إسرائيل- كما سمعت ذات مرة من السفير رابين- هو: «أعطونا الأدوات (الأسلحة) ونحن نؤدى المهمة»؟.

وقبل أن يرد وزير الخارجية الإسرائيلى. سارع السفير رابين بالإجابة: نعم!

لكن نيكسون وجه بعد ذلك إلى أبا ايبان سؤالا له مغزى أكبر: هل ما تزال سياسة إسرائيل هى (التعهد لنا) أن القوات الأمريكية لن تتورط فى أى تطور منظور للحرب فى الشرق الأوسط؟

إجابة ايبان: نعم!

قال الرئيس نيكسون: حسنا، هذا هو كل ما أردت أن أسمعه.. و «فى هذه الحالة ستحصلون على الأسلحة. بشرط ألا تصروا على قدر كبير من العلانية».

ولكن يبدو أن تلك الكلمات من نيكسون كانت مقدمة إلى شىء آخر غير ما يريده وزير الخارجية الاسرائيلى وسفيره. لقد قال نيكسون: لو كان الأمر يتعلق فقط بكم وبالمصريين والسوريين. فإننى كنت سأقول لكم: اضربوهم بعنف!، اضربوهم بأقسى ما تستطيعون

Let them have it! Let them have it..

Hit them as you can!

ثم أضاف نيكسون قائلا: فى كل مرة كنت أستمع فيها باختراقكم لأراضيهم وضربكم لهم بعنف وقسوة كنت أشعر بالرضاء..

امتحان عصيب

ولكن. بعد أن تأكد نيكسون من اطمئنان ايبان ورابين. سرعان ما جاء الكلام الجاد، لقد قال نيكسون: إننى أتفق معكم فى أن السوفيات والمصريين يضعوننا- نحن وأنتم- فى امتحان عصيب، ولكن المشكلة ليست مصر وسوريا، إن الدول العربية الأخرى فى الشرق الأوسط تراقبنا هى أيضا. ليس لدينا ذرة شك فى ذلك (لكن) وليس لدينا أى اختيار. يجب أن نمارس اللعبة بحيث لا يضيع منا كل شىء فى الشرق الأوسط..

واستدار نيكسون إلى وكيل الوزارة جوزيف سيسكو وسأله: جو.. هل تعتقد أنك تستطيع تدبير الأمر؟

ولم يعط سيسكو ردا مفيدا.

وهنا قال نيكسون: إننا نريد أن نساعدكم. وعليكم أن تساعدونا بغير أن تضروا أنفسكم أو تضرونا، ملعون.. هذا البترول! إننا نستطيع الحصول عليه من مصادر أخرى. (لكن) علينا أن نقف إلى جوار الدول المهذبة فى منطقة الشرق الأوسط. إننا سندعمكم عسكريا، ولكن التصعيد العسكرى لا يمكن السماح له بالاستمرار إلى ما لا نهاية. يجب أن نفعل شيئا سياسيا..

وكان وزير الخارجية الاسرائيلى آبا ايبان أكثر خبرة من سفيره إسحاق رابين بما يجعله يدرك النذير السيئ فى كلمات الرئيس نيكسون، فاستمرار حرب الاستنزاف المصرية لا يعنى فقط إصرار مصر على تغيير الأمر الواقع، ولكنه يؤدى أيضا إلى تزايد العداء ضد المصالح الأمريكية فى العالم العربى، وفى مقدمتها المصالح البترولية، ومجرد أن تعطى أمريكا السلاح وتقوم إسرائيل بتنفيذ «المهمة».. قد فشل فى الماضى، فهو لم يكسر أنف المصريين ولا قلل من صلابتهم أو شعر عبد الناصر بالإذلال. ولذلك يجب أن نفعل شيئا سياسيا.

وحشدت إسرائيل كل أنصارها فى واشنطن للضغط على نيكسون. ووقع ٨٥ عضوا من كل أعضاء المائة فى مجلس الشيوخ الامريكى على بيان قدموه إلى وليم روجرز وزير الخارجية يطالبون فيه بضرورة سرعة تزويد إسرائيل بالمزيد من الأسلحة. وخصوصا المزيد من الطائرات.

أزمة الصواريخ

وفى إســرائيل ذاتها كانت حالة هستيريا تتضاعف كلما تقدم المصريون بموقع صاروخى جديد فى اتجاه جبهة قناة السويس، وعلى رغم الغارات الإسرائيلية المركزة التى لم تتوقف أبدا تمكنت الصواريخ المصرية غرب القناة فى الثلاثين من مايو من إســقاط طائرة استطلاع جوى اليكترونى وبها ١٢ خبيرا فنيا إسرائيليا «كانت الولايات المتحدة قد دعمت إسرائيل بها لإمكانية استطلاع مواقع الصواريخ الجديدة فى العمق».

وخرج موشــى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى يعلن أن إسرائيل مصممة على منع المصريين من إدخال صواريخها إلى أى منطقة تبعد عن قناة السويس بأقل من ثلاثين كيلو مترا، لأن هذا سيكون معناه انقلابا فى ميزان القوى، وتسليما للمصريين بإمكانية الهجوم الشامل فى سيناء فى أى وقت.

والتقط وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى هذا التصريح لوزير الدفاع الاســرائيلى، وفى مقابله له يوم ٢ يونيو مع دوبرينين الســفير السوفياتى فى واشنطن قال له روجرز: إن الفنين الســوفيات لو تقدموا إلى مســافة تقــل عن ٣٠ كيلو مترا غرب القناة، فــإن الإدارة الأمريكية ســتكون مضطرة إلى إعادة النظر فى موقفها بالكامل (بشأن التوازن العسكرى). وحينما عرف هنرى كيسنجر مستشار الرئيس نيكسون للأمن القومى، بفحوى تلك المقابلة، أصبح مضمونها يمثل القشة الأخيرة بالنسبة له، إن نجم كيسنجر داخل الإدارة الأمريكية يلمع بعد أن أشركه الرئيس نيكسون فى الاتصالات السرية الجارية فى ذلك الوقت مع الاتحاد السوفيتى وأطراف دولية أخرى، لكن الرئيس نيكســون منعه من التدخل فى سياســات الشرق الأوسط بالذات، وجعل تلك المنطقة من اختصاص وليم روجرز وزير الخارجية، وكيســنجر تظاهر طبعا بقبول هذا القيد، ولكنه مع ذلك كان يقدم «نصائحه» أولا بأول إلى السفير الاسرائيلى إسحاق رابين، وهو يروج لفكرة أن هناك تأثيرا متبادلا بين الموقف فى الشرق الأوسط والموقف فى أجزاء أخرى من العالم- على مســتوى العلاقة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى- وكذلك لفكرة إنه منذ أصبحت للســوفيات وحدات مقاتلة فى العمق المصرى فإن «التوازن السياســى يكون قد تغير بشــكل فادح؛ بحيث يمكن قلب التوازن العســكرى فى أى لحظة يختارها السوفييت. إن إســرائيل ليستْ معفاة من المســئولية عن الحالة التى وصلت إليها الأمور، ولكننا سنكون قادرين على التعامل مع المشكلة فقطِ بعد التفوق فى التحدى العسكرى».

بكلمات أخرى: لابد لأمريكا أن تعطى إسرائيل المزيد من الأسلحة عقابا للسوفيات، ومن قبل التواجد السوفياتي كانت حجته هي: لابد لأمريكا من إعطاء المزيد من الأسلحة لكى تقوم بإذلال جمال عبد الناصر، ومن قبل هذا وذاك، كان خط كيسنجر استمرارا لمذكرة والت روستو، سلفه اليهودى الصهيونى في منصب مستشار الرئيس للأمن القومى فى إدارة الرئيس جونسون، والتى ترسم لإسرائيل الدور الاساسى والعملى فى «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» بعد حرب يونيو.

والآن جاءت مقابلة وزير الخارجية وليم روجرز مع السفير السوفياتي دوبرينين لكى تصبح القشة التى ستفجر كل مرارة هينرى كيسنجر وحقده ضد التطور المستمر الذى تحققه القوات المسلحة المصرية فى حرب الاستنزاف، إن روجرز حذر السوفيات من عدم الدخول بأطقم صواريخهم إلى مسافة تتجاوز ثلاثين كيلو مترا من غرب قناة السويس (وهو أصلا تخوف معلن من موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى).. وبالنسبة لكيسنجر فإن هذا معناه إعطاء السوفيات شيكا على بياض، وإذعانا للوجود العسكرى السوفياتي فى مصر، طالما لم يحركوه مباشرة فى منطقة القتال.. خلال شهرين سيكونون فى موقف يسمح لهم بنقل وحداتهم بسرعة إلى منطقة القناة.

إن الذين يتقدمون بالصواريخ نحو القناة هم المصريون «رجال اليوم السابع»، وليسوا السوفيات، والسوفيات لم يكن لهم وجود عسكرى إلا فى العمق المصرى لحماية الأهداف المدنية المصرية لفترة مؤقتة، كيسنجر نفسه يعرف ذلك من تقارير المخابرات العسكرية التى تصب فى مكتبه، ومع ذلك فإنه يريد أن تضغط الولايات المتحدة على السوفيات، أملا فى أن يضغط السوفيات بدورهم على المصريين لوقف الحرب.

كيسنجر يقدم استقالته

وذهب كيسنجر إلى جون ايرليخمان مدير مكتب الرئيس نيكسون يسجل غضبه على سلوك وزير الخارجية روجرز: ففى جميع الأحوال يجب منع المصريين بأى ثمن من الاقتراب بصواريخهم الجديدة من القناة، إن القناة ومصر وإسرائيل وسياسات الشرق الأوسط كله ليست من اختصاص كيسنجر. ومع ذلك فإن تعصبه الأعمى لإسرائيل جعله فى تلك اللحظة يكاد يفقد الوعى لكن جون ايرليخمان ربما رأى «أن غضب كيسنجر هذا هو مجرد خداع وحيلة فى صراعه الطويل (مع روجرز) للسيطرة».

وقرر كيسنجر تقديم استقالته إلى الرئيس نيكسون! إن كيسنجر يستثمر لحظة انغمس فيها الرئيس نيكسون فى السياسات المتعلقة بحرب فيتنام، وبغزو كمبوديا، لكى يتخذ موقفا يعنى بصراحة العبارة: إما أنا.. أو الصواريخ المصرية فى غرب قناة السويس.

ولم يهتم الرئيس نيكسون باستقالة كيسنجر، وكل ما فعله هو انه طلب من جون ايرليخمان وجون ميتشيل الجلوس معه لتهدئته.

وحينما اجتمع الثلاثة معا، كيسنجر وايرليخمان وميتشل، تقدم كيسنجر بورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة تتضمن ثلاث نقاط: أولا أن يتوقف الهجوم المباشر أو غير المباشر على كيسنجر لأنه بمثابة هجوم على الرئيس (نيكسون).

ثانيا: كل البرقيات التى تتضمن مواقف سياسية. خصوصا ما يتعلق منها بالشرق الأوسط، يجب عرضها أولا على البيت الأبيض من قبلها بوقت كاف (حتى تكون لدى كيسنجر فرصة الإطلاع عليها مسبقا).

ثالثا: كل الاتصالات (التى يقوم بها وزير الخارجية روجرز) مع (السفير السوفياتى) دوبرينين يجب الحصول على موافقة مسبقة عليها قبلها بوقت كاف، ولابد من الاتفاق على نقاط التباحث فى تلك الاتصالات مسبقا، ثم يتم تقديم تقرير كامل عنها بعدها.

«ولم يأت تهديد كيسنجر بمفعوله، فقد رفض الرئيس نيكسون إيقاف وزارة الخارجية» عن اتصالاتها مع السوفيات بشأن الشرق الأوسط، أو اتصالاتها مع مصر بعد موافقة الرئيس جمال عبد الناصر على «إعطاء فرصة جديدة لاختبار السياسات الأمريكية الجديدة» بالمنطقة.

مع ذلك، فبمجرد أن عرف كيسنجر بأن وزارة الخارجية تدرس مشروعا لوقف إطلاق النار بين مصر وإسرائيل، تقدم فى ١٦ يونيو بمذكرة إلى الرئيس نيكسون يحذر فيها من أن مشروع وقف إطلاق النار «هو مشروع فى غير محله، ما لم يتضمن تسوية قضية الوجود العسكرى السوفيتى (فى مصر)، وهى التى تبدو لى جوهر المشكلة».

ولم يهتم احد فى الإدارة الأمريكية كلها بتلك التشخيصات الملتوية التى يقدمها كيسنجر. أكثر من ذلك. ففى نفس اليوم قام الرئيس نيكسون بتفويض وليم روجرز وزير الخارجية بالاتصال بمصر لتقديم مبادرة أمريكية (سوف تصبح فيما بعد معروفة باسم مبادرة روجرز) تتمشى مع خطاب الرئيس جمال عبد الناصر فى أول مايو.

□□□

الفصل السادس عشر

المقترحات الأمريكية

- ❑ الولايات المتحدة تهدد بعودة إسحاق رابين ليرأس حكومة جديدة تقبل بها
- ❑ أخيرا تحركات أمريكية للالتزام بالانسحاب الاسرائيلى الشامل.
- ❑ فى محضر سرى.. أمريكا تقدم تعهدات رسمية إلى مصر
- ❑ إخراج بيغن من الحكومة الإسرائيلية
- ❑ انسحاب كامل من سيناء وغزة والضفة الغربية
- ❑ انسحاب من الجولان لو قبلت سوريا القرار ٢٤٢
- ❑ لا مفاوضات مباشرة مع إسرائيل.
- ❑ لا طائرات أمريكية جديدة لإسرائيل طوال وقف إطلاق النار.

فـى ١٩ يونيـو ١٩٧٠ بعث وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى برسالة شفهية إلى القاهرة، تسلمتها الخارجية المصرية فى اليوم التالى من دونالد بيرجس رئيس قسم المصالح الأمريكية فى القاهرة.

وتبدأ الرسالة على النحو التالى:

عزيزى السيد وزير الخارجية

لقد قرأت بإمعان بيان الرئيس ناصر فى أول مايو، وملاحظاتكم التالية لمستر بيرجس، إن مستر سيسكو أيضا أفاد بالكامل بمحادثاته مع الرئيس ناصر ومعكم- التى جرت بالقاهرة فى ابريل- «ونحن نفكر جديا فيما يمكن عمله بشان الموقف فى الشرق الأدنى».

وانتهى روجرز فى رسالته إلى عرض مقترحاته، وأولها أن تتعهد كل من مصر وإسرائيل بإعادة وقف إطلاق النار لمدة محددة على الأقل، ثم.. تتعهد كل من مصر وإسرائيل، وكذلك الأردن وإسرائيل، بإصدار بيان يقدمه السفير جونار يارنغ فى شكل تقرير منه إلى السكرتير العام للأمم المتحدة، وينقل إليه فيه موافقة مصر وإسرائيل على:

١ - قيام كل من مصر وإسرائيل بتعيين ممثل لكل منهما فى المناقشات التى ستدور تحت أشراف يارنغ لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بكل أجزائه.

٢ - هدف هذه المناقشات هو التوصل إلى اتفاق على إقامة سلام عادل ودائم بين مصر وإسرائيل يقوم على الاعتراف المشترك بحق كل منهما فى السيادة والاستقلال السياسى، والانسحاب الاسرائيلى من أراضى تم احتلالها فى نزاع ١٩٦٧ بما يتمشى مع القرار ٢٤٢.

٣ - موافقة مصر وإسرائيل على وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة شهور على الأقل، اعتبارا من أول يوليو حتى أول أكتوبر.

ولأن الولايات المتحدة تعرف من البداية إصرار مصر على أن يكون الانسحاب الاسرائيلى شاملا للأراضى العربية الأخرى فى تسوية شاملة، فإن وزير الخارجية الامريكى يخطر مصر فى رسالته بأنه سيبعث برسالة مماثلة إلى وزير خارجية الأردن- وهى رسالة تلقاها بالفعل عبد المنعم الرفاعى وزير خارجية الأردن فى اليوم التالى.

أيضا، لأن الولايات المتحدة تعرف من البداية رفض مصر إجراء أى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل، فإنه وزير الخارجية الامريكى يخطر وزير خارجية مصر بأنه: «إننى أفهم

المشـاكل التى تمثلها بالنسبة لكم المفاوضات المباشـرة (مع إسرائيل)، ونحن أوضحنا منذ البداية أننا لا نقترح ممارسـة مثل هذا الترتيب، على الرغم من أننا نعتقد، وحسـب تقدم المناقشـات، فإن الأطراف سـوف تجد من الضرورى التقابل معا فى إحدى النقاط إذا كان لابد من قيام السلام بينهم».

وفى نهاية رسالته قال روجرز إنه ينتظر إجابة مبكرة من محمود رياض.

إيضاحات أمريكية

لقد تسـلم السـفير صلاح جوهر وكيل وزارة الخارجية المصرية تلك الرسـالة من دونالد بيرجـس فى ٢٠ يونيو، وفى المقابلة قدم بيرجـس إيضاحات رسمية إضافية من الحكومة الأمريكية إلى مصر، قائلا إنه يرجو أن تضع مصر «فى اعتبارها أن الولايات المتحدة تطلب من الإسرائيليين ما يعتبرون أنها تنازلات مهمة، وخاصة فيما يتعلق بالموافقة على الدخول فى مفاوضات غير مباشرة.. والموافقة على مبدأ الانسحاب قبل المفاوضات».

وقال بيرجس إن «ذلك قد يبدو للقاهرة انه لايتعدى ما يجب على إسرائيل أن تقوم به، ولكن الإسرائيليين سيكون لديهم نفس الشعور بالنسبة لما هو مطلوب من الجمهورية العربية المتحدة أن تقوم به».

«وبالنسـبة لطلب إسـرائيل الحصول على المزيد من الطائرات الأمريكية. قال بيرجس إنـه يـود أن يكون واضحا ودقيقا فيما يتعلق بموقف حكومته، وهو أنها قررت ألا تتخطى الحـد الـذى تعهدت به فى العقود المبرمة من قبل مع إسـرائيل. وذلك خلال الفترة التى تبحث فيها مبادرة السلام الأمريكية، وأوضح أن المقصود بذلك أن يقتصر تسليم الطائرات إلى إسرائيل على الخمسين طائرة فانتوم المتعاقد عليها عام ١٩٦٨، ومائة طائرة سكاى هوك المتعاقد عليها ١٩٦٦، بحيث يبقى مجموع ما لدى إسرائيل فى حدود هذا الإطار».

«ثم ذكر بيرجس أن عدد الطائرات الفانتوم التى تكون إسرائيل قد تسلمتها حتى نهاية شـهر يونيو الحالى سـوف يصل إلى ٤٤، وكما أنها سوف تتسلم ثلاث طائرات فى يوليو، وثلاث أخرى فى أغسـطس. فتسـتوفى بذلك عدد الخمسـين طائرة فانتوم، أما بالنسبة لسكاى هوك. فقال إنه تم تسليم ٨٨ طائرة، والمتبقى من العدد المتعاقد عليه- مائة طائرة- سوف تسلم خلال الشهور القادمة.

أضاف بيرجس أن الحكومة الأمريكية قد أعدت ترتيبات احتياطية تسمح لها بتعويض إسرائيل مستقبلا عما تفقده من طائرات لو تطلب الأمر ذلك.

وقــال بيرجس إن الحكومــة الأمريكية مســتعدة لإيفاد جوزيف سيســكو وكيل وزارة الخارجية إلى «لندن أو أى مكان آخر فى منتصف الطريق» للالتقاء بمسئول من الخارجية المصرية «وأجراء المزيد من المناقشــات حول هذه المقترحات» وانه يكرر «رجاء عدم نشــر المقترحات المقدمة» وإن «روجرز ســوف يدلى خلال الأســبوع القادم بتصريح عن الشــرق الأوســط لن يتضمن ســوى إشــارة عامة» عن هــذه المبادرة الأمريكيــة، دون الإفصاح عن مضمونهــا أو تفصيلاتها، راجيا فى النهاية مقابلة الســيد محمود رياض وزير الخارجية عندما يسمح وقته بذلك.

ومــن وجهــة النظر المصرية حينئذ، فــإن أهم تعهد تقدمه الولايــات المتحدة إلى مصر، طبقا للمحضر الرسمى لتلك المقابلة، والمصنف باعتباره «ســرى للغاية»- هو أنها لن تســلم طائرات جديدة لإســرائيل خلال فترة المبادرة، على الرغم من أن إســرائيل كانت تلح منذ ثمانية شهور للحصول من الولايات المتحدة على ٢٥ طائرة فانتوم ومائة طائرة سكاى هوك جديدة غير المعلن عنها. وكل ما تسجله الولايات المتحدة الآن هو أنها ستقوم فقط بتعويض إسرائيل عن الطائرات التى أسقطها لها المصريون.

إبلاغ القاهرة بتصريحات روجرز مقدما

وعاد بيرجس يطلب مقابلة أخرى. تمت فعلا مع وكيل وزارة الخارجية المصرية بعدها بخمســة أيام. لكى يســلم مصر مقدما نص تصريحات ســوف يدلى بها وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى إلى الصحفيين فى واشــنطن فى نفس اليوم. بعد ســبع ساعات. وأن تلك التصريحات تتم بناء على استفسارات القاهرة وبعض العواصم العربية الأخرى، وتحمل نصا خاصا بأن «الولايات المتحدة تعترف بأن الفلســطينيين هم طرف مهم يجب أن تؤخذ اهتماماته فى الحســبان فى أى تســوية».. وأن روجرز ســيتعمد فى تصريحاته الإشارة إلى «حكومات وشــعوب المنطقة» بما يعنى بالطبع.. الشعب الفلسطينى. وسلمه نص التصريح الذى سيدلى به روجرز فى التاسعة والنصف بتوقيت واشنطن عن المبادرة الجديدة، وكذلك نص الجزء الخاص بـ «الحقوق المشروعة» للشعب الفلسطينى.

وفــى العاشــرة من صباح اليوم التالى عاد دونالد بيرجــس مرة أخرى ليجتمع مع صلاح جوهر وكيل وزارة الخارجية المصرية ويسلم إليه نص ما دار فى المؤتمر الصحفى الذى عقده روجرز وزير الخارجية الامريكى فى واشــنطن فى اليوم السابق، كما قدم إليه أيضا ما ورد

إليه من واشنطن عن نصوص المناقشات التى جرت فى اجتماع ممثلى الدول الأربع الكبرى فى نيويورك قبل يومين.

وطبقا للنصوص الرسمية، فقد أعلن روجرز فى مؤتمرة الصحفى أن الرئيس نيكسون كان قد أمر فى ٢٩ ابريل بعمل دراسة شاملة للموقف فى الشرق الأوسط، وبناء عليها قررت الولايات المتحدة اتخاذ «مبادرة سياسية كبرى» هدفها التحرك «نحو سلام عادل ودائم فى المنطقة، ولكنه لا يجد ملائما فى تلك للحظة الكشف عن تفاصيلها».

وطبقا لمحضر اجتماع بيرجس وصلاح جوهر الأخير هذا. وما يزال مصنفا باعتباره «سرى جدا» فإن بيرجس قال إن حكومتة كلفته بإبلاغ مصر رسميا بأنها: «ما تزال ملتزمة بموقفها الذى سبق أن أوضحته فى مقترحات روجرز السابقة فى أكتوبر وديسمبر ١٩٦٩» «بشأن الانسحاب الاسرائيلى من سيناء ومن الضفة الغربية».

لا تجزئة للاحتلال الاسرائيلى

ثم أشار بيرجس إلى «الخطاب الذى ألقاه الرئيس (جمال عبد الناصر) أمس ٢٥/ ٦ بشأن ضرورة انسحاب إسرائيل من كافة الاراضى العربية، بما فى ذلك مرتفعات الجولان السورية. وقال إنه يقدر ظروف وقوع معركة كبيرة أمس بين إسرائيل وسوريا. كما يدرك أن الانسحاب يرتبط فى التفكير العربى بكافة الأراضى التى احتلت بعد ٥ يونيو ١٩٦٧، إلا إنه يرى شخصيا أن سوريا تسببت أكثر من مرة فى العشرين سنه الماضية فى وقوع مصر فى مأزق، وأنه يأمل ألا تسمح لدمشق بأن تكون لها حق الفيتو على أية تسوية سلمية».

وأجابه وكيل وزارة الخارجية بقوله: «إننا لا نعطى لأى أحد حق الفيتو. إنما يجب أن تدرك واشنطن أنه لا يمكن تجزئة مشكلة الاحتلال الاسرائيلى للأراضى العربية، إن انسحاب إسرائيل يجب أن يكون من كافة الأراضى العربية تنفيذا لقرار مجلس الأمن.

ورد بيرجس بأن سوريا لم تقبل بعد قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.. فقال له وكيل وزارة الخارجية إن من حق سوريا أن تفعل ذلك لأنها لم تكن ترى أى قدر من الجدية فى الموقف الاسرائيلى الامريكى بشأن الانسحاب الكامل. والآن، إذا وجدت سوريا أدلة كافية على وجود مثل هذا الالتزام، فإن الموقف السورى سوف يكون متمشيا مع ذلك، وإلى أن تتوفر لدينا مثل تلك الأدلة فإننا لا نستطيع أن نطلب من السوريين إعلان قبولهم للقرار ٢٤٢.

سيسكو يجتمع بمحمد رياض

فــى نفــس هذا اليوم- ٢٦ يونيو ١٩٧٠- كانت تجرى فى واشــنطن مقابلة أخرى على جانــب كبير من الأهمية، وما تزال محفوظة فى الملفات المصرية باعتبار محضرها «ســرى للغاية» وننشرها بالكامل بسبب انعكاساتها الهامة للغاية على الأحداث التالية.

إن محمــد ريــاض، مدير مكتب وزيــر الخارجية محمود ريــاض (ولا توجد صلة قرابة بينهما) كان بدرجة وزير مفوض وأصبح فيما بعد وزير دولة للشــئون الخارجية فى ســنه ١٩٧٧ إلى أن اســتقال احتجاجا على زيارة الســادات لإسرائيل فى سنة ١٩٧٧ وعين فى مكانه بطرس غالى، كان موجودا فى العاصمة الأمريكية فى تلك الفترة.

وحينما علم جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية بوجود محمد رياض طلب الاجتمــاع به، وهو ما تم فعلا فى واشــنطن صباح الجمعــة ٢٦ يونيو، حيث أبرق محمد رياض إلى القاهرة بنص ما دار فى الاجتماع، بادئا برقيته بأن جوزيف سيسكو: «قال إنه طلــب إلى الاجتمــاع به من أجل أن ينقل إلى القاهــرة تفكيره بالكامل وراء الخطوة الأخيرة وبيان روجرز أمس».

وأضــاف إنهم يفكــرون فى نفس الوقت فــى أن يبرقوا لبيرجس (فــى القاهرة) ليرجو أن يتفضــل الســيد الرئيس جمال عبــد الناصر بمقابلته لينقل إلى ســيادته تفكير الحكومة الأمريكية.

وقال سيســكو: «إن وقتا طويلا مضى منذ بيان الســيد الرئيس (جمال عبد الناصر) فى أول مايو قبل أن يستجيبوا له، إلا أن الحالة الخطيرة التى وصلت إليها المشكلة وما يمكن أن يحــدث مــن تطورات بعدها، خاصة مــا وصلوا إليه من تقدير أن الاحتمالات ليســت طيبة، بالإضافة إلى ما يعتقدونه من أن هذه الاحتمالات غير الطيبة لن يقتصر تأثيرها على الولايات المتحدة ولكنها ستؤثر كذلك على الجمهورية العربية المتحدة ولو لأسباب مختلفة، وإلى أن المشــكلة وصلت إلى مفترق طريق جاد.. كل ذلك جعلهم يمضون ســتة أســابيع فى بحث عميق متكامل للمشكلة من جميع جوانبها، الأمر الذى أسفر عن الورقة التى قدمت إلى القاهرة وغيرها من العواصم التى يهمها الأمر».

وقال سيسكو: إنهم يعلمون طبعا أن ما تضمنته هذه الورقة لن يظل طويلا طى الكتمان...
وأوضــح إنهم أرادوا أن يكون ردهم على الســيد الرئيــس (جمال عبد الناصر) فى أول مايو

باتخاذ هذا الموقف الذى يعتقدون أنه بناء، وأنهم كذلك أشاروا إلى أن هذه الورقة هى الرد المباشر على بيان أول مايو، وأنهم لم يتقدموا بها إلى الاتحاد السوفياتى ولا للاجتماعات الرباعية التى لا شك سيكون لها قوة الدفع بعد أن تكون هذه الورقة قد قبلت.

وقال جوزيف سيسكو: «إنه يريد أن يبين وجهة نظرهم فى تأثير هذه الورقة على الاتصال الثنائى مع الاتحاد السوفياتى وعلى الاجتماعات الرباعية وذلك من الناحية الايجابية أو السلبية، وذكر أنه من الناحية الايجابية فإنها توضح من جديد القصد منه إعطاء المزيد من القوة لمذكرته المؤرخة فى ١٨ أكتوبر ١٩٦٩ (خطة روجرز) بعد أن أعطيت فعلا توضيحات أخرى (فى القاهرة) للسيد صلاح جوهر- الأمر الذى سيفتح الباب نحو محادثات غير مباشرة- وأضاف أن موقف الولايات المتحدة سيكون وقتئذ أكثر قوة وفاعلية».

«أما عن (أن) المحادثات ستكون غير مباشرة فإن قصدهم هذا لا بد أن يكون واضحا تماما، وخاصة بعد المؤتمر الصحفى الذى عقده روجرز أمس، وأضاف أنه عندما يتضح حقيقة موقف الولايات المتحدة الأمريكية بكل ما تمثله من قوة وتأثير فإن هذا سيؤدى بدوره إلى تقدم، خاصة إذا عرف أن الولايات المتحدة تريد أن تلعب دورا محددا فى هذا الشأن. (و) ذكر أن الولايات المتحدة مقتنعة تماما بأن هذا هو الطريق الوحيد الفعال من أجل التقدم نحو حل للمشكلة، وأنها بهذا لا تراعى مصالحها فقط ولكنها تنظر لصالح الجميع فى المنطقة».

وقف إطلاق النار ٣ شهور

ثم انتقل سيسكو إلى الحديث عن «ما تمثله هذه الورقة من تنازلات تقوم بها إسرائيل من ناحية والدول العربية من ناحية أخرى، فمن ناحية إسرائيل فإنها تتنازل عن مطلبها الخاص بالمفاوضات المباشرة، وكذلك تعطى مقدما ارتباطا خاصا بالانسحاب، أما من ناحية دول الجمهورية العربية المتحدة فإنها تعلن ارتباطها بتنفيذ القرار وتعهدها بالعيش فى سلام وقبول إسرائيل داخل حدود آمنه معترف بها، وأضاف أن كل هذا قد أعلنته الجمهورية العربية المتحدة على أية حال، والنقطة الثانية هى الارتباط بقرار وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة شهور، فهذا أيضا سبق أن أعلن السيد الرئيس استعداده لقبوله، بل لمدة أطول- ستة شهور- (كان جمال عبد الناصر قد صرح فى حديث أجراه الدكتور روجرز فيشر أستاذ القانون الدولى فى جامعة هارفارد، بان مصر مستعدة لقبول وقف إطلاق النار

لمدة ستة شهور إذا أعلنت إسرائيل مسبقا التزامها بالانسحاب الكامل من جميع الاراضى العربية المحتلة)، وبذلك فإن هذه الورقة لا تتضمن أى قيد جديد على الجمهورية العربية المتحدة، بل تمثل تنازلات من ناحية إسرائيل، ومن هذه التنازلات وقف إطلاق النار الموقوت بمدة محددة، وأعرب عن أمله فى أن تتفهم الجمهورية العربية المتحدة مدى أهمية هذه الورقة، ومدى ما سيؤخذ من إسرائيل إذا ما وافقت على هذه الورقة».

وقال سيسكو: إنه يأمل فى أن توافق القاهرة على هذه الورقة، وأشار إلى أنه فى نفس الوقت يعلم أنه لن يستجاب لها فى إسرائيل بسهولة. ولكنه بالرغم من ذلك فإن واشنطن ستصر بكل قوتها على أن تتقبل إسرائيل هذه الورقة، حتى لو أدى ذلك إلى حدوث أزمة كبيرة فى التحالف الوزارى الاسرائيلى، وعبر عن أمله فى أن يقدر السيد الرئيس (جمال عبد الناصر) هذه المسئولية التى قبلت الولايات المتحدة أن تتحمل بها فى هذا الشأن.

ومضى سيسكو، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية، يخطر محمد رياض فى تلك المقابلة الهامة بأنهم: «لاحظوا أن السيد الرئيس (جمال عبد الناصر) ركز فى خطاب بنى غازى (فى اليوم السابق) على حقوق الفلسطينيين».

وعلق سيسكو أنه منذ زيارته للمنطقة أدرك أن على الولايات المتحدة أن تضاعف جهودها مع الأطراف- ومن بينهم الفلسطينيون- للوصول إلى تسوية، كما أن روجرز أشار إلى ذلك أيضا فى مؤتمره الصحفى أمس، واقترح سيسكو أن تتشاور الجمهورية العربية المتحدة مع الفلسطينيين فى شأن حل المشكلة. أو أن يدخل الفلسطينيون فى إجراءات الحل، أو بأى طريق يتفق عليه لتأمين أخذهم فى الاعتبار، وأضاف إنهم مستعدون لسماع أى رأى لنا فى هذا الشأن.

وأشار إلى أنه يرجو أن نأخذ فى اعتبارنا أن روجرز لم يصرح بتزويد إسرائيل بالطائرات، وأنه يجب اعتبار ذلك ردا إيجابيا على بيان الرئيس (عبد الناصر)، فى أول مايو.

وأكد سيسكو أنه ليس فى نيتهم إطلاقا الوقوف بيننا وبين الاتحاد السوفيتى فى أى شىء مما ذكره، وأنهم يفهمون تماما العلاقة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى، وأن كل ما يرغبون فيه هو الوصول إلى حل للمشكلة.

وختم سيسكو حديثه بأنه «يرجو أن نتبين ما ستكون عليه هذه الخطوة من نتائج نحو إرساء أسس العلاقات المستقبلية بين الحكومتين المصرية والأمريكية، إذ بينما شعرت الجمهورية العربية المتحدة فى وقت ما بأن should give up الولايات المتحدة. فإن

الولايات المتحدة على العكس من ذلك، لازالت متمسكة بأن تكون علاقتها طيبة بالجمهورية العربية المتحدة».

تعهدات أمريكية رسمية

والواقـع أن أهمية تلك المقابلة تأتي من أن جوزيف سيسـكو قدم فيها تعهدات رسمية باسـم حكومته بأن الهدف هو الانسـحاب الاسـرائيلى الكامل (طبقـا لخطة روجرز فى أكتوبر وديسمبر ١٩٦٩ من سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية، وبأن الولايات المتحدة توافق علـى رفض مصر أى مفاوضات مباشـرة مع إسـرائيل. وعلى ضـرورة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشان الشعب الفلسطينى، والخلاصة. فإن الولايات المتحدة تريد أن تؤكد جديتها الكاملة. ولأول مرة، فى تجاوز المحاولات السابقة لفرض حل منفرد يتعلق بمصر وحدها، فهى الآن تتجه نحو تسـوية شـاملة، وكل ما تأمله هو أن مصر «لا ترمى طوبة» الولايات المتحدة، بل وتجربها هذه المرة.

وقد بلغت صراحة سيسكو فى تلك المقابلة حد إبلاغ مصر بان أى وزير اسرائيلى سيعترض على التزام إسـرائيل بتنفيذ «مبادرة روجرز» هذه فسـوف يتم إخراجه من الحكومة القائمة برئاسة غولدا مائير بمن فيهم بيغن وعدد من الوزراء الآخرين.. بل إن غولدا مائير نفسها إذا فكرت فى المراوغة بالنسبة للجانب السياسى من المبادرة.. فإن الولايات المتحدة سوف تدبر عودة إسحاق رابين من واشنطن إلى إسرائيل لكى يرأس حكومة جديدة تتكيف مع المطالب الأمريكية، (والجزء الأخير ابلغه دونالد بيرجس للقاهرة وبعدها بفترة وجيزة).

□□□

الفصل السابع عشر

أسبوع تساقط الطائرات

- □ مصر تسقط ١٥ طائرة فانتوم وتأسر ٩ طيارين إسرائيليين أحياء
- □ وزير الخارجية الأمريكى يكذب كيسنجر علنا..
- □ كيسنجر يقول:
  سأقطع رقبة سيسكو!
- □ هستيريا فى إسرائيل ومائير تطلب من أمريكا والأطلنطى التدخل لإخراج السوفيات من مصر



فى الوقت الذى كانت فيه وزارة الخارجية الأمريكية تسـير سـيرا حسيسـا فى دعم مبـادرة روجرز وإعطاء مصر إيضاحات كاملة عنها مع تعهدات رسمية.. فى نفس الوقت بـل فـى نفس هذا اليوم كان هناك طـرف آخر داخـل الإدارة الأمريكية يحاول تخريب ما يجرى.. ففى ٢٦ يونيو. وربما فى نفس لحظة اجتماع سيسكو مع رياض، وصل شعور هنرى كيسـنجر بالاكتئاب مما يجرى فى السياسـة الأمريكية الجديدة فى الشرق الأوسط إلى درجة التهور.

ففـى اجتماع عقده كيسـنجر مع الصحفيين قال لهم: «إننـا بصدد محاولة التوصل إلى تسوية على النحو الذى يكفل تقوية نظم الحكم العربية المعتدلة، وليس النظم الراديكالية»- يقصد مصر- وقال كيسـنجر أيضا: «إن النوايا المبدئية للاتحاد السوفيتى من مساعدة مصر (عسكريا) لا علاقة لها بإيمانه هو- أى كيسنجر- بان الوجود المستمر لقوات سوفيتية (فى مصر) يمثل تهديدا استراتيجيا للولايات المتحدة».

ثم أضاف كيسنجر بعد ذلك جملة متهورة قدر لها أن تثير عاصفة دولية على الفور. لقد قال: «إننا نحاول القيام بطرد السوفيات من مصر».

وكيسـنجر يعرف مقدما خطورة لعبة التخريب التى يمارسها ضد «مبادرة روجرز» وهى ما تـزال فـى بدايتها. ولذلك فهو يرجو الصحفيين عدم نشـر ملاحظاته تلك إلا بعد أول يوليو. وحتى فى تلك اللحظة فإنه يشترط عليهم ألا ينسبوها إليه أبدا.

والذى حدث أنه لم ينشـر تلك التصريحات سـوى صحفى واحد، هو موراى مارد فى (الوشـنطن بوسـت) بتاريخ ٢ يوليو. حيـث بدأ قصته الإخبارية بقولـه: أصبحت إدارة الرئيس نيكسـون مقتنعة الآن بأن القوات الجوية السـوفيتية المقاتلة يجب طردها من مصر قبل أن تصبح نقطة انطلاق للسيطرة السوفيتية على البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط فى المدى الطويل.

وعلى الفور انزعج حلفاء الولايات المتحدة فى أوربا الغربية من هذا التشـخيص المتهور الخطـير. فضلا عن عدم صحته، إلى الدرجة التى جعلت البيت الأبيض يصدر على الفور بيانا يقول فيه: إن الموقف الامريكى هو أن الطائرات والطيارين السوفيات (فى مصر) يجب إخراجهم بالوسائل الدبلوماسية. وليس العسكرية.

إن الجميع اكتشفوا بالطبع أن كيسنجر هو الذى أدلى بتلك التصريحات، وظل كيسنجر يقاطع الصحفى الذى نشر القصة لمدة سنة بعدها تحدث قائلا: لقد جعل منى أضحوكة العالم!

وفيما بعد، حينما عقد وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى مؤتمرا صحفيا فى لندن يوم ١١ يوليو تنصل علنا ورسميا من آراء كيسنجر قائلا: (إن الولايات المتحدة لم تفكر مطلقا فى طرد الروس من الشرق الأوسط).

ووقتها بدا هذا التعليق من روجرز متسما بالجرأة والتحدى بالنسبة لكل من يعرفون خفايا صراعات السلطة بينه وبين كيسنجر فى واشنطن، ولأن الرئيس نيكسون يساند روجرز فى سياسته فى الشرق الأوسط، فقد تدفق هذا الشعور بالثقة خلال ذلك الصيف من وزير الخارجية إلى باقى المستويات التالية فى وزارة الخارجية. فجوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الذى يبدو دائما مذعنا للأقوى ومسايرا لاتجاه الريح، بدأ (بغير الأحصنه) على حد تعبير مساعد كيسنجر السابق، وبالتالى بدأ يتجاهل كل التوصيات والاقتراحات التى يرسلها إليه كيسنجر من خلف ظهر وزير الخارجية روجرز فيما يتعلق بالمفاوضات مع مصر وحول وقف إطلاق النار.

سأقطع رقبة سيسكو!

وأدرك كيسنجر على الفور أن محاولاته لتخريب (مبادرة روجرز) غير مجدية، وكان يعبر عن ثورته وغضبه بالسير حول مكتبه والهذيان بطريقة مسرحية قائلا: لو قدر لى مطلقا أن أصبح وزيرا للخارجية، فإن الدماء سوف تسيل فى الطرقات.. وأول من سأقطع رقبته هو سيسكو!

لكن الوقت كان لا يزال مبكرا لاختبار تلك التهديدات المضحكة من كيسنجر. أما الآن فإن جوزيف سيسكو يستمد جرأته من إحساسه بقوة رئيسه الذى يتمتع بالدعم الكامل من نيكسون، وهذا هو الذى يفسر تلك التعهدات القاطعة والصريحة التى يبلغها باسم الحكومة الأمريكية إلى محمد رياض فى ٢٦ يونيو.

والواقع (أن كل هذا الدفع والإكراه لم يكن له أى تأثير على المصريين).. كما أثبتت حرب الاستنزاف، والآن لن يكون للوعود أيضا تأثير فى المصريين. لأن الشىء الوحيد الذى أصبحوا يثقون فيه هو قواتهم المسلحة. فى تلك الفترة كان جمال عبد الناصر فى زيارة إلى ليبيا. من المقرر أن يعود بعدها إلى القاهرة لفترة قصيرة، قبل أن يسافر إلى الاتحاد

السوفيتى فى رحلة مقررة من قبل لمتابعة الإمدادات الجديدة من الأسلحة، وفى خطابه الذى ألقاه يوم ٢٥ يونيو فى بنى غازى بليبيا، والذى أشار إليه الرسميون الأمريكيون عدة مرات، أكد عبد الناصر موقف مصر الثابت من ضرورة انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة، واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى، و (إننا فى مصر نتعرض كل يوم لغارات جوية تقوم بها ما بين ٨٠ طائرة و ٢٠٠ طائرة فى اليوم الواحد، ولكننا مع هذا لن نستسلم أبدا).

وقال جمال عبد الناصر: (إن الإسرائيليين يركزون غاراتهم الآن على منطقة القناة حتى لا يمكنوا الجيش المصرى من أن يعبئ قواته ويحشد جهوده عبر القناة ويهاجم، ولأنهم يعلمون أن الجيش المصرى قد استكمل تدريباته للعبور، فإذا وجد الفرصة حتى يحصل على تعادل جوى فلن تمنعه قوة من العبور).

أما بالنسبة لمبادرة روجرز الأخيرة، التى تم إبلاغها إلى مصر وعبد الناصر فى ليبيا، فقد طلب عبد الناصر من ست جهات محددة أن تدرسها وتتابعها وتحدد تقديراتها لها، وتلك الجهات هى: وزارة الخارجية- وزارة الحربية- المخابرات العامة- اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى- رئاسة الجمهورية- مجلس الوزراء.

تنسيق مصرى- اردنى

ومن البداية قام عبد المنعم الرفاعى وزير الخارجية الاردنى بإبلاغ القاهرة بنصوص الاتصالات الأمريكية معه، وأنه طبقا لتعليمات الملك حسين فإنه لن يرد رسميا على المبادرة الأمريكية إلا بعد التنسيق المسبق مع مصر، وفى السابع والعشرين من يونيو أعد محمود رياض وزير الخارجية مذكرة، من خلاصة ست مذكرات أعدتها أجهزة وزارة الخارجية ومصنفة على أنها (سرى للغاية) للعرض على الرئيس جمال عبد الناصر، وقد خلص محمود رياض إلى أن وليم روجرز يدفع إسرائيل فى تصريحاته إلى (قبول الانسحاب وان تكون المفاوضات غير مباشرة).

وبعد أن وضعت الخارجية المصرية كل الاحتمالات المحيطة بهذا التحرك الأمريكى، انتهى رأيها إلى أنه: (لا يحتوى ردنا على أمريكا على رفض الخطوة الأمريكية، وإنما يحتوى على موافقة إجمالية بالنسبة للخطوات التى تتعرض لنشاط جونار يارنغ، والانسحاب من جميع الاراضى العربية) و(تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة باللاجئين)

الفلسطينيين.. وأن يستهدف الرد المصرى على الولايات المتحدة (إحراج إسرائيل وعزلها عن أمريكا ومحاولة جذب الولايات المتحدة إلى جانبنا، أو على الأقل منعها من تزويد إسرائيل بالأسلحة وخلق جو من الخلافات بين أمريكا وإسرائيل).

أما وزارة الحربية فكان تقديرها هو ضرورة الحصول على أطول وقت ممكن قبل الموافقة على وقف إطلاق النار المؤقت، حتى يمكن استكمال نقل شبكة الصواريخ إلى المواقع المقررة لها فى أقرب خط بامتداد قناة السويس.

ولأن مفتاح الموقف كله، فى رأى عبد الناصر، سيتوقف على القدرة العسكرية المصرية وتعديل ميزان القوى قبل أى حديث، فقد أصبح القرار هو الاحتفاظ بسرية التنسيق العسكرى مع الاتحاد السوفيتى أولا، واستكمال بناء حائط الصواريخ ثانيا.

أما الآن، ولثلاثين يوما تالية، فإن القاهرة الرسمية سوف تمتنع تماما عن أى تعليق- سلبيا أو إيجابيا- على المبادرة الأمريكية.. مكتفية فقط برصد الموقف فيما بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وهنا كان الموقف، كما توقعت وزارة الخارجية المصرية تماما، هو الأزمة الكاملة.. والمتفجرة.

إسرائيل وصدمة المفاجأة

إن دور إسرائيل فى هذا التحرك الامريكى الجديد بدأ حينما تم استدعاء إسحاق رابين السفير الإسرائيلى فى واشنطن ليقابل وليم روجرز وزير الخارجية. وذهب رابين متوقعا أخبارا سارة تتعلق بإمدادات الأسلحة، ففى الأسابيع الثلاثة الأخيرة كان أبا ايبان وزير الخارجية يلاحق سفيره فى واشنطن ببرقيات تطلب منه العمل على استكشاف (ما الذى يجرى تخطيطه على المستوى السياسى).. لكن رابين كان يرد دائما بأنه طالما أن الرئيس نيكسون قد وعد من قبل بالتشاور المسبق مع إسرائيل، فلا داعى للملاحقة.

ولكن إسحاق رابين دخل إلى مكتب وليم روجرز لكى يخبره وزير الخارجية بهذه المبادرة الأمريكية الجديدة، وأنه يجرى تسليمها إلى مصر والأردن فى نفس اليوم، وصعق السفير الإسرائيلى الذى اعتقد من خلال علاقته الحميمة مع كيسنجر بأنه عليم بمواطن الأمور فى واشنطن، لكن روجرز ما يزال لديه المزيد ليخبره به، لقد قال له بلطف: إن إمدادات السلاح الامريكى لإسرائيل سوف تتوقف على ورود رد إيجابى من إسرائيل بشأن المبادرة.

وحاول السـفير الإسـرائيلى أن يعترض على هذا الربط الذى يتم لأول مرة بين إمدادات السـلاح الامريكى والتحرك السياسـى، ولكـن كلماته (لم تترك أى انطبـاع له قيمة على روجرز).

وفى إسرائيل كان أبا ايبان وزير الخارجية عائدا لتوه من رحلة فى أوربا الغربية فأخبره المديـر العام للوزارة، فى المطار، بأن السـفير الامريكى فى تل أبيـب، والوورث باربور، مجتمع الآن مع رئيسـة الـوزراء غولدا مائير فى منزلها، حاملا إليها رسـالة من الرئيس ريتشارد نيكسون، وبالطبع توجه ايبان على الفور إلى منزل رئيسة الوزراء.

إن مائير كانت قد رفضت قبل يومين تلك المبادرة الأمريكية بمجرد إبلاغها بها، مقررة أن مجلس الوزراء سيرفضها بالكامل. والآن فإن الرئيس نيكسون، فى رسالته هذه إلى مائير يطلـب منها ألا ترفض المبادرة الأمريكية قبـل ورود رد من مصر والأردن، وأنه فى جميع الأحوال يتوقع من إسرائيل ردا ايجابيا.

لكـن غولـدا مائير كانت تدرك تمامـا معنى تلك المبادرة الأمريكيـة. إنها تنفيذ لخطة روجــرز التى رفضتها إسـرائيل رسميا وعلنا فى ديسـمبر الماضى لأنها تعنى الانسـحاب الإسـرائيلى الكامل من سـيناء والضفة الغربية. والمبادرة ترفض صيغة المفاوضات المباشرة التـى تحلم بها إسـرائيل كمظهر لفرض إرادتها على مصر. والمبـادرة تربط لأول مرة بين إمدادات الأسـلحة الأمريكية وبين التحرك السياسى لإسرائيل. صحيح أن المبادرة تقتضى وقف إطلاق النار مع مصر، وهو ما كانت إسرائيل تحث عليه الولايات المتحدة فى الأشهر الأخيرة، وخصوصا منذ بدأت شـبكة الصواريخ المصريـة الجديدة فى العمل، ولكنه وقف لفترة مؤقتة، وليس دائما كما تريد إسرائيل.

رابين ينصح مائير بعدم الرفض

وبعده بثلاثة أيام بعثت غولدا مائير بمسـودة ردها على رسـالة نيكسون إلى سفيرها فى واشنطن تطلب منه التعليق. ويقول إسحاق رابين إنه بمجرد أن قرأ مشروع الرد (تجمدت من الرعب.. إن رئيسة الوزراء ترفض المبادرة نهائيا، وبلا غموض. وبعثت إليها ببرقية، متوسـلا ألا تبعث بهذا الرد، مقترحا عليها اسـتدعائى إلى إسـرائيل فورا لكى أشرح لها وجهة نظرى. وبمجرد وصولى عقدت ومع عدد من الوزراء جلسـة طويلة. حيث نصحت بالاكتفاء بما قالته رئيسـة الوزراء للسـفير الامريكى شفويا. وأصرت غولدا مائير على أنها

يجب أن ترد على رسالة الرئيس كتابة، ولكنها أخيرا أخذت برايى حول مضمون الرد، بعد أن حذفت منه رفضها لمبادرة روجرز.

ثم يضيف إسحاق رابين: «مع عودتى إلى واشنطن فى مساء ٣٠ يونيو وجدت أن هناك تطورا دراميا فى الجبهة العسكرية (مع مصر) نحى جانبا كل اهتماماتنا. فخلال الليلة السابقة تحرك نظام الصواريخ المصرى نحو خط جديد على مسافة ٢٠ كيلومتر غرب القناة. بل إن عددا من بطاريات الصواريخ، وبأطقم مصرية، تم تركيبة فى مسافة أقرب من قناة السويس- على الرغم من أن الصواريخ ذات الأطقم السوفيتية لم تعبر هذا الخط- أكثر من ذلك، فإن هجوما على شبكة الصواريخ المصرية لم يكن ناجحا، وخلال ذلك تم إسقاط طائرات فانتوم عديدة (بواسطة المصريين) لقد كان هذا موقفا جديدا تماما، ومحفوفا بالمخاطر بدرجة كبيرة».

وبناء على إلحاح إسرائيل، بما فيه استغاثات من موشى ديان. قال الرئيس نيكسون فى حديث تلفزيونى يوم ٢ يوليو: إنه يعتبر التحرك السوفيتى الأخير عملا هجوميا، وهو يحذر السوفيات بلهجة قوية من أن الشرق الأوسط منطقة «شديدة الخطورة كمنطقة البلقان قبل الحرب (العالمية) الأولى، وعلى القوتين العظميين أن تكونا شديدتى الحرص فى تصرفاتهما لمنع حدوث مواجهة لا يريدها أى منهما».

ولكن، لا السوفيات تأثروا، ولا المصريون توقفوا عن التقدم بمواقعهم الصاروخية.

إسقاط ١٥ طائرة إسرائيلية فى أسبوع

هكذا، وعلى حد تعبير إسحاق رابين من موقعه كسفير فى واشنطن، أصبحت «إسرائيل داخل قيد مزدوج بشكل مرعب، فمن ناحية كان المضمون السياسى لمبادرة روجرز غير مقبول لإسرائيل، على الرغم من أنها لم تقل ذلك بعد، ومع ذلك ففى نفس الوقت، لو أن المصريين رفضوا مشروع وقف إطلاق النار فإن طائراتنا ستكون عاجزة ومشلولة أمام شبكتهم الصاروخية التى زحفت أماما فى اتجاه القناة».

والآن فإن المصريين لم يرفضوا ولم يقبلوا- بعد- وقف إطلاق النار. إنهم فقط مستمرون فى التقدم بحائطهم الصاروخى أماما فى اتجاه القناة برغم التضحيات، إنهم فى سباق دائم مع الغارات الإسرائيلية الجوية المكثفة (وقد بلغت ٥٠٠ غارة فى شهرى يونيو ويوليو فقط) ولكن «التطور الدامى فى الجبهة العسكرية» الذى صدم إسحاق رابين

بمعرفته فى مساء ٣٠ يونيو فى واشنطن لم يكن بأقل من نجاح شبكة الصواريخ المصرية من تدمير ثمانى طائرات إسـرائيلية قاذفة مقاتلة من طراز فانتوم وسـكاى هوك، وفى ٢ يوليو أسـقط المصريون ٣ طائرات، بعدها بثلاثة أيام دمروا طائرتين أخريين، وكلها من طراز فانتوم- أحدث ما أخذته إسـرائيل من الترسـانة الأمريكية- فقط أسقط المصريون لإسرائيل ١٥ طائرة خلال أسبوع واحد- سمى أسبوع سقوط الطائرات- بالإضافة إلى أسر تسعة طيارين أحياء.

وسـجلت القوات المصرية غرب القناة حوارا باللاسلكى بين طيار اسرائيلى وزميله أثناء فرارهمـا عائدين بطائرتيهما: إن الصواريخ فى المنطقـة كعش الغراب، كلما ضربنا واحدة ظهرت أخرى، إن المصريين زرعوا الأرض بالصواريخ غرب القناة.

هستيريا فى إسرائيل

وخلال الأيام التالية سـوف تصبح القيادات الإسـرائيلية فى حالة هستريا بسبب نجاح الشبكة الصاروخية المصرية الجديدة، إلى درجة أنه فى منتصف يوليو سوف تطالب غولدا مائير رئيسـة الوزراء علنا فى حديث نشـرته لها مجلة دير شـبيغل الألمانية الغربية، بأن «تقـوم قوات حلف شمال الاطلنطـى والولايات المتحدة معا بإرغام الروس على الخروج من الشـرق الأوسط، مواجهة شـبيهة بأزمة الصواريخ السوفيتية فى كوبا سنة ١٩٦١» بحجة أن هذا هو فقط الذى سيردع المصريين وعبد الناصر!، ولكن عبد الناصر والمصريين فى تلك اللحظـة لم تكـن لتروعهم أى تهديدات- باطلنطى أو غير اطلنطى- عن التقدم بشـبكتهم الصاروخية نحو القناة موقعا بعد موقع، وفى ٢٨ يونيو، عشية سفر عبد الناصر إلى موسكو فـى رحلته المقـررة من قبل، طلب دونالد بيرجس رئيس قسـم رعايـة المصالح الأمريكية بالقاهرة، مقابلته لإبلاغه برسـالة آلية قادمة من واشـنطن، ولم يقابله الرئيس جمال عبد الناصـر، فاجتمع بمحمود ريـاض وزير الخارجية.. حيث أبلغه أن الوقت الآن مناسـب جـدا للبحث عن حل سـلمى حقيقـى، وأن أمريكا هى الدولة الوحيـدة التى يمكنها أن تمـارس ضغطا على إسـرائيل». ولذلك فإن الولايـات المتحدة ترجو من مصر أن تترك لها «حرية اختيار الأسـلوب المناسب» وأنه نظرا لاهتمامات مصر بالتسوية الشاملة فإن المبادرة الأمريكية «لا تسـتبعد سـوريا، إذ يكفى أن تعلن سـوريا عن قبولها لقرار مجلس الأمن، وحينئذ يمكن إدخالها فى موضوع التسوية».

عبد الناصر فى موسكو

وأصبحت رحلة عبد الناصر إلى موسكو فى ٢٩ يونيو هى ثالث رحلة له منذ حرب يونيو ١٩٦٧، ومن الجلسة الأولى للمباحثات مع القيادة السوفيتية كان تركيز جمال عبد الناصر على الجانب العسكرى حيث استكملت القوات المسلحة التدريبات اللازمة لعبور القناة، هكذا تقرر إمداد الدفاع الجوى بشبكة جديدة من الأجهزة الالكترونية، بالإضافة إلى معدات جديدة متطورة لعبور قناة السويس، وصفقة أسلحة يصل ثمنها إلى أربعمائة مليون دولار يتم تخفيض نصف ثمنها عند التسديد، وكل الأسلحة والمعدات الالكترونية تصل إلى مصر قبل نهاية سنة ١٩٧٠ طبقا لجدول زمنى تم الاتفاق عليه.

وبالنسبة لإمداد مصر بعشر طائرات من قاذفات القنابل طويلة المدى فقد تم الاتفاق على تجهيز مطارين فى أسوان ووادى سيدنا تعمل منهما تلك الطائرات، ولكن بشرط أن تظل الطائرات ذاتها فى الاتحاد السوفياتى، على وعد بإرسالها إلى مصر خلال ست ساعات من طلبها.

وكان دافع السوفيات إلى ذلك هو الخشية من أن يؤدى وجود تلك الطائرات فى مصر إلى «مضاعفات دولية» قد تؤدى إلى قيام الولايات المتحدة بإمداد إسرائيل بصواريخ خاصة لمواجهتها.

وفى الجانب السياسى من المباحثات تململ السوفيات فى البداية من اتجاه عبد الناصر لقبول المبادرة الأمريكية «مبادرة روجرز»، على رغم قوله: إنه لا يثق بالمرة فى أنها ستسفر عن شىء، وكان اعتراض بريجنيف منصبا على أن الولايات المتحدة، بعد كل ما دعمت به إسرائيل ستجنى الثمار السياسية من خلال مبادرة تقدمها هى، بعيدا عن المشاورات الرباعية فى نيويورك، أو المشاورات مع الاتحاد السوفياتى. وكذلك تململ السوفيات من الطريقة الخبيثة التى قدمت بها المقترحات الأمريكية.

ولكن عبد الناصر طمأن السوفيات بأنه شخصيا لا يرى فى المبادرة سوى أنها رجوع من الأمريكيين إلى الالتزام بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنه. ورجوعهم كذلك عن المفاوضات المباشرة مع إسرائيل بعد أن كانوا مصرين عليها.

ولكن السوفيات لم يكن لهم اعتراض على المبادرة الأمريكية من حيث المضمون، وإنما انصب اعتراضهم على الشكل فقط.

وقد انتهت مشـــاورات وزير الخارجية محمود رياض وأندريه غروميكو إلى بلورة موقف سياســى لم يخرج عــن الخطوط التى كانت وزارة الخارجيــة المصرية قد أعدتها أصلا فى مذكرة لها بالقاهرة بتاريخ ٢٧ يونيو.

□□□

الفصل الثامن عشر

مصر تقبل رسميا مبادرة روجرز

- وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لرئيسة وزراء إسرائيل: سأسمع منك كلمة واحدة فقط.. هل تقبلين المبادرة أو لا؟
- بيغن يستقيل ويقول: المبادرة ميونيخ جديدة فى الشرق الأوسط.
- مائير تطلب من رابين: اذهب إلى كيسنجر فهو عيننا فى البيت الأبيض
- تفاصيل الحوار الساخن على الهاتف بين مائير وسيسكو

بينما كان جمال عبد الناصر فى موسكو، ويخطر السوفيات قبوله لمبادرة روجرز، بادر أنور السادات نائب رئيس الجمهورية فى القاهرة بإصدار بيان باسم اللجنة السياسية فى الاتحاد الاشتراكى، يقرر فيه: إن مصر ترفض المبادرة الأمريكية.

لقد كان هناك كثيرون فى مصر وخارجها، بل وفى داخل الإدارة الأمريكية ذاتها، يتوقعون من عبد الناصر بالفعل هذا الموقف لأنه فقد ثقته بالسياسة الأمريكية منذ وقت طويل ولم يكن هذا سرا، فقد أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر علنا فى خطاباته وأيضا إلى وكيل وزارة الخارجية الامريكى عند مقابلته فى القاهرة، وربما توسم أنور السادات أنه لو سبق الجميع فى مصر إلى استلهام ما قد يفعله عبد الناصر، فإن هذا ربما يقربه أكثر وأكثر من رئيسه، لكن المشكلة هنا هى أن عبد الناصر وجه لوما شديدا إلى السادات بمجرد أن رآه ضمن مستقبلية فى مطار القاهرة بعد عودته من موسكو لهذا السبب، ولأسباب أخرى،.. وحينما سينعقد مؤتمر وشيك طارئ للاتحاد الاشتراكى لكى يشرح عبد الناصر رد مصر على «مبادرة روجرز».. سيلاحظ الجميع اختفاء أنور السادات تماما.. فقد أشاع السادات وقتها أنه يلازم الفراش بسبب المرض.

وقد روى لى الدكتور مراد غالب سفير مصر فى موسكو وقتها، والذى كان يقضى إجازة قصيرة بالقاهرة حينئذ، أنه أثناء قيامه بزيارة السادات فى منزله جاءت قرينة الرئيس جمال عبد الناصر ومعها إحدى بناته لكى تزورا النائب المريض، وأراد الدكتور مراد غالب الانصراف، ولكن السادات أشار إليه بالبقاء، وبعد انصراف قرينة عبد الناصر وابنته، بدر من السادات تعليق ممتعض يتمتم فيه كما لو كان يكلم نفسه: «آل يعنى.. من كتر المحبة جاين يزورونى»!. وبعدها تنبه السادات فجأة إلى انه ليس بمفرده، فغير موضوع الحديث!

المهم أن عبد الناصر بادر بعقد اجتماع لأعضاء اللجنة التنفيذية العليا فى ١٨ يوليو اخبرهم فيه بصفقة الأسلحة الجديدة مع الاتحاد السوفياتى وأن السوفيات «وافقوا على ٩٥٪ من طلباتنا من الطائرات والصواريخ الجديدة وطائرات الهليوكوبتر وسيارات النقل، على أن تسدد ثمن بعضها مثل سيارات النقل بالعملة الصعبة. أما باقى الأنواع فيسدد ثمنها كالمعتاد بالأسلوب المريح».

كما وافق السوفيات «أيضا على إرسال معدات وأجهزة اليكترونية حديثة خاصة بالتشويش على الرادارات الإسرائيلية والموجودة فى طائرات الفانتوم» وأن «فترة ثلاثة الشهور التى سيتوقف خلالها القتال ستساعدنا كثيرا على السيطرة العسكرية على منطقة القناة، وذلك بفضل الإعداد الكبيرة من كتائب الصواريخ الجديدة، مع استمرار بقاء وحدات الدفاع الجوى الروسية فى عمق البلاد، وعلى رغم أنه كان مقررا أن تعود الوحدات الروسية إلى بلادها فى أواخر هذا الشهر بمجرد وصول الأطقم المصرية التى تم تدريبها هناك كما كان متفقا عليه من قبل، إلا أنى طلبت منهم إبقاء الوحدات الروسية فى مواقعها، على أن تسلم الأطقم المصرية صواريخ أخرى لتتحرك بها سرا إلى ضفة القناة» قبل بدء سريان وقف إطلاق النار، وهكذا «سيكون ضعف عدد كتائب الصواريخ الموجودة، وستظل معنا الوحدات الروسية لمدة ستة أشهر أخرى».. وأن «هناك إحدى وعشرين سفينة سوفيتية ستصلنا الشهر المقبل (أغسطس) محملة بالجنود المصريين المدربين على الصواريخ الجديدة ومعهم كافة الصواريخ ومعداتها، وقد طلب الروس إنزالهم من السفن أثناء الليل حرصا على السرية».

وبعد المناقشة التفصيلية فى اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للرد المصرى على «مبادرة روجرز».. عقد عبد الناصر فى اليوم التالى اجتماعا لمجلس الوزراء لمناقشة نفس الموضوع.. وكان من بين تعليقاته التى سجلها محضر الاجتماع قوله: «تحركنا الأخير وقبولنا لمشروع روجرز له مزايا وعيوب، وهناك مصريون سيعارضون المشروع، وآخرون سيؤيدونه مرددين: ما قلنا من زمن أن الأمريكان هم اللى يحلوا القضية»!

الرد المصرى الرسمى

فى الواقع أن المؤتمر الطارئ المفتوح فى اليوم التالى للاتحاد الاشتراكى سجل معارضة عنيفة وتخوفات أعنف، من قبول «مبادرة روجرز»، لكن جمال عبد الناصر نجح فى إقناع المؤتمر بأن المبادرة مجرد تنفيذ لقرار مجلس الأمن، وأنه شخصيا ليس لديه سوى نصف فى المائه من الأمل بتنفيذها: وإنما هو يرى قبولها بالدرجة الأولى من أجل اعتبارات عسكرية خاصة بنا.

وكان محمود رياض وزير الخارجية قد استدعى دونالد بيرجس المشرف على قسم رعاية المصالح الأمريكية بالقاهرة لمقابلته يوم ٢٢ يوليو. وقبل أن يسلمه رد مصر كرر من جديد عليه موقف مصر الثابت بضرورة انطباق نفس مبدأ الانسحاب الكامل بالنسبة للجولان السورية.

وضرورة الالتزام بحقوق الفلسطينيين، ومن جانبه كرر بيرجس التأكيدات الأمريكية بشأن النقطتين- وذلك للمرة الثالثة خلال ستة أسابيع.

(وفى تلك الفترة كان المقصود بالحقوق الفلسطينية هو حق الفلسطينيين منذ سنة ١٩٤٨ فى العودة إلى ديارهم أو الحصول على التعويض لمن لا يرغب فى العودة).

ولأن مصر لم تكن تريد أن تترك شيئا للاجتهادات والتفسيرات الغامضة، بعد كل تجارب الماضى، فقد تضمن الرد الذى سلمه محمود رياض رسميا إلى بيرجس ارتباط الموافقة المصرية بنقطتين:

أولا: الانسحاب الاسرائيلى الشامل من جميع الاراضى العربية المحتلة.

ثانيا: التمسك بالحقوق الكاملة للشعب الفلسطينى كما حددتها قرارات الأمم المتحدة.

وكان نص الرد المصرى على النحو التالى:

القاهرة- ٢٢ يوليو ١٩٧٠.

«عزيزى السيد وزير الخارجية..»

«لقد تسلمت رسالتك المؤرخة فى ١٩ يونيو ١٩٧٠ والتى تشير إلى فيها إلى الموقف الحرج فى الشرق الأوسط وقلت إنه من صالحنا المشترك أن تحتفظ الولايات المتحدة وتقوى روابط الصداقة مع كل شعوب ودول المنطقة، وعبرت عن استعدادكم للقيام بنصيبكم نحو هذا الهدف.. إنك أيضا قمت بحث الآخرين المعنيين على التحرك معكم لانتهاز هذه الفرصة.

وفى رسالتك عبرت أيضا عن الرأى بأن الوسائل الأكثر فعالية لتحقيق تسوية ستكون بأن تبدأ الأطراف تحت رعاية السفير جونار يارنغ مساعد السكرتير العام للأمم المتحدة فى وضع الخطوط التفصيلية اللازمة لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧.

ولابد من ملاحظة أننا. وكذلك أصدقاؤنا وفى مقدمتهم اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، طالبنا بضرورة السعى إلى التأكد من نجاح مهمة السفير يارنغ فى تطبيق قرار مجلس الأمن. إننا. جنبا إلى جنب مع أصدقائنا، كنا وما نزال نبذل كل جهد لتحقيق هذه الغاية.

إن الموقف شديد الخطورة فى الشرق الأوسط هو نتيجة العدوان الاسرائيلى واحتلالها للاراضى العربية، ولأن احتلال إسرائيل المستمر للاراضى العربية ومثابرتها على العدوان ضد الشعوب العربية يتجه بالموقف إلى المزيد من التفاقم......

بعــد أربعة أيام وفى ٢٦ يوليــو ١٩٧٠ بعث وزير خارجية الأردن الرد الأردنى الرسمى إلى وزيــر الخارجية الامريكى وليم روجرز.. لقــد قبلت الأردن بالمبادرة الأمريكية الجديدة بعــد التنســيق الكامل مع مصر، وبعــد أن أخطرتها مصر بردهــا، وأصبحت تلك المبادرة الأمريكية- المعروفة باســم «مبادرة روجرز»- هى المحصلة السياســية لحرب الاســتنزاف المصرية الشهيرة.

ولم تكــد واشــنطن تتلقى رد مصر بقبول مبادرة روجــرز (التى هى تنفيذ لخطة روجرز) حتى بدأ الرئيس نيكسون بنفسه ينغمس تماما فى تحريك الأحداث.

وفى مســاء نفس الليلة، ٢٣ يوليو ١٩٧٠. قام جوزيف سيســكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكيــة بإخطار الســفير الاســرائيلى رابين بــان «مصر قبلت بمبــادرة روجرز ضد كل التوقعات».

ويقول رابين: «فيما بعد عرفت أنهم (أى المصريين) قد صاغوا ردهم بطريقة ماهرة جدا، فهم يقبلون بالمبادرة ولكنهم يؤكدون فى نفس الوقت تفسيرهم المعروف للقرار ٢٤٢».

أما إسرائيل فقد جاءت أخيرا لحظة الحقائق المريرة.. حيث أصبح على الإسرائيليين أن يتجرعوا دواء.. أقله حلو ويتمثل فى وقف إطلاق المصريين لحرب الاستنزاف.. وأكثره علقم ويتضمن أن هذا الوقف مؤقت، وأن على إسرائيل أن تنسحب بالكامل من سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية. بالإضافة إلى قرار حقوق الفلسطينيين.

استقالة بيغن وكتلة جحال

ويقول أبا ايبان وزير خارجية إسرائيل: إنه بعد دراسة الموقف من كل جوانبه: «شعرنا بأن مخاطر قبول المشروع الأمريكى لوقف إطلاق النار أقل من مخاطر رفضه، إن رفض وقف إطلاق النار ســوف يعنى استمرار الحرب القاسية مع مصر، واحتمال انغماس السوفييت، وتراجع الإخلاص الامريكى».. ولكن» مناحيم بيغن ومؤيديه فى مجلس الوزراء (كان بيغن منــذ حرب يونيو ١٩٦٧ وزيرا فى الحكومــة ممثلا مع آخرين لكتلة جحال التى أصبحت فيما بعد هى الليكود) يجادلون بان الولايات المتحدة ربما تكون راغبة فى قبول ذلك الجزء الملائم لنا من المشروع. وهو وقف إطلاق النار، بغير أن نعطى العرب فى مقابل ذلك إمكانية التفاوض السياســى، أما بقيتنا (فى مجلس الوزراء) فقد وجدنا أن هذا المنطق من الصعب القبول به. فمن يريد وقف إطلاق النار عليه أن يقبل بشروطه. والشروط هى: القرار ٢٤٢

واستئناف يارنغ لمهمته، وبعد مناقشة متوترة قاد بيغن حزبه خارج الائتلاف، على الرغم من أن نصف مؤيديه كانوا راغبين في البقاء.

إن ما حدث في إسرائيل لم يكن بأقل من انهيار الحكومة الائتلافية القائمة، حيث انسحب الوزراء الستة الذين يمثلون كتلة جحال- وهي كتلة كانت تضم حزب حيروت والحزب الليبرالي- وهم مناحيم بيغن وزير الدولة، والجنرال عيزرا وايزمان وزير المواصلات، وحاييم لأنداد وزير التنمية (والثلاثة من حزب حيروت) ويوسف سابير وزير التجارة والصناعة، وايلي ميلخ وزير البريد، وأوري دولتين وزير الدولة- والثلاثة من الحزب الليبرالي.

وكان سبب إصرار مناحيم بيغن على الانسحاب من الحكومة الائتلافية برئاسة غولدا مائير هو: أن مبادرة روجرز لا تعني فقط الانسحاب الاسرائيلي الكامل من سيناء، ولكنها تعني أيضا الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الضفة الغربية لنهر الأردن- وزيادة على هذا: حق الفلسطينيين في العودة أو التعويض.

ميونيخ جديدة

وأعلن بيغن غاضبا ومحتجا: إن المبادرة الأمريكية معناها «ميونيخ جديدة» في الشرق الأوسط، (وكان بذلك يشير إلى اتفاقية ميونخ الشهيرة التي جرى توقيعها مع أدولف هتلر في سنة ١٩٣٨، وسلمت إليه فيها بريطانيا وفرنسا بكل طلباته). وكان الجزء الخاص بحقوق الفلسطينيين يمثل كابوسا لا يطاق بالنسبة لإسرائيل، ومن هنا بعث الرئيس نيكسون برسالة إلى غولدا مائير يقول لها فيها: «.. إننا لن نضغط على إسرائيل لكي تقبل حلا لمشكلة اللاجئين (الفلسطينيين) يغير بشكل أساسي من الطابع اليهودي لدولة إسرائيل، أو يعرض أمنها للخطر».

ويعني هذا الوعد الغامض أن الولايات المتحدة لن تضغط على إسرائيل لقبول عودة مئات الألوف مثلا من الفلسطينيين العائدين إلى ديارهم فيما قبل سنة ١٩٤٨ حتى لا يغير هذا من الطابع اليهودي لإسرائيل.

على أية حال: أذاعت الحكومة الإسرائيلية الطلبات الأمريكية بعد خروج مناحيم بيغن ووزرائه الخمسة من الائتلاف (وهو ما أخطر به سيسكو مصر في ٢٦ يونيو) وهذا التطور «جعل الحكومة أكثر هدوءا» على حد تعبير أبا ايبان وزير الخارجية: إن الحكومة الإسرائيلية

أخطرت الولايات المتحدة رسميا بقبولها بالمبادرة.. على الرغم من أنها ستظل تساوم فى التفاصيل حتى أخر لحظة ممكنة لتخرج باى مكسب يعوض جزاء مما خسرته».

أزمة بين إسرائيل وأمريكا

ويقول إسحاق رابين: «إن المسافة بين واشنطن والقدس أقل من ستة آلاف ميل، ومع تطور الاتصالات الحديثة يمكن الإبراق بالرسائل من عاصمة إلى أخرى خلال دقائق، ولكن، فى الفترة ما بين ٣١ يوليو و١٠ أغسطس ١٩٧٠ كانت هاتان العاصمتان على مسافة سنوات ضوئية برغم كل الاتصالات الجارية بينهما، لقد كان كل شيء فى حالة تشوش وارتباك، والاتهامات العنيفة كان يجرى قذفها من جانبى المحيط. إن العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة كانت فى حالة من الفوضى الكاملة، وعلى الرغم من أننى، الذى كنت فى الوسط، أستطيع أن افهمها، إلا أننى لست متأكدا على الإطلاق من أننى أستطيع أن أفسرها».

لقد كان هناك أولا السفير جونار يارنغ، ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة فى الاتصالات المتعلقة بتنفيذ القرار ٢٤٢، والذى تنص المبادرة الأمريكية على استئناف لمهمته عقب تلقيه لورقة واحدة من إسرائيل ومصر والأردن، بصياغة محددة أخطر بها روجرز وزير الخارجية الامريكى مسبقا كل الأطراف. أن مصر أبلغت ردها المكتوب فى صياغة اعتبرها إسحاق رابين «ماهرة جدا» على الرغم من أنها لم تكن سوى تعبير عن موقف مصر الثابت. والأردن بعد التشاور مع مصر وتلقيه صورة من الرد المصرى، بعث به فى ٢٦ يوليو برده إلى كل من روجرز ويارنغ، ملتزما بنفس الصياغة المصرية. أما إسرائيل فإنها أخطرت الولايات المتحدة فى ٣١ يوليو بموافقتها، والولايات المتحدة بدورها نقلت إلى السفير يارنغ شفويا موافقة إسرائيل، لكن السفير يارنغ يصر أولا على ألا يباشر مهمته إلا بعد أن يتلقى رد إسرائيل، كتابة، من هنا يعتبر الإسرائيليون (إسحاق رابين مثلا فى مذكراته صفحة ١٤١) أن يارنغ «رجل غير مرن ويفتقر إلى الخيال»! لكن تعامل يارنغ السابق مع إسرائيل علمه هذا الدرس من قبل، والآن- والأمريكيون يحثونه على مباشرة مهمته على وجه السرعة- فإنه ما زال «يصر أولا على أن يتلقى رد إسرائيل.. كتابة».

وكان يارنغ معه كل الحق، ففى إسرائيل توالت اجتماعات غولدا مائير مع السفير الامريكى فى إسرائيل باربور، أملا فى الحصول على موافقته على الصياغات المختلفة

التى تعرضها عليه الحكومة الإسـرائيلية لورقة واحدة أصبح عليها أن تبلغها إلى روجرز.. ويارنـغ، أن ترحب إسـرائيل بالالتزام بوقف إطلاق النار المؤقت لمدة ثلاثة شـهور- وهو الجـزء الوحيـد الواضح فى الرد- ترحيـب واضح بلا لف ولا دوران لأنـه الجزء الوحيد الذى تتلهف إسـرائيل للحصول من مصر عليه. أمـا الصياغات المراوغة فتبدأ فى البندين الأخريين: الالتزام بتنفيذ القرار ٢٤٢ بكل أجزائه. وترتيبات استئناف يارنغ لمهمته.

حوار ساخن على الهاتف بين مائير وسيسكو

وأبرقت جولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية إلى سفيرها فى واشنطن- إسحاق رابين- تطلب إليه أن يقنع جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية بالاتصال بها تليفونيا. وحينما نقل رابين الطلب إلى سيسكو، رد عليه سيسكو بوضوح بأنه ليس من سلطته المبادرة بالاتصال بغولدا مائير. ولكن.. إذا بادرت هى بالاتصال به تليفونيا.. فأهلا وسهلا.

وشرح رابين الموقف لرئيسة وزرائه. فقالت: لا بأس.. سأطلبه أنا!

ولكن سيسـكو لأنه أحس مسـبقا بان غولدا مائير ربما تريد أن تراوغ، طلب من إسحاق رابين أن يحضر إلى مكتبه، ويستمع معه إلى مكالمة رئيسة وزرائه من سماعة إضافية!

ولم يكن أمام السـفير الاسـرائيلى فى واشـنطن سـوى أن يطيع تعليمات وكيل وزارة الخارجيـة الأمريكيـة. على رغم إدراكه بأنه «لم يكن هذا أمرا سـهلا لشـخص فى مثل موقفى كسـفير. حيث لا أستطيع أن استرق السـمع على مكالمة من هذا النوع بغير معرفة رئيسـة الوزراء، ومن ثم ففى نقطة من حديثها التليفونى، تدخلت لأخبر غولدا مائير بأن سيسـكو طلب منى أن استمع (إلى المكالمة). لقد توقفت غولدا مائير عن الحديث فجأة فى الطرف الآخر، وعرفت أننى لا أستطيع تحمل الموقف جيدا، على أية حال. قالت غولدا مائير بعدها إن الولايات المتحدة قد زورت توقيع إسـرائيل، وصعق سيسـكو.. فتسـاءل: ماذا تقصدين بقولك إننا زورنا توقيعك؟ قالت غولدا مائير: إنكم أخطر تم يارنغ بأننا قبلنا المبـادرة.. قبل أن نقبلها! هذا ما اقصده من كلمة «زورتم» توقيعنا. أننى توصلت إلى اتفاق مع باربور (السفير الامريكى فى إسرائيل).. والآن فإن الولايات المتحدة تنكر هذا الاتفاق، إنكم لا تستطيعون صياغة إجابتنا باسمنا. ونحن لدينا تحفظات على صياغة يارنغ.

«لقد كان هذا حوار الطرشـان، وأسـتطيع فقط أن أصف تلك المكالمة بأنها مأساوية. إن سيسـكو شعر بالاستغراب والدهشـة من شكوى غولدا. فسألها: أنت تلقيت نص مبادرتنا

منـذ أسـابيع، ورقة واحـدة، غولدا ترد: نعـم.. ورقة واحدة. سيسـكو يقول: تلك هى المبادرة، هل توافقين عليها.. أو ترفضينها؟.

«لم تسـتطع غولدا أن تفهم سـبب غضب سيسكو فقالت له: ماذا تعنى بسؤالك عمًا إذا كنا نوافق على المبادرة؟ هل يجب أن نوافق على صياغتكم؟ إن لدينا صياغتنا الخاصة»!

«ولم يفهم سيسـكو ما هى صياغتهم الإسرائيلية. ولم تفهم غولدا (مائير) السبب فى أن سيسكو أصبح صلبا».

اذهب إلى كيسنجر

والواقع أن إسرائيل كانت طرفا فى الصراع الداخلى على السلطة داخل الإدارة الأمريكية بين هنرى كيسـنجر ووليم روجرز. فإسرائيل تعتبر كيسـنجر هذا رجلها وعينها وأذنيها داخل الإدارة الأمريكية.. بينما روجرز ليس كذلك والذى تريد غولدا مائير أن تفعله هو أن تقدم ردا من عندها هى- بالتشـاور غير الرسمى مع كيسنجر مسبقا- يمكن أن يفتح الباب للثغرات فيما بعد بالنسبة للجانب السياسى للمبادرة، وهو التنفيذ الكامل للقرار ٢٤٢، من هنا عاد إسـحاق رابين إلى مقر السفارة الإسـرائيلية لكى يتصل برئيسة وزرائه فى أعقاب مكالمتها مع سيسكو. وهنا بادرته مائير بقولها: اذهب إلى كيسنجر وتحدث معه.. واجعله يتحدث مع الرئيس (نيكسـون).. إننى لا أسـتطيع العودة إلى مجلس الوزراء (الاسرائيلى) بصياغة لا تشبه الصياغة التى تبناها المجلس..

وسـألها إسحاق رابين: الم يوافق مجلس الوزراء على الصياغة التى تنص عليها مبادرة روجـرز؟. قالت غولدا مائير: إن لنا موقفا بالنسـبة للقضية السياسـية. ولابد من توضيح ذلك، إننا نقبل بالمبادرة، ولكننا نريد صياغة موقفنا بكلماتنا نحن!

وفى مسـاء نفس اليوم ذهب إسـحاق رابين إلى الشخص الوحيد داخل الإدارة الأمريكية الذى يثق فيه، ورئيسة وزرائه، والحكومة الإسرائيلية كلها. ذهب إلى هنرى كيسنجر.

وفى هذه المرة فوجئ رابين بكيسنجر آخر غير الذى يعرفه. إن كيسنجر الذى يعرفه هو الذى كان يحرضه من قبل على المزيد من الغارات الإسرائيلية التى تقتل المدنيين المصريين فى العمق، وعلى العمل لإسـقاط وإذلال جمال عبد الناصر، وعلى شن حملة دعائية كبرى ضد وليم روجرز وزير الخارجية. والآن فإن المبادرة الأمريكية أصبحت حتى تسمى «مبادرة روجرز»- وهذا بالطبع جزء يكرهه كيسنجر- ولكنه أيضا يعرف أن المحرك الرئيسى لهذه

المبادرة هو الرئيس نيكسـون شخصيا ومعه كل الإدارة الأمريكية، وعند هذا الحد لا يجرؤ هنرى كيسنجر إلا على أن يكون موظفا مطيعا تماما.

هكذا بادر كيسـنجر صديقه السفير الاسـرائيلى إسحاق رابين: ماذا تريد؟ متى حصلتم على تلك الورقة التى تسمى «مبادرة روجرز»؟

رد رابين: منذ ستة أسابيع..

قال كيسـنجر: وستة أسـابيع غير كافية لكى تدرس الحكومة الإسـرائيلية وتستوعب مضمـون ورقة روجرز، كم من الوقت يلزمكم فى إسـرائيل؟.. إننى لا أفهمكم.. إذا كانت لديكـم أى تعليقات، أو شـكاوى؛ أو طلبات، تفضلوا.. تكلمـوا.. انطقوا!. إن المصريين والأردنيـين وافقـوا على مبادرتنـا (الآن أصبح اسمها: مبادرتنا!).. هـل أنتم توافقون أو ترفضون؟ دعونا نعرف بوضوح.

وبصريح العبارة يريد كيسـنجر أن يقول لرابين: أنا لا حيلة لى فيما يجرى.. رأسـكم.. فى خلاصكم.

مـن هنا يعلق رابين فى هذه النقطة بقوله: لقـد كنا فى واحدة من النقاط المنخفضة فى العلاقات الأمريكية الإسرائيلية.

لقد عاد إسحاق رابين إلى مقر السفارة الإسرائيلية فى واشنطن لكى يتصل برئيسة وزرائه فى إسرائيل من الخط التليفونى المباشر. إنه حكى لها عن مقابلته مع كيسنجر. ثم قال لها مسترسلا: أمليني.. بالضبط. ماذا تريدين منى أن أقول لكيسنجر (لكى يبلغه إلى الرئيس نيكسون) كلمة كلمة. إننى سأخبره بما ستقولينه.. بالضبط.

«ولكنها لم تقم باملائى شيئا، ولم تقل شيئا».

هكذا قال رابين...!

□□□

الفصل التاسع عشر

مفاجآت القفزة الأخيرة

- إن الدول العظمى لا تعنى أخلاقيات عظمى، إنها فقط.. تعنى مصالح عظمى، وهذا هو كل شئ
- مصر نقلت صواريخها على شاطئ القناة قبل ساعات من وقف إطلاق النار
- هستيريا إسرائيلية ونيكسون لرابين:

«لدى ما أعانيه من ضغوط سياسية.. وعليكم الإذعان»

أدركت غولدا مائير أنه طالما أن هنرى كيسنجر، وهو عين إسرائيل وأذنها داخل الإدارة الأمريكية، لم يستطع أن يفتى بأى مخرج، وتصرف باعتباره عاجزا عن الحيلة. فإن الأمر فى الإدارة الأمريكية جاد بأكثر مما تتصور، الأمر فى هذه المرة يتعلق فى مبادرة نيكسون. وإن كان الإعلام يسميها «مبادرة روجرز» بل إن نيكسون نفسه لم يدفع بتلك المبادرة من الأصل إلا تحت إلحاح مصالح أمريكية محددة، رأى أن من مسؤوليته كرئيس أن يحميها ضد حالة غير مسبوقة من الغليان عمت العالم العربى بمجموعه، تضامنا مع هؤلاء المقاتلين المصريين، غير المعروف أسماؤهم، الذين عبروا بصمودهم فى جبهة القتال بقناة السويس، عن رفض كامل وشامل لعملية إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط التى استهدفتها حرب يونيو ١٩٦٧، وهذا الغليان العربى الشامل، يريد نيكسون الآن نزع فتيله الاساسى، وهو حرب الاستنزاف المصرية، ولأنه رئيس يتمتع بخبرة واسعة بالسياسات الدولية، فإنه يعرف أنه لا شىء يتم مجانا.. مطلقا، فهناك ثمن سياسى محدد على الولايات المتحدة أن تلتزم به مقدما.. إذا كانت تريد منع الاحتمال الأسوأ، وحينما التزمت الولايات المتحدة به، فإن هذا يعنى اوتوماتيكيا أن تنصاع إسرائيل.. وتطيع. إنها بالطبع تستطيع أن تتظاهر بالسخط، والتذمر، والشكوى داخل غرفة مغلقة وخط تليفونى مباشر. ولكن فى النهاية: لا شىء سوى بيت الطاعة.. حرفيا.

إن السفير الاسرائيلى فى واشنطن، إسحاق رابين تلقى مكالمة من غولدا مائير، ومن أيجال ألون نائب رئيسة الوزراء، ومن أبا ايبان وزير الخارجية، ومن جوزيف تكواه مندوب إسرائيل فى الأمم المتحدة، ومن الجنرال بارليف رئيس هيئة أركان حرب الجيش و: «آلاف من الكلمات.. الكثير منها كلمات حانقة وغاضبة، وغولدا مائير فى غضبها وحنقها توبخنى من جديد، ولكن الورطة ظلت بلا حل»!

والورطة كانت بسيطة ومعقدة: إن إسرائيل ظلت تتوسل سرا إلى الولايات المتحدة. منذ خمسة أشهر على الأقل، للحصول من المصريين على وقف لإطلاق النار، إن حرب الاستنزاف التى يقوم بها رجال اليوم السابع هى أول حرب حقيقية تهزم فيها إسرائيل ولهذا تريد وقفها بأسرع وقت، والمصريون رفضوا بشكل قاطع أى وقف لإطلاق النار. لقد تحمل المصريون لشهور قبلها ضرب أطفالهم، وعمالهم المدنيين المجردين من السلاح،

وتحملوا شحنات السلاح الامريكى المتطور، وقبلوا عن اقتناع استشهاد أبنائهم فيما بدا أنه صـراع غير متكافـىء بالمرة، ولكن صلابة المصريين فى المقاومة لم تكن فى أية لحظة محل شـك، إنهم لا يقاتلون من أجل سيناء، فسـيناء لديهم لو أرادوا، بعرض رسمى أمريكى. ومعها قطاع غزة وبلا أى قتال، منذ نوفمبر ١٩٦٨، وبلا أى قيود ولو حتى نزع سلاح متر واحد من سيناء وبعرض اسرائيلى معلن وواضح ومحدد.

لكن المصريين «رجال اليوم الســابع» الذين قاتلوا فى حرب الاســتنزاف فعلوا ذلك من أجل شـيئين محددين: انسـحاب إسـرائيل الكامل من كل الاراضــى العربية المحتلة. وحقوق الشـعب الفلسـطينى. والذى عبر عن إرادة المصريين فى تلك المرحلة كان هو نفس الشـخص الذى أرادت السياسة الأمريكية إذلاله علنا، وعمليا، مستخدمة إسرائيل كأداة فى التنفيذ. وكان جمال عبد الناصر يعرف أنه ليس مطلوبا، حيا أو ميتا. لشـخصه. إنه مطلوب كموقف، وسياسة. واختيار، ومستقبل يستلزم «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» وكلما سقط شهيد مصرى فى ميدان القتال دفاعا عن هذا الاختيار. كان لابد أن يشعر جمال عبد الناصر بأنه مدين شخصيا لتلك الدماء حتى لا تذهب هدرا. فتلك الدماء ذهبت إيمانا بقضية، ولابد له حين يتفاوض أن يدرك أنه يتفاوض باسم تلك الدماء. ومن هنا كان إصرار مصر فى تلك المرحلة على أن تدقق.. وتشـك.. ولا تعطى ثقتها.. ولا ترد من أول عرض.. وأن تدرس وتحســب قبل أية استجابة، فلم يكن رفض طلب رونالد بيرجس مقابلة جمال عبـد الناصر، وبعده محمود رياض. يصدر عن اســتعلاء، أو عن تصور بأن مصر أصبحت فجأة هى إحدى القوتين العظميين فى هذا العالم. ولكنه كان تعبيرا عن اســتيعاب لدرس ســابق معجون بقدر كبــير من المرارة، درس يقول: إن الــدول العظمى لا تعنى أخلاقيات عظمى، إنها فقط.. تعنى مصالح عظمى، وهذا هو كل شىء.

الحلو والمر.. معا

وفــى الطريــق الآخر كان واضحا أن أكثر من يدرك ذلك، ولأســباب مختلفة تماما. هو ريتشــارد نيكسون. إنه يريد بالدرجة الأولى حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة. وإحداها إسرائيل. وحينما دفع إلى الأضواء بمبادرته الجديدة التى سميت مرة «خطة روجرز».. ومرة أخرى «مبادرة روجرز».. فإنه كان يقدم لإســرائيل الحلو.. والمر.. معا. إســرائيل متلهفة على أن يوقف المصريون حرب الاستنزاف. والولايات المتحدة تدعمها وتساعدها فى ذلك،

ومصر تريد ثمنا سياسيا محددا ومعلنا، والولايات المتحدة ليست لديها أدنى فرصة لتحقيق النصف الأول من الصفقة.. إلا إذا ضمنت وتعهدت بالنصف الآخر من الصفقة.

تلك إذن هى حدود المبادرة الأمريكية التى امتدت لسبعة شهور. باسم «خطة روجرز» أولا.. ثم «مبادرة روجرز» ثانيا، إنها مبادرة تتم بهدف واحد هو المحافظة على المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط. وإسرائيل مجرد جانب واحد فيها.

ووسط صدام المصالح الدامى هذا.. من الطبيعى تماما، وان كان سيصبح ملفتا بالمقارنة مع فترات لاحقة، أن احد الطرفين لم يحاول مطلقا التمحك فى بعد شخصى لما يجرى، فعلى المستوى الشخصى.. كان جمال عبد الناصر يقدر تماما خبرة ريتشارد نيكسون العميقة فى الشئون الدولية، وكان يدرك أيضا أن نيكسون من طراز السياسيين الأمريكيين القليلين الذين تجاوز اهتماماتهم ساحل المحيط الاطلنطى. إن نيكسون ربما يكون محل جدل داخل الولايات المتحدة لأنه جمهورى، ويمينى، ومحافظ، ومحارب تقليدى للشيوعية وكل ما يحتمل أن يكون حتى مجرد يسار بغير علاقة بالشيوعية، ولكنه على الأقل يبذل جهدا لفهم مشاكل الشعوب الأخرى، والأهم من ذلك أن لديه دائما تصورا محددا لمصالح الولايات المتحدة التى تريد المحافظة عليها، حتى لو اختلف معه الآخرون فى تشخيصها.

وربما من أجل ذلك حرص جمال عبد الناصر على أن يعامل ريتشارد نيكسون معاملة خاصة. حينما جاء الأخير إلى مصر فى يونيو سنة ١٩٦٧.

ونيكسون الذى جاء إلى مصر وقتها كان مواطنا أمريكيا عاديا. على الرغم من أنه عضو فى الكونجرس الأمريكى ويحمل خطاب توصية رقيق اللهجة من الرئيس الامريكى وقتها- جون كيندى- الذى هو بالصدفة كان منافس نيكسون فى آخر انتخابات للرئاسة، وفاز عليه ضد كل التوقعات فانتقل نيكسون بالتالى من منصب نائب الرئيس فى عهد إدارة دوايت ايزنهاور.. إلى مواطن أمريكى عادى فى عهد جون كيندى.

بتلك الصفة إذن استقبل جمال عبد الناصر ريتشارد نيكسون فى القاهرة. وتبادل معه الحديث فى الشئون الدولية. واستمع إلى انطباعاته بعد أن زار موقع العمل فى بناء السد العالى فى أسوان. حيث قال نيكسون علنا: «إن قرار الولايات المتحدة بسحب عرضها للمساهمة فى بناء السد العالى كان من أكبر أخطائها».

يومها لابد أن جمال عبد الناصر تقبل هذا الراى من نيكسون عن طيب خاطر.. متغاضيا عن حقيقة أن نيكسون نفسه كان نائبا لرئيس الجمهورية حينما اتخذت الولايات المتحدة هذا القرار.

لكن المواطن العادى ريتشـارد نيكسـون تأكد فى رحلته إلى مصر هذه، من حقيقة رآها بعينيه، وهى أن السد العالى لم يكن مشروعا وهميا لتبرير مرور العمولات بالدولار الامريكى. والجنيه الاسـترلينى، إلى عدد من النصابين والأفاقين السياسيين المحليين الذين اعتادت أجهزة المخابرات الأمريكية أن تبشر بهم رسلا باسم «العالم الحر» فى الدول النامية- كما كان التقليد السـائد حينئذ- ولكنه مشـروع حقيقى.. وسـد عال بالفعل.. تتم إقامته فى أسـوان، بغير حتى أن يحمل اسـم «عبـد الناصر» الذى حارب من أجلـه معارك هددته شخصيا. ونظامه كله. بالسقوط.

تلك إذن حقيقة أدركها المواطن الامريكى ريتشـارد نيكسـون. فى ظروف عادية تماما. وبغير أن يتصور أحد فى حينها انه سيصبح بعد سنوات قليلة: ريتشارد نيكسون. رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

والآن يقضى ريتشارد نيكسون سنته الثانية فى منصب الرئاسة الأمريكية. وهناك صدام فى المصالح يقوم على فكرة «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» من ناحية.. والمقاومة الصلبة من ناحية أخرى. ولان نتائج هذا الصراع سـوف تشـكل مسـتقبل العالم العربى والشرق الأوسـط لسـنوات عديدة تالية. فقد أصبحت السياسـة المصرية فى تلك الفترة تقوم على العمل بمثابرة وجدية لتغيير ميزان القوى. بعد الخديعة الكبرى. مصيدة يونيو ١٩٦٧. لم يعد جمال عبد الناصر مستعدا للثقة إلا بقوة الجيش المصرى وقدرته على تصحيح ما جرى بقوة السـلاح، وبعض المصادر الإسـرائيلية هنا تفسـر إصرار جمال عبد الناصر هذا بتسلط فكـرة «الثـأر» أو «الانتقام» عليه.. وهى فكرة لها جذور عنـد أبناء الصعيد بجنوب مصر. وعبد الناصر هو أصلا من مواليد «بنى مزار» فى الصعيد.

القفزة الأخيرة لحائط الصواريخ

وعلـى أية حال فإن الثابت هو أنه. بمبادرة أمريكية أو بغير أمريكية. فإن عبد الناصر لم يكن مسـتعدا لوضع ثقته فى أى عمل دبلوماسـى أو سياسـى كبديل لتحرير الأرض. فحتى لو كانت «مبادرة روجرز» فى صالح مصر والعرب بنسبة خمسة وتسعين بالمائة على حد تعبير جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية.. إلا أن عبد الناصر فى المؤتمر القومى الذى عقد بالقاهرة فى يوليو. صارح الأعضاء بأنه يؤمن بأن فرصة نجاح المبادرة لا تتجاوز النصف فى المائة. أما الضمان الحقيقى فى رأى عبد الناصر فهو اسـتكمال القوات المسلحة المصرية لقدراتها العسكرية.

من هنا كان ضمان اســتكمال حائط الصواريخ فى جبهة قناة الســويس هو أحد العوامل الأساســية لقبول عبد الناصــر تلك الفترة المؤقتة لوقف إطلاق النــار. التى تطلبتها مبادرة روجرز، ولان المبادرة لم تســتهدف بالطبع إعطاء مزايا عســكرية لمصــر، فإن الأمريكيين اشــترطوا تثبيت الموقف العســكرى طوال الأشهر الثلاثة فى مسافة خمسين كيلو متر غرب وشــرق قناة السويس فيما سيسمى «منطقة التســكين»، وبالطبع ستقوم طائرات الاستطلاع الأمريكية «يو- ٢» بمراقبة تلك المنطقة من الجبهة حتى لا يعدل أحد الطرفين من أوضاعه العســكرية فيها بشــكل جذرى خلال فترة الأشهر الثلاثة. وفى الذهن الامريكى وقتها أن مصر لابد ستطلب من الاتحاد السوفياتى القيام بنفس المهمة لحسابها.

مــن هنا اتفق جمال عبد الناصر مــع الفريق محمد فوزى وزير الحربية على وضع خطة عاجلة للقيام بـ «القفزة الأخيرة» لحائط الصواريخ المصرى الجديد فى اتجاه قناة السويس. بحيــث تصبــح تلك القفزة المفاجئة أمرا واقعا مع الدقيقة الأولى من بدء ســريان فترة وقف إطلاق النار.

مفاجآت مذهلة

وبالفعل، فإن قوات الدفاع الجوى المصرى قامت، فى ظل غارات إســرائيلية لا تتوقف وبتضحيات تحملتها فى صلابة، بنقل النسق الأول من الصواريخ إلى الشاطئ الغربى لقناة الســويس مباشــرة قبل منتصف الليل يوم ٧ أغسطس، بحيث إنه عندما بدأ، سريان وقف إطلاق النار فى الواحدة من صباح ٨ أغســطس، كانت إســرائيل أمام مفاجأة مذهلة على الجانب المصرى.. لن تدرك أبعادها العسكرية الكاملة قبل عدة أيام.

وفى صباح ٨ أغســطس ١٩٧٠ أى فى الســاعات الأولى لســريان وقف إطلاق النار، تم اجتماع سرى للغاية.. فى مقر قيادة الدفاع الجوى.. كان الاجتماع العاجل هو بذاته نموذج لما يجرى فى قيادات الطيران والبحرية والجيشين الميدانيين فى الجبهة و.. و..

ضبــاط وخرائــط ولوحات، ثم دخل اللواء محمد على فهمــى قائد الدفاع الجوى متأملا وجوه مساعديه وكبار الضباط، بعضهم لم ينم بالمرة خلال الثمانى والأربعين ساعة الأخيرة. كلهم تختلط فى وجوههم ملامح الإعياء مع علامات الانشراح. هذا طبيعى. فالأيام الأخيرة كانت أيامهم، فى الواقع أنه منذ ٣٠ يونيو ١٩٧٠ وهؤلاء الرجال يفاجئون إسرائيل فى كل مرة يقفزون بحائطهم الصاروخى إلى الأمام أكثر وأكثر باتجاه قناة السويس.. ولم يعد هناك

حديث للعالم كله سوى تلك الصواريخ بعد أن خرج الساسة الإسرائيليون يتصايحون علنا فى حالة هيستريا، حتى الولايات المتحدة قالت لإسحاق رابين فى واشنطن: يلزمنا وقت لكى نساعدكم بأنواع جديدة من الأسلحة تواجهون بها حائط الصواريخ المصرية هذا.

الآن يجتمع اللواء محمد على فهمى بكبار مساعديه، بالطبع هناك تهنئة وترحم على أرواح شهداء كانوا جزءا غاليا من الثمن الذى دفعته مصر لإقامة حائطها الصاروخى الجديد، هو فى لحظتها أصبح أكبر حائط صاروخى فى العالم حسب وصف وكالات الأنباء، لكن محمد على فهمى لم يستطرد كثيرا فى التهنئة، لقد استدار إلى أحد معاونيه وطلب منه أن يتقدم إلى الخرائط العسكرية التى تتوسط قاعة الاجتماع ويشرح طبوغرافية سيناء من منظور الدفاع الجوى. ما هى العوائق داخل سيناء ؟ ما هى المواقع ؟ من أين سيجئ العدو بالطيران أو بالمدفعية؟ كيف نناوره؟ نفاجئه؟.. تلك وغيرها أسئلة محددة تتطلب دراسات محددة وإجابات محددة مطلوب إنجازها خلال ثلاثة اشهر.

ثم اختتم اللواء محمد على فهمى الاجتماع قائلا لضباطه: إن التفوق الجوى الاسرائيلى حقيقة يجب أن نعترف بها، لكن ينبغى أيضا ألا ننسى أننا استطعنا تحدى هذا التفوق مرات عديدة خلال حرب الاستنزاف. بل استطعنا تحقيق بعض الانتصارات عليه. وفى معركتنا المقبلة لن يقتصر دورنا على مجرد تحدى هذا التفوق، بل سيكون علينا أن نهزم هذا التفوق ونحطم الأسطورة، الكلمات محددة، فيها ثقة لكن بلا غرور، فيها تأكيد لكن بلا أوهام، فيها تواضع لكن بعلم ومعرفة وقدرة على تحقيق النصر.

أما بالنسبة لعبد الناصر، فقد أدرك أخيرا، وبعد مشوار مضن استمر ثلاث سنوات. أنه يستطيع الآن الوفاء بوعده الذى قطعه على نفسه فى مناسبات عديدة ومن بينها جلسة مغلقة للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى- ومحضر الجلسة بتاريخ ٣٠/ ١٢/ ١٩٦٨- من إنه: «سيأتى إن شاء الله اليوم الذى تعبر فيه قواتنا المسلحة إلى شرق القناة لتطرد العدو من سيناء، ولن تكون المعركة هذه المرة معركة أيام ستة أو سبعة، لكنها ستكون معركة حاسمة فى المنطقة».

أما إسرائيل فقد كان الجميع مشغولين بالفرحة الطاغية لوقف إطلاق النار، إن أبا ايبان وزير الخارجية تحدث فى الكنيست عن حدوث تآكل خطير فى سلاح الطيران الاسرائيلى. لكن الحقيقة الكاملة كانت أكثر فداحة مما يتوقعه الجميع- حتى المصريين. فقد ذكرت البلاغات الرسمية المصرية أنها أسقطت فيما بين ٣٠ يوليو و٨ أغسطس ١٦ طائرة. فيما

ستنشـر مجلة «افييشن ويك» أن ما أسـقطته مصر فعلا هو ١٧ طائرة، بالإضافة إلى إصابة ٣٤ طائرة أخرى، ولكن، حينما ستقوم الولايات المتحدة فعلا بتعويض إسـرائيل، تبين أن ما أسـقطته مصر خلال نفس الفترة ١٨ طائـرة، ولكنها من طراز «فانتوم».. وبعد وقف إطلاق النار قام دونالد بيرجس رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية بالقاهرة بمصارحة وزير الخارجية محمود رياض بأن البلاغات المصرية كانت متواضعة تماما بالنسبة للحقيقة.

ويقـول أبا ايبان وزير الخارجية الاسـرائيلى: «لقد تم اسـتقبال وقـف إطلاق النار فى إسـرائيل بشـعور من الرضاء، وحينما أعلنته مس مائير فى التلفزيون كان رد فعل الراى العام كما لو أننا حصلنا على تسوية سلمية، إن نشرات الأخبار لن تبدأ بعد الآن بالصوت الحزين لمذيع الراديو وهو يخبرنا بأسماء الشباب الاسرائيلى الذين سقطوا فى المعركة، إن ما حصدته الحرب من الأرواح والمعدات الثمينة جعل الحرب مكلفة بالنسبة لنا».

حرب حقيقية

وتقـول غولـدا مائير: «بالنسـبة لنا، كانت حرب الاسـتنزاف حربـا حقيقية تطلبت كل تصميم وشـجاعة وقوة ومهارة جنودنا وطيارينا للمحافظة على خطوط وقف إطلاق النار. ولكى يحاولـوا- بصرف النظر عن التكاليـف- إيقاف تحرك قواعد الصواريخ (المصرية) تماما، وهى القواعـد التى كان المصريون والروس منهمكين تماما فى إقامتها بالقرب من خطوط وقف إطلاق النـار. مع ذلك، كانت هناك حدود لقدراتنا علـى أن نتحمل هذا كله وحدنا. فكان لابد من حصولنا على المساعدة من طائرات وأسلحة. وكان يجب أن نحصل عليها سريعا. وكانت القوة الدولية الوحيدة التى نستطيع التوجه إليها طلبا لتلك المساعدات هى الولايات المتحدة».

ويقـول حاييم هيرتزوغ الرئيس السـابق للمخابرات العسـكرية الإسـرائيلية: «لم تكن الحرب بالنسبة لإسرائيل سهلة من حيث القتلى. ببراويز سوداء تظهر يوميا فى الصحف الإسـرائيلية حول صور الجنود والضباط الذين سـقطوا قتلى فى اليوم السـابق. لقد كانت بالضرورة حرب أعصاب. وبالنسـبة للراى العام الاسرائيلى الذى اعتاد على نتائج سريعة وسـهلة فـى الحروب مع العرب. فـإن الموقف (الذى خلقته حرب الاسـتنزاف المصرية) لم يكن فيه ما يساعد روحهم المعنوية»..

أما إسحاق رابين السفير الاسرائيلى فى واشنطن، والذى كان يمطر حكومته فى مرحلة سـابقة ببرقيات تحثها على تصعيد الغارات الجوية ضد مصر، وفى العمق، فإنه يعترف

الآن بأنه: «الناس فى إسرائيل تنهدوا جميعا فى نفس اللحظة إحساسا بالفرح. ولو لم تكن تلك الورطة المرعبة (المتعلقة بالجانب السياسى فى مبادرة روجرز) لكنت شاركتهم أفراحهم يوم ٨ أغسطس حينما وصلت إلى إسرائيل للتشاور».

كان استدعاء إسحاق رابين للتشاور يتعلق بمحاولة إسرائيل التملص بأى ثمن من الجانب السياسى فى مبادرة «روجرز». والآن يزيد على ذلك.. الأمر الواقع الجديد، «والمفاجئ». الذى خلقه المصريون باستكمال نقل قواعدهم الصاروخية إلى أقرب نقطة من قناة السويس. فيما تريد إسرائيل الآن أن تثيره مع الولايات المتحدة على أنه انتهاك مصرى لشروط وقف إطلاق النار.

إسرائيل تعترض على التصوير الجوى

ومن المثير للتأمل هنا أن إسرائيل هى التى كانت تخطط من البداية لكى تنتهك شروط وقف إطلاق النار- كما ثبت فيما بعد- وأن دلائل هذا التفكير كانت واضحة من البداية. لقد أكد الأمريكيون من قبل أنهم سيلتقطون صورا جوية بواسطة طائرات «يو- ٢» قبل وقف إطلاق النار، حتى يكون هناك أساس للمقارنة فيما بعد إذا اشتكى أحد الطرفين من حدوث انتهاكات.

ولكن بطريقة لا يمكن تفسيرها تلقى الملحق العسكرى الاسرائيلى فى السفارة بواشنطن تعليمات من شخصية كبيرة فى مؤسسة الدفاع الإسرائيلية بأن يخطر الأمريكيين بأن إسرائيل تعترض على التقاط صور جوية قبل بدء سريان وقف إطلاق النار! إن تلك البرقية العجيبة تضمنت تلميحا غير مفهوم بأنه إذا حاولت الطائرات الأمريكية التقاط صور لمنطقة القناة. فسوف تعترضها إسرائيل- وذلك على الرغم من أن كل شخص يعرف أن قواتنا الجوية لا تملك أية وسيلة لاعتراض طائرات «يو- ٢» ذات الارتفاع الشاهق. وقبل أن يمر وقت طويل اثبت غياب مثل تلك الصور. إنه عقبة كبرى أمامنا فى إقناع الأمريكيين بانتهاكات المصريين لوقف إطلاق النار.

إن إسرائيل فى الواقع وكما هو متوقع دائما. انتهكت وقف إطلاق النار على وجه السرعة بعمل تحصينات جديدة فى خط بارليف لبعض ما دمره المصريون أثناء حرب الاستنزاف. وحصلت مصر فيما بعد على صور من الأقمار الصناعية السوفيتية تثبت تلك الانتهاكات. ولكن.. لا بأس أن تبادر إسرائيل بالهجوم الدبلوماسى كوسيلة للدفاع. ولأنها تدرك أن المرحلة

الحتميــة التالية هى عبور الجيش المصرى قناة الســويس لتحرير ســيناء، فى حماية الشــبكة الصاروخية الجديدة التى تعطى الجيش المصرى الغطاء الكافى حتى مضايق سيناء على الأقل.

وهكذا تلقى إســحاق رابين السفير الاسرائيلى فى واشــنطن، والعائد لتوه من مشاورات فى إســرائيل، مكالمة تليفونية من موشــى ديان وزير الدفاع، يبلغه بأن «المصريين حركوا صواريخهم فى منطقة التســكين» داخل نطاق ثلاثين كيلو متر من قناة الســويس. وذهب رابين ينقل الشــكوى إلى الأمريكيين، لكنهم «ساروا فى تحركاتهم على مهل وهم يلتقطون الصور، ثم يقومون بتحميضها، ثم يؤرخون استخلاص النتائج».

وفى البداية رفضت الولايات المتحدة قبول الادعاءات الإســرائيلية. وأعلن ميلغين ليرد وزيــر الدفاع الامريكى أنه ليس لدى المخابرات الأمريكية أية معلومات حول مخالفة مصر لوقف إطلاق النار. وفى اليوم التالى قام دونالد بيرجس رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية فــى القاهرة بتســليم مصر مذكرة من وزير الخارجية الأمريكيــة روجرز. تقتصر على إبلاغ مصر بالشــكاوى الإسرائيلية، التى تقول إن مصر أقامت ١٤ موقعا صاروخيا جديدا داخل منطقة التسكين المتفق عليها، بالمخالفة لترتيبات وقف إطلاق النار.

ولكــن وزير الخارجية الأمريكى وليم روجرز يبلغ مصر أيضــا بإصرار الولايات المتحدة على أن يبدأ الســفير يارنغ ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة مباحثاته على الفور، تنفيذا للمبادرة الأمريكية.

مصر ترفض مزاعم إسرائيل

مــع ذلك فإن حالة الرعب التى انتابت الحكومة الإســرائيلية نتيجة مفاجأة الصواريخ المصريــة. والضغــوط المتلاحقة التى حاولتهــا داخل الإدارة الأمريكيــة، جعلت الولايات المتحدة فى النهاية تتبنى وجهة النظر الإسرائيلية وتبلغ مصر بمذكرة سرية قدمها بيرجس فى القاهرة يوم ٣ ســبتمبر بأن المخالفات المصرية انتهاك لوقف إطلاق النار، وأن الحكومة الأمريكية ترجو معرفة «وجهة نظر القيادة العســكرية (المصرية) عن الأسباب التى تدعوها إلى اتخاذ مثل تلك الأجراء».

وبالطبع رفضت مصر على الفور كل تلك المزاعم. وتســلم دونالد بيرجس فى اليوم التالى مباشــرة- ٤ ســبتمبر- مذكرة مصرية ما يزال تصنيفها «سرى للغاية» فى الملفات المصرية. وتنشر فى ملاحق هذا الكتاب.

وطبقـا للمذكرة الرسمية المصرية. فان القيادة العسـكرية المصرية ترى أن تحريك مواقع الصواريخ المصرية فى منطقة القناة هو «إجراء عسـكرى تسـتدعيه سلامة مواقع الصواريخ وسلامة القوات المسلحة، وأضافت القيادة أن تحريك الصواريخ فى داخل المنطقة يمكن أن يؤدى إلى مهاجمة إسـرائيل لمواقع الصواريخ فى أية لحظة وأن تلحق الخسائر بها. وذلك لتأكيدها من وجودها فى هذه الموقع إذا لم تتحرك منها».

«ولذلـك فإنه عندما تطالبنـا أمريكا بإهمال هذه النقطة الحيوية من أجل حماية مواقعنا ضد أى هجوم مفاجئ من إسرائيل. فإن ذلك يحتم علينا أن نضع سؤالا للولايات المتحدة عما إذا كانت تستطيع أن تقدم لنا ضمانا بأن إسرائيل لن تقوم بأى هجوم على هذه المواقع. وأنـه إذا نقضت إسـرائيل هذا الضمان فما هو الجزاء الذى سـتقوم بـه الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الحالة ضد إسرائيل»؟.

وبالتدريج سوف تجد الولايات المتحدة نفسها معزولة تماما عن المجتمع الدولى فى تبنيها للحجج الإسـرائيلية ضد شـبكة الصواريخ المصرية ومطالبتها مصر بتصحيح الانتهاكات. وسـوف ينتهى الأمر فى شـهر نوفمبر ١٩٧٠ بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة ضد الحجج الإسـرائيلية، بل والحاجة إلى الانسحاب الاسـرائيلى الكامل والمبكر من الأراضى العربيـة المحتلـة. وعلى حد تعبير أبا ايبان وزير الخارجية الاسـرائيلى تعليقا على ذلك القرار: «لقد تحركت ضدنا أغلبية كاسحة فى الأمم المتحدة موالية للعرب».!

مقابلة فاترة بين رابين ونيكسون

علـى أيـة حـال لم نكن قد وصلنـا بعد إلى تلـك النقطة فى أغسـطس. ١٩٧٠ حينما ذهب السـفير الاسرائيلى إسحاق رابين إلى مستشـاره الأول داخل الإدارة الأمريكية هنرى كيسـنجر، يقترح عليه دعوة غولدا مائير رئيسـة وزراء إسـرائيل إلى واشنطن. لعلها تقنع الرئيس نيكسـون بعدم التمسـك بالجانب السياسى فى مبادرة روجرز. وقال له كيسنجر: لا.. ليس الوقت ملائما بعد لتوجيه مثل تلك الدعوة. ولكنك ستقابل الرئيس نيكسون.

وحينمـا ذهب رابين ليقابل الرئيس نيكسـون. فى ١٧ أغسـطس، كانـت المقابلة فى هذه المرة تتم فى غرفة الخرائط بالبيت الأبيض. وكان نيكسـون مصحوبا بالكسـندر هيغ، نائب كيسـنجر، وليس كيسـنجر. وفى المقابلة حاول رابين إقناع الرئيس نيكسـون بأن تؤجل إسـرائيل المشـاركة فى مباحثات يارنغ- تنفيذا لمبادرة روجرز- إلى أن تصحح مصر

انتهاكاتها لوقف إطلاق النار وتسحب الصواريخ التى حركتها قرب القناة، لأن العسكريين الإسرائيليين يضغطون على غولدا مائير بشكاويهم المتلاحقة من خطورة تلك الصواريخ.

لكن الرئيس نيكسون يرد عليه قائلا: إن لدى أنا الأخر ما أعانيه من الضغوط السياسية.. والراى العام الامريكى هو الآن فى مزاج يحبذ السلام، وفوق كل شيء فإننى مضطر لتشجيع بدء المباحثات (مع يارنغ) للتوصل إلى تسوية سياسية.

ويقول رابين: لقد وجدت نفسى أتحدث في اتجاه، بينما الرئيس (نيكسون) يتحدث فى اتجاه آخر مختلف، حيث قال لى: «يجب ألا تسمح إسرائيل لنفسها بتحمل اللوم عن رفضها التفاوض (مع يارنغ)...».

وفى اليوم التالى سافر رابين إلى إسرائيل فورا لإبلاغهم بهذا الموقف. حيث: «وجد مجلس الوزراء فى حالة اضطراب وغليان».. بسبب الرعب من حائط الصواريخ المصرية فى قناة السويس.

ثم عاد رابين إلى واشنطن بإلحاح من رئيسة وزرائه للحصول على دعوة لزيارة واشنطن و التباحث مع الرئيس نيكسون. ونيكسون يوافق فى النهاية، ولكنه يحدد لها موعدا بعد شهر كامل.

❑❑❑

الفصل العشرون

خطة العبور جرانيت

- ☐ لـن نسـحب صاروخا واحدا.. وعلـى المتضرر أن يخبط رأسه فى الحائط..
- ☐ قيادات فلسطينية اتهمت عبد الناصر بالخيانة ومازالت تلهث للحصول على جزء مما تضمنته مبادرة روجرز
- ☐ كيسنجر يدعو إلى طرد السفير السوفياتى
- ☐ خطة طوارئ سـرية لضرب المصالح الأمريكية بالشرق الأوسط
- ☐ مندوب مصر يسأل عبد الناصر:

سـيادة الرئيـس.. ما هو الحـد الأدنى الـذى يرضيك؟

وعبد الناصر يرد: القدس وحقوق الشعب الفلسطينى

ذهب السـفير الاسـرائيلى فى واشنطن إسحاق رابين إلى كيسنجر، فهو دائما عين وأذن إسـرائيل داخل الإدارة الأمريكية، وقال له إذا لم تسـتطع الولايات المتحدة أن ترغم مصر على سـحب صواريخها، كما هو واضح، فعلى الأقـل تريد غولدا مائير صفقات كبيرة من الأسلحة الأمريكية تعويضا عن ذلك.

وسأله كيسنجر: ماذا عن الجانب السياسى (فى مبادرة روجرز- الذى يقضى بالانسحاب الاسرائيلى الكامل من سيناء والضفة الغربية وحقوق الفلسطينيين)؟.

قال رابين: بقدر ما يعنينا الأمر، فإن خطة روجرز غير موجودة، إن يارنغ يستطيع أن يجمع الأطراف تحت إشـرافه، ولكننا نريد أن تطلق الولايات المتحدة يدنا لكى نتفاوض (مع مصر والأردن تحت أشراف يارنغ) بغير شروط مسبقة.

وقال له كيسـنجر محذرا: إذا جئتم إلى الرئيس نيكسـون بمثل هذا الحديث، فسـوف تسـتمعون إلى كلمات طيبة من الرئيس، ولكن لا شـئ محددا أو ملموسـا تحصلون عليه. يجب أن تأتوا إلى الرئيس (أثناء زيارة مائير) بشئ أكثر تحديدا.

وبناء على نصائح كيسـنجر قام السـفير رابين بإخطار حكومته فى أواخر أغسطس بان الرئيس نيكسون لن يعتبر انتهاكات مصر لوقف إطلاق النار مبررا لرفض إسرائيل المشاركة فى مباحثات يارنغ. ولكن هناك حل- وهنا تأتى فكرة كيسنجر- خلاصتة: «إننا نستطيع تأجيـل تعيين ممثلنا فى المباحثـات أثناء قيامنا بحث الولايات المتحدة على اتخاذ إجراء دبلوماسى لإزالة الصواريخ المصرية الجديدة».

إن الفرحة الطاغية فى إسرائيل بوقف إطلاق النار فى الجبهة المصرية خلال تلك الفترة، أصبحـت على نقيض كامل مع حالة الاكتئاب الطاغيـة التى بدأت تعيش فيها القيادات الإسـرائيلية. فعلى المستوى العسكرى كانت القيادات الإسرائيلية تدرك جيدا معنى نجاح مصر أخيرا فى نقل حائطها الصاروخى إلى القناة، وتحس بالرعب من احتمالات المستقبل. وأقلها العبور المصرى الشـامل إلى سـيناء، وعلى المستوى السياسـى كانت مبادرة روجرز تعنى انسـحاب إسـرائيل من كل شبر فى سـيناء وقطاع غزة والضفة الغربية وأيضا: حق الفلسطينيين فى العودة.. أو التعويض.

وفى داخل الإدارة الأمريكية كان هذا الشعور الاسرائيلى بالاكتئاب منعكسا بأوضح ما يمكن على شخص واحد ؛ هنرى كيسنجر، اليهودى الصهيونى الأمريكى المتعصب الذى يشغل منصب مستشار الرئيس نيكسون للأمن القومى. ويقول الصحفى الامريكى سيمور هيرش: «لقد زاد اكتئاب كيسنجر أكثر وأكثر بعد ذلك فى مواجهة جرت بينه وبين وليم روجرز (وزير الخارجية) يوم ٢٥ أغسطس فى سان كليمنت. إن روجرز اتهمه صراحة بأنه يسعى إلى إثارة أزمة من خلال الإصرار الزائد على تصحيح انتهاكات وقف إطلاق النار (المصرية)».

إن نجاح روجرز فى إنجاز وقف إطلاق النار، وتحسين المكانة السياسية للإدارة (الأمريكية) فى الشرق الأوسط قد شجعه وزاد من جرأته بشكل واضح، وجاءت استجابة نيكسون للجدل داخل حكومته بطريقة المعتادة من التسويف والتأجيل.

لقد أعلن يارنغ فى ٢٤ أغسطس عن مشاركة ممثلين لمصر والأردن وإسرائيل فى المباحثات الجديدة تحت إشرافه. وعلى الرغم من أن إسرائيل كانت تجرجر قدمها فى إذعانها بمبادرة روجرز. إلا أنها استثمرت فى سعيها لفتح أى منفذ يتيح لها القرار من التزام لم يعد أمامها فكاك من تنفيذه، والإدارة الأمريكية اضطرت إلى إبلاغ مصر فى النهاية بموافقتها على الشكاوى الإسرائيلية. وصرحت بإعطاء إسرائيل ١٨ طائرة فانتوم جديدة على أساس أنها تعويض لها عما أسقطته مصر من طائرات الفانتوم قبل ٨ أغسطس. وكذلك بمعدات اليكترونية للتشويش على الصواريخ المصرية.

وأعلنت إسرائيل فى ٦ سبتمر أنها لن تستطيع المشاركة فى مباحثات يارنغ بسبب الانتهاكات المصرية.. ومع ذلك ففى ١٨ سبتمبر، حينما جاءت غولدا مائير لكى تتباحث مع الرئيس نيكسون. وطبقا لرواية السفير رابين، فإن نيكسون «قال لها كلمات طيبة عن التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل. ووعدها بأنه لن يسمح بتحول ميزان القوى ضدها. على الرغم من أن الميزان تحول فعلا».

ومع ذلك فقد كانت الهستريا الإسرائيلية من الصواريخ المصرية تتزايد. مع أن وقف إطلاق النار مستقر منذ تاريخه إلا أن إسرائيل تمطر أمريكا بالشكاوى.. مدعية بأن ما أدخلته مصر إلى منطقة «التسكين» - أى ٣٠ كيلو مترا من قناة السويس - ثلاث كتائب صواريخ.. ولهذا لايمكن أن تتفاوض وتلك الصواريخ فى رؤوسها، شكوى أخرى: «مصر أدخلت عشر كتائب صواريخ.. ثم ثالثة ورابعة.. مصر أدخلت ١٤ كتيبة صواريخ فى ليلة

واحدة قبل وقف إطلاق النار.. إذن.. ماذا ستفعله بنا مصر فى باقى الليالى.. عليكم (أى أمريكا) أن تلحقونا بحل فورا.. وإلا.. على مصر أن تسحب الصواريخ.. فهل تصدق أمريكا أن مصر تفعل ذلك فى ليلة واحدة قبل وقف إطلاق النار؟.. وأمريكا تبلغ مصر بالشكاوى الإسرائيلية.. ووزير الخارجية محمود رياض يبلغ المندوب الامريكى: نحن لم نخرق وقف إطلاق النار، وسواء تعلق الأمر بكتيبة صواريخ واحدة أو بعشرة أو بأكثر أو اقل.. فلن نسحب صاروخا واحدا.. وعلى المتضرر أن يخبط رأسه فى الحائط».

ولم يفهم القائم برعاية قسم المصالح الأمريكية فى القاهرة- دونالد بيرجس- أى حائط ينصح محمود رياض إسرائيل بان تخبط رأسها فيه: حائط المبكى.. أو حائط الصواريخ المصرية؟.

ومع هذا فإن الدبلوماسية الأمريكية سوف تساير الشكاوى الإسرائيلية علنا وتتبناها فى المناقشات التالية التى ستدار بالجمعية العامة للأمم المتحدة، ومع ذلك فلقد «بدا أن الانتهاك المصرى هو قضية ميتة Dead Issue بقدر ما يعنى الأمر الولايات المتحدة.

شيك على بياض

مع ذلك فإن كابوس الصواريخ المصرية، والمضمون السياسى لمبادرة روجرز، جعلا إسرائيل تستمر فى إلحاحها على الإدارة الأمريكية.. لعل وعسى. إن كيسنجر يصور الأمر إلى الرئيس نيكسون بطريقة ماكرة وخبيثة، حيث: «أن الروس قاموا بإذلال الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وقد تم السماح لهم بذلك دون أن يدفعوا الثمن».

ولم يكن الأمر يتعلق بالروس، لأن الاتحاد السوفيتى لم يكن فى أى وقت طرفا فى ترتيبات وقف إطلاق النار التى وضعتها الولايات المتحدة واتفقت عليها مع كل من مصر وإسرائيل، كما أن الذين أقاموا حائط الصواريخ فى منطقة القناة كلها هم المصريون إنهم رجال اليوم السابع، وليسوا السوفيات. ومع ذلك فان كيسنجر يريد أن يطرح الأمر بهدف محاولة استفزاز الرئيس نيكسون لسرعة التصرف. بحجة أنه على هذا النحو سيعاقب السوفيات وليس أى طرف آخر.

وفى سبيل الترويج لهذا المنطق لم يتورع كيسنجر من استخدام كل الأساليب الملتوية فى محاولاته المستمرة لمساعدة إسرائيل بنسف مبادرة روجرز، ففى بداية شهر سبتمر (١٩٧٠) نشر جوزيف السوب عمودا صحفيا سرعان ما سيصبح حديث كل السلك الدبلوماسى الأجنبى فى واشنطن.

إن جوزيف السـوب كان معروفا فى العاصمة الأمريكية على أنه حميم الصلة بكيسنجر مستشـار الرئيس نيكسـون للأمن القومى وموضع ثقته بأكثر من أى صحفى آخر، كما أنه معـروف بأنه «كثيرا ما يسـتخدمه البيت الأبيض». والآن يكتب السـوب عمودا يعبر فى الواقع عن رأى كيسـنجر، ويتضمن هجوما حادا ضد وزير الخارجية روجرز، وضد السفير السـوفياتى فى واشـنطن دوبرينين، حيث قام كيسنجر بإطلاع السـوب على ذلك التقرير شـديد السرية الذى أعده روجرز عن اجتماعه مع السـفير السوفياتى دوبرينين فى الثانى من يونيو ١٩٧٠، فى ذلك الاجتماع قام روجرز بإطلاع السـفير السـوفيتى على تصريحات لموشـى ديان وزير الدفاع الاسـرائيلى يقول فيها: إن الصواريخ ذات الأطقم السـوفيتية لو اقتربت من قناة السـويس بأقل من ثلاثين كيلو مترا فإن هذا يعنى انقلابا فى توازن القوى مع مصر، ويومها قال السفير السوفيتى لروجرز: «إن الوجود السوفيتى فى مصر هو وجود فى العمق لحماية المدنيين من الغارات الجوية الإسرائيلية، ولا علاقة له بجبهة القناة. أو ٣٠ كيلو مترا من القناة».

ووقتها اعتبر كيسـنجر أن روجرز قد أعطى بهذا الشـكل شـيكا على بياض للسوفيات يسـمح لهم بأى تحرك عسـكرى فى مصر، طالما هو يبتعد عن قناة السويس بأكثر من ٣٠ كيلـو مـترا، وهو الأمر الذى جعل كيسـنجر وقتها يقدم اسـتقالته مـن منصبه احتجاجا وغضبا. إلى أن اضطر إلى سحبها حينما لم يتجاوب معه الرئيس نيكسون.

دعوة لطرد السفير السوفياتى

والآن فى مطلع سبتمبر ١٩٧٠ يتحدث جوزيف السوب فى عموده عن «أكاذيب سوداء» قالها دوبرينين لروجرز فى ذلك اليوم.. وقال السـوب إن انتهاكات وقف إطلاق النار فى الشـرق الأوسط بواسـطة السـوفيات «ودميتهم (المصريين) هى انتهاكات قذرة».. وأضاف قائـلا: «إن تململ بعـض الرسميين الأمريكيين من الاعتراف بأنهـم تعرضوا للخديعة بلا خجـل. هو أمـر أدى دوره بوضوح فـى التملص الامريكى الدنىء والخسـيس من حقيقة حدوث انتهاكات مصرية لوقف إطلاق النار».

ولذلك فإنه بالنسبة للسفير السوفياتى دوبرينين. فإن جوزيف السوب يقترح فى عموده بطريقة غير مباشـرة: «أن تقوم الولايات المتحدة بإعلانه شخصا غير مرغوب فيه. بسبب كذبه المقنع»!

ويومهـا «لم تكن هناك أية شـكوى لـدى احد فى وزارة الخارجيـة (الأمريكية) أو فى السـفارة السوفيتية (بواشـنطن) بشأن مصدر معلومات السوب، أو الشخص الذى يعبر هذا العامود من الأسـاس عن وجهة نظره» وهو- هنرى كيسـنجر- مستشـار الرئيس نيكسون للأمن القومى.

كان حائط الصواريخ الذى أقامته مصر فى قناة السـويس هو إذن مصدر رعب على هذا النحو بين القيادات الإسـرائيلية، وكان كيسنجر أداتهم داخل الإدارة الأمريكية وخارجها فى العمل بأى ثمن على جرجرة الولايات المتحدة إلى المواجهة مع الاتحاد السوفيتى، على الرغم من حقيقة أن السـوفيات لا دخل لهم فى الموضوع، وحينما اتضح للجميع أن مصر لن تتراجع مطلقا، ولن تسـحب صاروخا واحدا من صواريخها فى جبهة قناة السـويس، ابتلع كيسنجر، وإسرائيل، غيظهما.. قبل أن تنشق الأرض عن مكان آخر يتفجر فيه هذا الجبل من الغيظ.

التمهيد لأحداث أيلول

ففى الرابع من سبتمبر ١٩٧٠ تلقى الدبلوماسى الأمريكى دين براون أمرا مفاجئا بالسفر إلى البيـت الأبيـض الغربى فى ولايـة كاليفورنيا لمقابلة الرئيس نيكسـون. إن براون كان دبلوماسـيا محترفا، وقد انتهى لتوة من الخدمة فى السـنغال وجامبيـا فى غرب أفريقيا كسفير للولايات المتحدة. وعلى الرغم من أنه لم يكن خبيرا بشئون الشرق الأوسط. إلا أنه تم إبلاغه مؤخرا بأنه سيعين سفيرا للولايات المتحدة فى لبنان.

والآن يذهب دين براون لمقابلة الرئيس نيكسـون فى الرابع من سـبتمبر، حيث وجد إلى جانبه هنرى كيسنجر، والذى جلس يسجل محضر المقابلة.

وكان هناك معنى محدد ركز علية الرئيس نيكسـون فى تلك المقابلة، حيث هو: «يؤمن الآن بأن الحرب أصبحت حتمية فى الشرق الأوسط. وهى حرب يمكن أن تعجل بالحرب العالمية الثالثة. فالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى يتخذان موقف المقاتلين ضد بعضهما البعض».

وقال الرئيس نيكسون للسفير إن السوفيات قد بدأوا يثيرون المتاعب فى الشرق الأوسط. هم والدول المتعاملة معهم (يقصد مصر وسـوريا). وهو الآن يختاره سـفيرا له فى الأردن، وليس فى لبنان كما تم اختياره من قبل.. «لأن منظمة التحرير الفلسـطينية التى يسـاعدها

السوفيات أصبحت تمثل تهديدا مباشرا للنظام الاردنى... على حد قوله. ولذلك فستكون مهمة براون هى تدعيم النظام الاردنى بكل وسـيله ممكنة».. من هنا فإن على دين براون أن يذهب إلى الأردن فورا كسفير للولايات المتحدة، ومن هناك عليه إبلاغ الرئيس نيكسون فـورا بأيـة معلومات هامة تطرأ فى الفترة القادمة.. وأن يكون هذا التبليغ من خلال هنرى كيسنجر، وليس عن طريق الخارجية!

ولم يكن للاتحاد السوفيتى علاقة بالشقاق المتزايد بين منظمة التحرير الفلسطينية والملك حسـين فى الأردن، ولكن المنظمة من جانبها كانت قد صعدت هجومها ضد الملك حسـين منذ أسـابيع قليلة كجزء من هجومها ضد جمال عبد الناصر، بسـبب قبول مصر والأردن لمبادرة روجرز، التى اعتبرتها المنظمة من جانبها خيانة للقضية الفلسـطينية. ومؤامرة من جمال عبد الناصر والولايات المتحدة هدفها «تصفية» القضية الفلسطينية!

خطف الطائرات

فى السادس من سبتمبر ١٩٧٠، أى بعد يومين اثنين من حديث دين براون مع نيكسون وكيسـنجر فى تلك المقابلة غير المعلنة، قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف طائرة ركاب سويسرية، وطائرتي ركاب أمريكيتين، (ثم طائرة بريطانية رابعة بعدها بثلاثة أيـام).. وأصبحت تحتجز خمسـمائة من الـركاب المدنيين فى مطار قريـب من العاصمة الأردنيـة عمان، فضلا عن تفجير الطائرات ذاتها، وإحداهما تم تفجيرها فى مطار القاهرة بمجرد هبوطها على أرض المطار.

إن تلك الأحداث سـوف تؤدى سـريعا إلى حرب أهلية دامية فى الأردن، وإلى أزمة كبرى تلعب إسـرائيل فيها دورا هاما- بناء على مشـورة كيسـنجر- وسـتكون لها تأثيرات طويلة المـدى. على الرغم من المؤتمـر الطارئ للقمة العربية الذى دعا إليه عبد الناصر، لإيجاد حل وتم فعلا فى القاهرة، بهدف منع الأردن من المضى فى سحق أفراد منظمة التحرير الفلسطينية وقياداتها- ومن بينها نفس القيادات- التى تتهم عبد الناصر منذ أسابيع بالخيانة العظمى.

لقد كانت نذر تلك السحب السوداء تتجمع فى سماء الأردن منذ شهر يونيو على الأقل. حينما هددت إحدى مجموعات منظمة التحرير الفلسـطينية باغتيال الملك حسين. وكانت هناك مناوشـات متجـددة بين وقت وآخر بـين الجيش الاردنى وقـوات منظمة التحرير الفلسـطينية فى الأردن. وقـد حذر عبد الناصر الطرفين مبكرا مـن مغبة عدم احتواء تلك

الخلافات بسرعة، وأولا بأول، مبلغا كلا من الملك حسين وياسر عرفات بأن لديه معلومات عن خطة أميركية وإسرائيلية لتصفية المقاومة الفلسطينية.

اتهام عبد الناصر بالخيانة

مـــع ذلك، فبمجرد أن أعلنت مصر والأردن قبولهما لمبادرة روجرز فى ٢٢ و ٢٦ يوليو، قام عدد من قيادات منظمة التحرير الفلســطينية بمهاجمة جمال عبد الناصر علنا، بحجة أنه «خائن» يبيع القضية الفلسطينية للأمريكيين!.

ولم تدرك تلك القيادات فى وقتها أبدا معنى تلك الحرب السياســية الكبرى التى تشــنها إســرائيل ضــد مبادرة روجرز، كما أن جمــال عبد الناصر لم يكن فى حل من إذاعة أســرار عســكرية مصرية أمام الميكروفونات، متحدثا عن أهمية ومعنى حائط الصواريخ الجديد الذى تحملت مصر كل التضحيات لكى تســتكمله تماما فى الســاعة الواحدة من صباح ٨ أغسطس ١٩٧٠، وسوف تظل القضية الفلسطينية، والشعب الفلسطينى، بل والعالم العربى كله، يدفع كثــيرا وطويلا ثمن ما جــرى فى الأردن خلال تلك الأيام الدامية من ســبتمر ١٩٧٠. كما أن علامات الاســتفهام ســتظل تلاحق جميع أطراف تلك الحرب الأهلية التى نشبت وتصاعدت فجأة فى الأردن– ســواء فيها الذين قاموا بالفعل أم برد الفعل، وســوف تظل نفس القيادات الفلســطينية التى هاجمت مبادرة روجرز تلهث لعشرات السنين بعدها وهى تحاول الحصول على جزء واحد مما كانت تلك المبادرة تكفله– وهو استعادة الضفة الغربية– دون جدوى!

إن فاتورة الحســاب بدأ تســديدها فيما بعد، ولكن فى تلك الأيام من شــهر أغســطس ١٩٧٠ لم يكن هناك سوى نذر متزايدة بالخطر داخل الأردن، ورعب من الصواريخ المصرية ومبادرة روجرز داخل إسرائيل، وتصميم فولاذى داخل مصر للمضى فى تحرير سيناء بالقوة المسلحة طبقا للخطط العسكرية الموضوعة والتى أصبحت جاهزة للتنفيذ، حيث أقام جمال عبد الناصر حســاباته للمســتقبل على أساس أن فرصة مبادرة روجرز فى التنفيذ لا تتعدى نصفا فى المائة ووضع كل ثقته فى القوات المصرية المسلحة ورجال اليوم السابع.

عبد الناصر يبلغ الزيات

أما عبد الناصر نفســه، فقد ســافر إلى الإســكندرية للراحة أياما قليلة بناء على نصائح الأطباء، بعد متابعته المرهقة والمضنية لاســتكمال بناء حائــط الصواريخ ومتابعة التدريبات

العسكرية، ومع ذلك فإن المضى مع المبادرة الأمريكية حتى النهاية أصبح يستلزم قيام مصر بتعيين ممثلها فى تلك المباحثات، وقد تم إخطار السفير يارنغ بأن الدكتور محمد حسن الزيات مندوب مصر فى الأمم المتحدة حينئذ، سيكون هو ممثل مصر فى تلك المباحثات.

كان الدكتور الزيات وقتها يمضى إجازة قصيرة بالقاهرة، وقبل عودته إلى مقر عمله فى نيويورك تم استدعاؤه لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر فى الإسكندرية. وبمجرد أن دخل الدكتور الزيات وبدأ عبد الناصر على الفور يشرح له تصوره لأبعاد المهمة التى سيقوم بها فى نيويورك.

ويقول الدكتور محمد حسن الزيات: إننى لم أكن فى أى وقت من المقربين إلى الرئيس جمال عبد الناصر. ولا ضمن دائرة مستشاريه وكبار مساعديه، ومع ذلك فإننى أدركت يومها مبلغ الصدق والجدية والتصميم الفولاذى الذى يتحدث به عبد الناصر عن احتمالات المستقبل، إن الرئيس كان ودودا ومجاملا إلى أبعد حد. بحيث إنه حينما رأى أن سجائرى نفدت، ذهب إلى الداخل وأتى لى بعلبة سجائر سرعان ما بدأت انفث دخانها سيجارة بعد سيجارة. ولم أنتبه إلا فيما بعد، لحقيقة أن الرئيس نفسه ممنوع من التدخين حسب أوامر الأطباء منذ مدة.

لقد شرح الرئيس عبد الناصر للدكتور الزيات تصوره لأبعاد مبادرة روجرز الكاملة من الناحية السياسية. فهى تعنى انسحاب إسرائيل الكامل من كل شبر فى سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية، بما فيها القدس العربية. وهى تعنى أيضا حق الفلسطينيين فى العودة أو التعويض طبقا لقرارات الأمم المتحدة.

ثم قال جمال عبد الناصر للدكتور محمد حسن الزيات:- اننى واثق تماما، ومقدما، من أنك ستقوم بمهمة التباحث مع يارنغ على أحسن وجه. وأنا واثق أيضا من أنك الرجل المناسب لهذه المهمة الدقيقة، ولكن.. دعنى أصارحك من الآن.. لا تفاجأ بعد هذا كله بأنك لن تصل إلى شىء.. فالذى سيرغم إسرائيل على الإذعان فى النهاية هو قواتنا العسكرية وحدها، ولا شىء آخر.

القدس وحقوق الشعب الفلسطينى

وسأله الدكتور الزيات: سيادة الرئيس.. إننى سأكون فى نيويورك.. ولن أستطيع استشارة القاهرة مسبقا فى كل صغيرة وكبيرة مما يحتمل أن يدور فى المباحثات حينما تبدأ.. فأنا لا

أستطيع العمل بالريموت كونترول.. ولذلك اسمح لى أن أطرح عليك سؤالا صريحا، أرجو أن أعرف منك إجابته الآن، ليس لأننى سأذهب فى أول جلسة مباحثات مع يارنغ وأقول: هذا هو موقف مصر.. ولكن فقط لكى أعرف كمفاوض هناك.. ما الذى يرضيك هنا..

وسكت الدكتور الزيات برهة قبل أن يصوغ سؤاله على النحو التالى: سيادة الرئيس.. ما هو الحد الأدنى الذى لن يرضيك ما هو أقل منه؟.

وقال له جمال عبد الناصر: القدس، وحقوق الشعب الفلسطينى، هذا هو حدنا الأدنى. وطبقا لانطباع الدكتور الزيات، فإن تلك الكلمات خرجت من فم عبد الناصر وهى تحمل أقصى درجة من الهدوء.. والإرادة الفولاذية.

وهنا سأله الدكتور الزيات: فى هذه الحالة.. هل ستوافق على الاعتراف بإسرائيل فى شكل وثيقة تودعها بالأمم المتحدة؟

قال عبد الناصر: نعم.

وفيما بعد، قال لى الدكتور محمد حسن الزيات: طوال عودتى فى الطريق بعدها كنت أتأمل هذا الحوار، وأدركت أن سؤالى عن الاعتراف بإسرائيل كان تحصيل حاصل.. وإجابة الرئيس جمال عبد الناصر عن سؤالى كانت تمثل بعد نظر، ورؤية عميقة، من جانبه، فإذا وصلنا إلى استرداد الضفة الغربية، والقدس، فضلا عن سيناء وقطاع غزة بالطبع، وكذلك الجولان.. وإذا وصلنا إلى إذعان إسرائيل لحق الفلسطينيين فى العودة إلى ديارهم فيما قبل سنة ١٩٤٨ (وهو أقصى ما كان يحلم به الفلسطينيون حينئذ).. فإن ورقة اعتراف بإسرائيل، نودعها فى سجلات الأمم المتحدة، سوف تكون تحصيل حاصل.

وأضاف الدكتور الزيات مبتسما: فى الواقع أنه بتلك الإجابة من الرئيس جمال عبد الناصر تبخرت من ذهنى عشرات الأسئلة التى كنت قد رتبتها فى عقلى، فبإجابته تلك اختصر الرئيس كل الأسئلة وحدد محطة الوصول. لكنى أيضا خرجت بنتيجة أخرى وهى أن الرئيس عبد الناصر لا يضع تفكيره مطلقا فى هذه المبادرة، فتفكيره كله فى القوات المسلحة وفى تحرير الأرض بالقوة وليس بفصاحة الدبلوماسيين من أمثالى.

خطة العبور «جرانيت»

لم يكن اجتماع جمال عبد الناصر بالدكتور محمد حسن الزيات سوى جزء من سلسلة اجتماعات مهمة عقدها عبد الناصر فى تلك الفترة لمراجعة الخطوة القادمة بعد قبول

«مبادرة روجرز». وكان واضحا تماما أن أهم ما يشغل بال عبد الناصر هو الخطط العسكرية المقررة، وهكذا عقد سلسلة اجتماعات مع الفريق محمد فوزى وزير الحربية لمناقشة الخطة «جرانيت» التى تقضى فى مرحلتها الأولى بعبور القوات المسلحة المصرية قناة السويس والتقدم شرقا فى سيناء للاستيلاء على المضايق- على مسافة ٤٠- ٥٠ كيلو متر من قناة السويس، حيث تمثل تلك المضايق نقطة التحكم الاستراتيجية فى سيناء كلها.

طبقا لما هو مقرر فى الخطة، فإن هذا الهجوم العسكرى المصرى الشامل سيتم تنفيذه فى مارس- إبريل ١٩٧١ تحت حماية حائط الصواريخ الجديد فى جزئه الأكبر، ثم ما اسماه عبد الناصر «تعادل جوى محلى» فى المنطقة من القناة إلى المضايق. وعلى الرغم من القيود الدولية التى ارتبطت بها صفقة طائرات الميراج الفرنسية إلى ليبيا، إلا إنه كان من المفهوم استخدامها كوسيلة إضافية للردع- وكان عدد طائرات الميراج التى ستتسلمها ليبيا حتى ربيع ١٩٧٠ يتجاوز ٤٤ طائرة، وذلك بالإضافة إلى الطائرات القاذفة السوفيتية الجديدة، التى تمت كل تجهيزاتها فى مصر وارتبط السوفيات بإرسالها إلى مصر خلال ستة ساعات من طلبها.

وعلى الرغم من أن المقدرة العسكرية المصرية كانت هى المحور الأساسى فى تفكير عبد الناصر، إلا إنه كان يخطط أيضا لحشد مجموعة أخرى من عوامل الضغط تكون مصاحبة لها، وفى هذا الإطار مثلا، جاءت تلك الاتفاقية السرية التى عقدها عبد الناصر مع سوريا فى سنة ١٩٦٩ لتنسيق العمل العسكرى بين الجبهتين المصرية والسورية حينما تحين اللحظة المناسبة.

خطة لضرب المصالح الأمريكية

كذلك، جاءت فى هذا الإطار تعليمات جمال عبد الناصر لجهاز المخابرات العامة فى مصر، بعد أن قرر أن يتولى مسئوليته محمد حافظ إسماعيل. وأصبحت تعليمات عبد الناصر للرئيس الجديد للمخابرات العامة هى إنه: «لم يكن من المستبعد أن تفشل المبادرة الأمريكية.. والمتوقع عندئذ أن تقوم قواتنا بعمليات حربية فى ربيع ١٩٧١ وكان علينا أن نعد أنفسنا لهذا الاحتمال. ولهذا فقد احتل التعرض للمصالح الغربية فى منطقتنا بالتنسيق مع عملياتنا السياسية والعسكرية مكانا هاما فى تقديراتنا. إلا أننا لم نكن غافلين عن طبيعة هذا السلاح ذى الحدين. فبينما كان من المتوقع أن تؤدى الضغوط الاقتصادية

علـــى القـــوى الغربيـــة إلى إرغامها على اتباع سياســـة عادلة تجاه قضيتنـــا.. فقد كان من الضرورى أن نأخذ فى اعتبارنا قدر الأضرار المادية التى يمكن أن تلحق بالشـــعوب العربية نتيجة استخدام سلاح الضغط الاقتصادى ضد القوى الغربية».

ويسترســـل محمـــد حافظ إسماعيل فى مذكراته التى حملـــت عنوان «أمن مصر القومى فـــى عصر التحديات» فى شـــرح تفكير عبد الناصر فى تلك النقطـــة، فيقول إنه: «توقعا لأى قـــرار فى هذا الصدد، فقد بدأنا فى إعداد خريطة كاملة ودقيقة للمصالح الغربية فى المنطقـــة توضح الأهداف التى يمكـــن التعرض لها بالعمل الايجابى» حينما تحين اللحظة المناسبة الوشيكة.

□□□

الفصل الحادى والعشرون

حرب الاستنزاف
أرغمت واشنطن على تغيير موقفها السياسى

- إن تصميمنا على تحرير أرضنا هو الحق الشرعى الأول لأى أمة تعرف لكرامتها قيمة
- مصر تساير المبادرة الأمريكية
- سنة ١٩٦٩ عاصفة فى تاريخ العلاقات الإسرائيلية الأمريكية



حينما وجه عبد الناصر نداءه إلى الرئيس نيكسون فى أول مايو ١٩٧٠ استجابة للرغبة الأمريكية السابقة بأن يختبر جدية الولايات المتحدة فى هذه المرة، كان حريصا على أن يقول فى نفس الخطاب: «إننى أقول للرئيس نيكسون: إن هناك لحظة فاصلة قادمة فى العلاقات العربية الأمريكية إما أن تكرس القطيعة إلى الأبد، وإما أن تكون لها تأثيرات خطيرة أوسع من ذلك وابعد، إن تصميمنا على تحرير أرضنا هو الحق الشرعى الأول لأى أمة تعرف لكرامتها قيمة، اننى أتوجه بهذا كله إلى الرئيس نيكسون لأن اللحظة دقيقة، ولأن العواقب بالغة الخطورة».

وقد جاءت المبادرة الأمريكية الجديدة استجابة لتطورات جرت، وتحسبا لتطورات يمكن أن تجرى وشيكا، وقد أراد عبد الناصر إتاحة الفرصة كاملة أمام تلك المبادرة، لكن ثقته الوحيدة كانت تتركز فى الحل العسكرى، وقد تأكد شعوره هذا أكثر وأكثر بمجرد أن بدأ الأمريكيون فى مسايرة الصراخ الإسرائيلى من حائط الصواريخ المصرى والزعم بأن مصر خرقت ترتيبات وقف إطلاق النار، فحتى لو كان هذا قد حدث جدلا، فإن الولايات المتحدة لم تخطر مصر بالمضمون العملى لتلك الترتيبات إلا بعد أن توقف إطلاق النار فعلا بستة وثلاثين ساعة- وهو الأمر الذى يعكس فى حد ذاته مدى التلهف الامريكى الإسرائيلى على التوصل أولا لوقف إطلاق النار بأى ثمن.. ولكنه يعكس أيضا احتمالا آخر بعدم جدية الالتزام الامريكى بالتقدم نحو التسوية الشاملة بحذافيرها، وفى كلتا الحالتين فإن مسئولية عبد الناصر أولا هى حماية قواته المسلحة وتوفير أقصى إمكانيات النجاح أمامها وهى تستعد لخطط المستقبل الوشيك.

ومن الملفت هنا أن خبيرا أمريكيا يعمل فى مجلس الأمن القومى الأمريكى، وهو هارولد سوندرز، كتب تقريرا سجل فيه بنظرة ثاقبة أنه: «يبدو أن شبكة الصواريخ الدفاعية على القناة تهم المصريين بأكثر مما تهم محادثات السلام».

وفى اللحظة الراهنة سوف تساير مصر هذا الفهم الامريكى عن «محادثات السلام».. ومن هنا جاءت الصورة التى شرحها عبد الناصر للدكتور محمد حسن الزيات بعد تكليفه بتمثيل مصر فى محادثات يارنغ.

لكن تلك المحادثات لم تبدأ فورا فى نيويورك كما هو مقرر طبقا لمبادرة روجرز، ولكنها ستبدأ فقط بعدها بأربعة أشهر جرت خلالها أحداث جسام فى الشرق الأوسط، لقد حاولت

إسرائيل التملص من مبادرة روجرز ولكن الرئيس نيكسون لم يسمح لها بذلك، وفى اللحظة التى لم يعد فيها أمام إسرائيل من مفر سوى الإذعان وتعيين ممثلها فى مباحثات يارنغ حتى يبدأ الاتفاق على الانسحاب الإسرائيلى من سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية طبقا لمبادرة روجرز- جاء الفرج لإسرائيل.. فجأة.

مفاجآت لصالح إسرائيل

إن الطائرات المدنية الأربع التى تم اختطافها ابتدأ من ٦ سبتمبر واحتجاز ركابها الخمسمائة والتهديدات المضادة بين منظمة التحرير الفلسطينية والملك حسين سرعان ما تحولت إلى حرب أهلية دامية فى الأردن، وخلقت تلك الحرب لإسرائيل دورا كانت فى انتظاره وعبأت الولايات المتحدة أسطولها السادس فى البحر الأبيض المتوسط. وجاء الملوك والرؤساء العرب إلى القاهرة فى اجتماع طارئ دعا إليه عبد الناصر، والقيادات الفلسطينية التى كانت تهاجم عبد الناصر علنا باعتبار انه «خائن» و«باع القضية الفلسطينية» تم إنقاذ معظمها من الموت بأعجوبة بفضل عبد الناصر!

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، بعد أحداث مفاجأة- ومريبة- فى الأردن بين الملك حسين وياسر عرفات ودماء تسيل. وقمة عربية طارئة فى القاهرة لوقف المذابح ونجاح القمة. ومغادرة جميع الرؤساء والملوك عائدين إلى بلادهم. ومغادرة أمير الكويت القاهرة عائدا إلى بلاده باعتباره آخر الضيوف المغادرين الذين ودعهم جمال عبد الناصر فى المطار بنفسه كالآخرين أصبح الخبر المدوى عالميا هو: رحيل جمال عبد الناصر، أسبوع واثنان من الإجراءات وتولى أنور السادات رئاسة الجمهورية. لقد أصبح أنور السادات هو خليفة جمال عبد الناصر فى السلطة.

فى أكتوبر ١٩٧٠ كان وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكي موجودا فى نيويورك لحضور الدورة السنوية العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة. وبمناسبة وجود محمود رياض وزير خارجية مصر أيضا فقد دعاه روجرز إلى الاجتماع به فى جناحه الخاص بالفندق «فندق والدورف استوريا»، بعد دقائق من بدء الاجتماع دق جرس التليفون ورفع روجرز السماعة ليجد أن المتحدث إليه هو الرئيس (الامريكى) ريتشارد نيكسون.

روجرز يرد: نعم سيادة الرئيس. بالضبط أنا الآن مجتمع مع مستر رياض.

قال نيكسون: أرجوك أن تبلغه عزائى لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر. إننى اعتز بمعرفتى بهذا الرجل العظيم والذى تبادلت معه الكثير من الرسائل والأحاديث. أرجوك

تكـــرر عزائى للوزير المصرى وللشـــعب المصرى، ولكن.. اسمـــع.. دعنى أتحدث إلى الوزير رياض شخصيا.

ناول روجرز الســـماعة لمحمود رياض فبادره نيكســـون بتكرار العـــزاء مؤكدا مرة أخرى مدى الاحترام الذى كان يحتفظ به للرئيس جمال عبد الناصر ومضيفا: «ولولا أننى استلمت الرئاسة والعلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين بلدينا لكنت جئت إلى القاهرة بنفسى للمشاركة فى الجنازة، لقد تابعتها على شاشـــات التلفزيون ولم أفاجأ بأنها أضخم جنازة شـــاهدتها على الإطلاق، مرة أخرى أكرر لك وللشعب المصرى عزائى.

انتهت المكالمة وبدأ حديث العمل، مستر روجرز يبلغ محمود رياض من جديد بالشكاوى الإســـرائيلية من حائط الصواريخ المصرى، فى هذه المرة يضيف روجرز: لدينا بعض الصور التقطناها نحن جوا بوسائلنا الخاصة ترجح دخول بعض الصواريخ إلى مواقعها بعد سريان وقف إطلاق النار، وأنا على استعداد لتقديم تلك الصور إليكم.

قاطعه محمود رياض قائلا: لســـت على استعداد لتبادل الصور والاتـهامات، يمكننى أن أكرر لك أننا لم نخرق ترتيبات وقف إطلاق النار ولم نحرك الصواريخ. على العكس. لدينا نحن أيضا معلوماتنا الخاصة بأن إســـرائيل أقامت تحصينات جديدة فى ســـيناء بعد وقف سريان إطلاق النار.

أشـــار روجرز من طرف خفى إلى أنه من الممكن تهدئة إسرائيل بسحب صاروخ أو اثنين وبذلك يعود يارنغ- ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة- إلى مهمته.

قال محمود رياض: مســـتر روجرز.. قلناها لكم فى أغســـطس وقلناها لكم فى ســـبتمبر والآن أقولها لكم من جديد.. نحن لن نسحب صاروخا واحدا. أما عن الأمم المتحدة فكلانا أكثر معرفة بالحقائق، كل الأمم المتحدة معنا. وكلها تقر بان إســـرائيل قوة احتلال عليها الانسحاب الكامل من كل شبر ارض عربية.. بغير لف ولا دوران.

وانتهت مشـــكلة الصواريخ المصرية بتضامن المجتمع الـــدولى مع مصر فى قرار الجمعية العامـــة للأمم المتحدة فى ٥ نوفمبر ١٩٧٠، وقام وليم روجرز بحث الســـفير يارنغ على ألا يكتفى بدور الوسيط وإنما عليه المبادرة بوضع برنامج محدد لتنفيذ القرار ٢٤٢- على الأقل بالنســـبة لمصر كبداية. وأخطر يارنغ مصر مقدما بمشـــروعه. وكما هو متوقع جاء مشـــروع يارنغ مقررا انسحاب إسرائيل الكامل من سيناء وقطاع غزة.

إن مشروع يارنغ هذا، والذى كان محركه من وراء الكواليس هو وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى، أعلن رسميا فى الثامن من فبراير سنة ١٩٧١.

لكن أنور السادات كان قد أعلن من قبلها بأربعة أيام فقط مبادرته الخاصة به، والتى أصبحت تمثل انقلابا صامتا فى السياسة المصرية، فهى لا تطمح إلى أكثر من انسحاب إسرائيل لبضعة كيلو مترات شرق قناة السويس، مقابل تعهد مصر بإعادة فتح القناة للملاحة الدولية.

وفى نفس الشهر- فبراير ١٩٧١- استقال يارنغ من مهمته كممثل للسكرتير العام للأمم المتحدة لتنفيذ القرار ٢٤٢، بعد أن أخطرته إسرائيل بأنها لن تنسحب إلى الحدود المصرية مع فلسطين تحت الانتداب- وهو ما لم تجرؤ إسرائيل على أن تقوله من قبل، حتى وهى فى ذروة نشوتها الكبرى فى أعقاب يونيو ١٩٦٧.

ويومها «كان الرجل- يارنغ- مهذبا، فلم يردد ما سمعه الآخرون.. لماذا توافق إسرائيل على اقتراحه بالانسحاب الكامل، إذا كان رئيس جمهورية مصر يقترح فى نفس الشهر أن تقوم إسرائيل بانسحاب جزئى؟!»- على حد تعبير محمود رياض فى مذكراته.

وبعد قليل سيقول السادات: إنه كان يستهدف بمبادرته الخاصة الجزئية فى ٤ فبراير ١٩٧١ إعلان «انتهاء مبادرة روجرز» لأنه «لابد من إنهاء مبادرة روجرز».

كيسنجر يكسب الجولة

ولقد حدث هذا فعلا، فقد حسم الصراع بين وليم روجرز وهنرى كيسنجر داخل الإدارة الأمريكية، بعد أن زال خطر الحرب بين مصر وإسرائيل، لصالح هنرى كيسنجر تدريجيا، وروجرز نفسه لم يعد يستطيع الاستمرار فى الدعوة إلى تنفيذ المبادرة التى اقترنت باسمه.. فى الوقت الذى أصبح فيه الطرف الأول المستفيد منها، وهو مصر، يعمل على «إنهاء مبادرة روجرز»!

لكن إسرائيل كانت تعرف ما لم يشأ السادات أن يعرفه: لقد ظلت تساوم مع السادات، وتزين له طريق الحلول المنفردة، وتشجع استجابته لها، وتقسم علنا بأغلظ الأيمان على أنها لن تنسحب بشكل كامل أبدا من سيناء، فما بالنا بالضفة الغربية والجولان وحقوق الفلسطينيين؟

كان هذا يجرى علنا، ولكن السر كانت إسرائيل تدرك جيدا إبعاد الحقيقة، فلمدة ثلاثين شهرا بعدها، ظلت إسرائيل فى جميع مباحثاتها غير المعلنة مع الولايات المتحدة

تصر على طلب سياسي: أن تعطيها الولايات المتحدة ورقة رسمية تسجل فيها تراجعها النهائى عن مبادرة روجرز!

وسواء كان السادات قد قام «بإسقاط» و«إنهاء» مبادرة روجرز عن معرفة بأبعادها، فإن مبادرة روجرز كانت تقرر: «انسحاب إسرائيل إلى حدود ١٩٤٨ على كل الجبهات (المصرية والأردنية والسورية). وهذا الانسحاب يشمل المستوطنات المدنية، بقدر ما يشمل الجيش الإسرائيلى»- تلك هى اعترافات موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى نفسه بعدها بتسع سنوات فى الصفحة ١٨٥ من مذكراته.

وسواء كانت القيادات الفلسطينية التى رفعت فى سنة ١٩٧٠ شعارات طنانة عن «الخيانة» وعن «بيع القضية الفلسطينية» تعرف أو لا تعرف، فإن مبادرة روجرز كانت تقرر: «انسحاب إسرائيل من كل جزء من المناطق المدارة على وجه التحديد»- أى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وبمقتضى مبادرة روجرز فإن الولايات المتحدة «تتعهد بأن تكون الحدود بين إسرائيل والأردن متطابقة مع خط الهدنة لسنة ١٩٤٩» وأن تتحرر القدس العربية من الاحتلال الإسرائيلى حيث إن «الأردن سيسيطر على النصف الشرقى من المدينة»- تلك أيضا اعترافات إسحاق رابين بعدها بسنوات فى الصفحة ١٢٦ من مذكراته.

وكان انسحاب مناحيم بيغن وكتلته الوزارية من حكومة غولدا مائير لأنه أدرك أن استمراره فى الحكومة «يعنى الموافقة على مبدأ الانسحاب من كل الاراضى العربية المحتلة»- حسب إقرار عيزرا ويزمان الذى استقال معه لنفس السبب.. فى مذكراته هو الآخر.

من هنا اعتبر مناحيم بيغن فى وقتها أن موافقة إسرائيل على مبادرة روجرز معناها اتفاقية «ميونيخ جديدة فى الشرق الأوسط».

ومن هنا أيضا، وبعد سنوات من تعامل إسرائيل مع السادات ودخولهما معا مسالك مختلفة، أصبح أبا ايبان يقرر أن مبادرة روجرز هى «بلا شك واحدة من الأخطاء الكبرى للدبلوماسية الدولية فى فترة الحرب».

وفى حينها اعتبرت غولدا مائير أن مبادرة روجرز هى «كارثة لإسرائيل».. لأنها لا تتضمن فقط انسحاب إسرائيل من كل شبر احتلته فى سيناء وغزة والضفة الغربية، ولكن أيضا لأن هذا سيتم فى مقابل ورقة تودعها مصر والأردن (ثم سوريا فيما بعد) فى سجلات الأمم المتحدة بإنهاء حالة الحرب، وهو ما يسميه إسحاق رابين «حالة رسمية

من السـلام» لا تتضمن على الإطلاق أى اعترافات مع إسرائيل على أى مستوى، ولا حتى مفاوضات مباشرة.

السنوات الثلاث الفاصلة

تلك هى مبادرة روجرز فى أبعادها الكاملة على ضوء الوثائق، وبعد أن كانت غولدا مائير تقرر فى ديسـمبر ١٩٦٩ أن «أى حكومة إسـرائيلية تتبنى تنفيذ مثل هذه الخطة- خطة روجرز- سـترتكب بذلك خيانة لبلدها».. فإنها اضطرت فى يوليو وأغسـطس ١٩٧٠ إلى الإذعـان رسميـا، وإخطار الولايات المتحدة بإذعانها هذا (وهـو ما أدى إلى خروج مناحيم بيغن وكتلته من الحكومة) لأن ثمن الرفض أصبح هو استمرار حرب الاستنزاف المصرية.

إن مبـادرة روجـرز لم تكـن مجرد الورقة التـى وجهها وليم روجـرز إلى مصر والأردن وإسـرائيل فى ١٩ يونيو ١٩٧٠، فتلك الورقـة كانت مجرد الجزء التنفيذى لخطة روجرز التى تم إخطار مصر بها فى نوفمبر ١٩٦٩، وتم إخطار الأردن بها فى ديسـمبر ١٩٦٩ إلا بالقليل جدا من خطوطها العريضة.

وحينما تعهدت الولايات المتحدة رسميا فى مبادرة روجرز بانسـحاب إسرائيل من كل شـبر من الأراضى العربية، وكذلك بحقوق الفلسـطينيين، فإنها لم تكن تفعل ذلك مطلقا لأنها أصبحت فجأة أقل انحيازا لإسـرائيل، أو أكثـر ميلا لعبد الناصر، لقد فعلت ذلك لأن الرئيس الامريكى ريتشـارد نيكسـون يريد أولا المحافظة على المصالح الأمريكية فى الشـرق الأوسـط- وإسـرائيل إحدى تلك المصالح- على ضوء التغير الذى عملته مصر فى توازن القوى.

فمصر المهزومة فى يونيو ١٩٦٧، وبلا قوات مسـلحة وتصميم أمريكى على «إعادة رسم خريطة الشـرق الأوسـط»، اسـتطاعت بإرادة فولاذية وتصميم لا يقهر وبتضحيات وآلام لا حـدود لهـا، أن تحدث تغييرا جوهريا فى توازن القوى الإقليمى خلال السـنوات الثلاثة الفاصلة من يونيو ١٩٦٧ إلى يونيو ١٩٧٠.

حرب الاستنزاف

وكان العامـل الأول، والمحورى، فى هذا التغيير هو حرب الاسـتنزاف المصرية، التى كانت عنصر التفاعل الأساسى فى كل ما تلا ذلك من تغييرات.

فخلال مايو ويونيو ١٩٦٩ كان هدف إسرائيل هو «أن تسحق رغبة مصر فى المضى فى حرب الاستنزاف، فطالما استمرت تلك الحرب فإن الولايات المتحدة ترى أن مركزها فى الشرق الأوسط يتدهور بشكل ثابت، وإسحاق رابين فى موقعه كسفير لإسرائيل فى الولايات المتحدة يقول: «لقد كنت أرى إلى أين تقود حرب الاستنزاف (المصرية) أميركا، وشعرت بالرعب».

وبعد أن كانت إسرائيل تحلم فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ بمفاوضات مباشرة مع العرب، وبعلاقات دبلوماسية واقتصادية مع مصر والأردن وسوريا، وبعد أن أعلن موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أن كل ما سيفعله هو الانتظار إلى جوار التليفون فى انتظار المكالمة الحتمية من الملك حسين، أو ربما جمال عبد الناصر، فإن كل هذا تبخر بسبب حرب الاستنزاف وتضحيات رجال اليوم السابع، وأصبحت الولايات المتحدة مضطرة إلى أن تصارح إسرائيل رسميا بأنه: «إذا أصبحت الصداقة مع إسرائيل هى كل ما يتبقى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، فإن هذا سيصبح نكسة وكارثة للسياسة الأمريكية».. وبأن الولايات المتحدة لا تود أفضل من حصول إسرائيل على حدود مفتوحة وعلاقات دبلوماسية مع الدول العربية ولكن: «إننا لا نستطيع أن نرغم المصريين على أن يحبوكم.. يجب علينا أن نكون واقعيين». ومنذ ديسمبر ١٩٦٩، وفقط بسبب حرب الاستنزاف المصرية، بدأ المسئولون الأمريكيون يقولون لإسرائيل بصراحة: «إن هذا السلام (الذى تريدونه وتحلمون به) لم يعد حقيقة ممكنا الآن».

انسحاب شامل

ولم تكن حرب الاستنزاف المصرية، منذ بدايتها، تستهدف مجرد إرغام إسرائيل على الانسحاب من سيناء، فسيناء، وكذلك قطاع غزة، كانت معروضة على مصر وبتعهد أمريكى منذ ٢ نوفمبر ١٩٦٨، وإسرائيل لم تكن لتجرؤ على اقتراح جعل سيناء، أو جزءا من سيناء، منزوعة السلاح. طبقا لما عرضه رئيس وزراء إسرائيل علنا فى فبراير ١٩٦٩، فنتيجة لإصرار مصر على «أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» حاولت إسرائيل تقديم كل تلك الإغراءات لمصر مبكرا وعلنا ورسميا. ولكن حرب الاستنزاف المصرية استمرت لأن مصر رفضت الثمن السياسى لتلك العروض، وهو عزل مصر عن العالم العربى. وقد جاءت لحظات فى حرب الاستنزاف بدا فيها أن لإسرائيل اليد العليا. وفى المرة الأولى (نوفمبر

١٩٦٨) اضطرت مصر إلى إيقاف الحرب أربعة شـهور، أما المرة الثانية فقد اسـتمرت مصر فى الحرب برغم نجاح إسرائيل فى يناير ١٩٧٠ فى تدمير جانب كبير من الدفاع الجوى المصرى غرب القناة، ووصولها بغاراتها ضد المدنيين فى العمق إلى مشارف القاهرة.

كان السبب الأساسى إذن فى مبادرة وخطة روجرز يرجع إلى حرب الاستنزاف المصرية ودماء الشـهداء المصريين فى تلك الحرب- من الفريق عبد المنعم رياض رئيس هيئة أركان حرب الجيش الذى سـقط شـهيدا على حافة قناة السويس.. إلى أطفال مدرسة بحر البقر- هـى التـى اضطرت الولايات المتحـدة إلى التقدم أخيرا بذلك التعهـد الرسمى الذى مثلته مبادرة وخطة روجرز. إن حرب الاستنزاف لم تكن امتحانا عصيبا فقط للمقاومة المصرية.. لكنها كانت أيضا تعبيرا عن الإرادة السياسية الفولاذية التى حركتها، وتحمل الشعب كله تضحيات جساماً اقتناعا بصحة القضية التى تتم الحرب بسببها.

تهديد المصالح الأمريكية

ومن هنا يجئ العامل الثانى الذى صنع خطة ومبادرة روجرز.. فصلابة الإرادة المصرية، أدى إلى تفاعلات أوسع نطاقا فى العالم العربى. وحينما سارع وليم روجرز وزير الخارجية الامريكى إلى التقاط منبر محدد لكى يعلن منه على وجه السـرعة خطته الأولى فى التاسـع من ديسمبر ١٩٦٩. كان هذا يحدث بتكليف مباشر له من الرئيس ريتشارد نيكسون. وليس تجاوزا له كما يحاول هنرى كيسنجر الإيحاء كذبا فى مذكراته.

لقد كان السـبب ببساطة، وعلى حد تعبير أبا أيبان وزير الخارجية الإسرائيلى وقتها. إنـه: «فى واشـنطن كانت هناك خشـية من أن مؤتمـرا مقررا للزعماء العـرب فى الرباط فى شـهر ديسـمبر سـوف يتبنى قرارات معادية للمصالح الغربية. ولمنع الإضرار بالمصالح الأمريكية قررت وزارة الخارجية، فى ظل وليم روجرز، أن تقدم لفته اسـتباقية إلى العالم العربى. و (هكذا) نشـر روجرز فى ٩ ديسـمبر بيانا سياسـيا يؤيد انسحاب إسرائيل إلى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ بالنسبة لمصر والأردن فى إطار تسوية سلمية».

وكمـا هى العادة، فغن المصادر الإسـرائيلية- وايبان هنا نمـوذج لها- لا تقدم الحقيقة كاملة.. أبدا، والحقيقة هى أنه بسـبب حرب الاسـتنزاف المصرية. وإدراك العالم العربى لصلابة مصر فى المقاومة. أصبح العداء للمصالح الأمريكية فى العالم العربى يتزايد بشـكل ثابت. وفى مايو ١٩٦٩ وقع انقلاب عسكرى فى السودان. مقرر من اللحظة الأولى ارتباطه

بمصر، وفى أول سبتمر من نفس السنة سقط واحد من أكثر النظم السياسية فى العالم العربى ارتباطا بالولايات المتحدة وبالمصالح الغربية، وهو نظام السانوسى فى ليبيا، ومرة أخرى خرج الانقلاب الجديد ليعلن من اللحظة الأولى ارتباطه بمصر، وأصبحت تلك مؤشرات لمن يقرأون الأحداث فى واشنطن باتجاهات المستقبل، التى لابد من احتوائها قبل أن تمتد النيران إلى العالم العربى كله.

تطورات الموقف الدولى

أما العامل الثالث المحرك فى مبادرة وخطة روجرز، فقد كان يتعلق بتطورات الموقف الدولى، إن الاتحاد السوفياتى ساند مصر فى إعادة بناء قواتها المسلحة، وفى ناحية من النواحى، فإن هذا اللقاء فى المصالح كان حتميا، فمصر هى المفتاح الأساسى إلى الشرق الأوسط، وقد وعى السوفيات هذا الدرس مبكرا من قبلها بسنوات.

ومن ناحية أخرى، فإنه مع الدعم الامريكى الكامل لإسرائيل، لم يعد أمام مصر مصدر آخر للتسلح، بالكميات والنوعيات والسرعات المطلوبة، سوى القوة العظمى التالية، وهى الاتحاد السوفياتى، طالما أن مصر جادة حقا فى الثأر عسكريا لهزيمة يونيو ١٩٦٧.

وفى لقاء المصالح هذا- وتلك لغة أساسية فى أى تعامل سياسى- كان جمال عبد الناصر يلاحظ أن: «هناك خلافا داخليا فى القيادة السوفيتية حول الشرق الأوسط، كما أن الأمريكيين لعبوا بهم وخدعوهم. ولذلك ترى القادة السوفيات أحيانا متشددين، وأحيانا أخرى متساهلين». ولقد كان عبد الناصر مستعدا لتحمل كل جهد ممكن، ليس فقط لكى يتعامل مع البيروقراطية السياسية السوفيتية، ولكن أيضا مع البيروقراطية العسكرية، فى الواقع أن جمال عبد الناصر، فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧، جاء بكل الكتب الأساسية التى يتم تدريسها فى المعاهد العسكرية العليا بالاتحاد السوفيتى، لكى يسهر على قراءتها كل ليلة، حتى يستوعب طريق التفكير العسكرى السوفياتى، وبالتالى يستطيع أن يناقش السوفيات من أرضية صلبة.

وكان عبد الناصر يأخذ من السوفيات أقصى ما يمكنه من أسلحة، نوعا وكمية. ومع ذلك كانت تظل هناك بعض نوعيات الأسلحة والاحتياجات العسكرية غير متوفرة لدى السوفيات. فكانت مصر تحصل عليها سرا من الغرب، من خلال الأردن وليبيا ودول أخرى. وعلى سبيل المثال احتاجت القوات المسلحة المصرية إلى نوع من المدافع الرشاشة القصيرة نصف بوصة للدفاع ضد الطائرات على ارتفاعات شديدة الانخفاض. وكذلك

عربــات نصــف جنزير، ولم يكن هذان النوعان متوافرين فى الاتحاد الســوفياتى أو الدول الاشتراكية، فاشترتها مصر سرا من بريطانيا وألمانيا الغربية منذ أواخر سنة ١٩٦٧.

وحينمــا ظهر مــن التدريبات المتكررة على العبور إلى ســيناء ضمــن الخطة «جرانيت» الموضوعة للهجوم الشــامل الذى أصبح مقــررا أن يتم فى ربيع ١٩٧١، أن فتح ثغرات فى الســاتر الترابى المرتفع فى الجانب الشرقى للقناة لابد أن يتم فى أقصر وقت ممكن. ابتكر المهندسون المصريون فكرة استخدام مضخات لدفع المياه بقوة كافية لفتح الساتر الترابى. إن الفكرة جرى استيحاؤها من تجارب العمل فى السد العالى بأسوان، واستقر الرأى فى سنة ١٩٦٩ على أنه الحل الناجح لشــق الثغرات فى الســاتر الترابى شرق القناة لحظة العبور، وعلى الفور بدأت مصر فى اســتيراد النوعية المطلوبة من المضخات ســرا من عدة دول فى أوربا الغربية، على أساس أنها مطلوبة لأعمال مدنية.

سلاح الردع

وقد ظل عبد الناصر يضغط على السوفيات لإمداد مصر بعدد من الطائرات القاذفة طويلة المدى- هى عشر طائرات أسماها السادات فيما بعد «سلاح الردع»- ظل السوفيات مترددين فى البداية، وأخيرا وافقوا، بشــرط أن تظل الطائرات ذاتها فى الاتحاد الســوفياتى وتصل إلى مصر فى خلال ست ساعات من طلبها.

ومع ذلك لم يكتف عبد الناصر بهذا الحل. فحينما قامت ثورة فى ليبيا فى أول سبتمبر ١٩٦٩ حث قيادة الثورة الجديدة على عمل صفقة مع فرنســا لشــراء طائرات ميراج- وهى طائرات طويلة المدى بنفس كفاءة طائرات الفانتوم الأمريكية. ووافقت فرنســا فعلا فى سنة ١٩٧٠ على توريد خمســين طائرة ميراج إلى ليبيا، بعد أن اشــترطت بالطبع عدم نقلها إلى طــرف ثالث، مع ذلــك كان الطيارون المصريون هم الذين ذهبوا إلى فرنســا للتدريب على الميراج، على أنهم ليبيون ويحملون جوازات سفر ليبية.

ومبكــرا (فى ١٤/ ٢/ ١٩٧٠) طبقا لمحضر اجتماع عقده العقيد معمر القذافى مع جمال عبد الناصر فى القاهرة، أشــار عبد الناصر إلى العقد الفرنسى بتوريد الخمسين طائرة ميراج إلى ليبيــا قائــلا: «لابد أن تحاولوا تعديل العقد ليكون توريد الطائرات عام ١٩٧١ بدلا من عــام ١٩٧٢. لأنــه لا يمكننا تأجيل المعركة حتى ذلك العام، لابــد أن تبدأ المعركة ونعبر القناة (هذا) العام ١٩٧٠، أو على الأكثر خلال ١٩٧٠/ ١٩٧١».

ويومها رد العقيد معمر القذافى: «بمجرد عودتى سأجرى اتصالات عاجلة مع فرنسا من أجل تعديل عقد الميراج ليتم توريدها فى المواعيد المطلوبة».

وكان الموقف الفرنسى سياسيا على وجه الخصوص يجعل الولايات المتحدة شبه معزولة داخل اجتماعات مندوبى الدول الأربع الكبرى فى نيويورك طوال سنتى ١٩٦٩ و١٩٧٠، لأن فرنسا كانت تفسر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ منذ اللحظة الأولى على أنه ينص على انسحاب إسرائيل من كل «الاراضى المحتلة».. وليس «أراضى محتلة» كما حاولت إدارة ليندون جونسون قبل ذلك تفسيره.

مأساة السياسة الأمريكية

وسوف يأتى وقت فى المستقبل، طبقا للوثائق التى يسجلها هذا الكتاب، حينما ستقوم فرنسا بإخطار مصر رسميا بأن رئيس مصر قد خذلها بشكل مذهل، ولصالح إسرائيل التى وقفت فرنسا ضد غزوتها فى يونيو ١٩٦٧ بمثل هذا الوضوح والحزم.. إن فرنسا تستطيع أن تتحمل نتائج هذا الخذلان، ولكن.. هل تستطيع مصر؟!

ولقد كانت الولايات المتحدة تمارس سياستها فى الشرق الأوسط من خلال جهازين رئيسيين هما: وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومى الأمريكى.. بينما يقوم الرئيس الأمريكى نفسه بترجيح أحدهما على الآخر.. أو باستخدامهما معا، ولذلك، فبينما كانت وزارة الخارجية تمثل الوجه المعلن للسياسة الأمريكية.. إلا أن مجلس الأمن القومى هو الذى كانت تنبثق منه السياسة الأخرى السرية، وغير المعلنة، والتى تعتمد بالضرورة على القنوات الخلفية وأجهزة المخابرات.

ومن مجلس الأمن القومى هذا انبثقت حرب يونيو ١٩٦٧، والتى كانت تستهدف «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط» كما توضح المذكرة السرية التى قدمها والت روستو إلى الرئيس ليندون جونسون فى السابع من يونيو ١٩٦٧، وطوال رئاسة جونسون كانت اليد العليا فى البيت الأبيض الامريكى هى للسياسات السرية فى الشرق الأوسط، ولكن، مع مجئ الرئيس نيكسون إلى السلطة فى سنة ١٩٦٩، مر بعض الوقت قبل أن يتأكد من فشل السياسة السرية.. فلا مصر انهارت، ولا جمال عبد الناصر سقط، ولا العالم العربى تسابق إلى عتبات البيت الأبيض، فى نفس الوقت فبدلا من تراجع النفوذ السوفياتى فى المنطقة، فإنه تزايد تماما، على عكس ما كانت تستهدفه تقارير مجلس الأمن القومى الامريكى.

وفى مصر مثلا، ارتفع عدد الخبراء والمستشارين السوفيات من ١٢٠٠ فى يوليو ١٩٦٧، إلى نحو سبعة آلاف فى يوليو ١٩٧٠، بما فى ذلك الوحدات المقاتلة التى تقوم مؤقتا بحماية العمق المصرى من الغارات الجوية الإسرائيلية المتوحشة ضد المدنيين حتى تتفرغ مصر لبناء قواتها المسلحة- والتى كانت أول خطوة من نوعها يقوم بها الاتحاد السوفياتى منذ الحرب العالمية الثانية.

وكانت مأساة السياسة الأمريكية فى تلك الفترة، على حد تعبير جمال عبد الناصر، هى أنها «تنفق» فى منتهى السذاجة، ثلاثين ألف مليون دولار فى فيتنام من أجل وقف امتداد النفوذ الشيوعى فى جنوب شرق آسيا، بينما تترك السوفيات يكسبون مكانة كبيرة فى الشرق الأوسط، وبثمن بخس، «من خلال تدعيم إسرائيل لتصبح القوة العسكرية المسيطرة فى المنطقة».

وبالتدريج، بدأت وزارة الخارجية الأمريكية، فى رئاسة ريتشارد نيكسون، تسترد دورها الطبيعى فى صياغة السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط، وبدعم واضح من الرئيس نيكسون، الذى منع كيسنجر مستشار الأمن القومى فى هذه المرحلة من أى تدخل مباشر فى سياسات الشرق الأوسط على وجه الخصوص، وأصبح الرأى السائد داخل الإدارة الأمريكية هو أن حرب الاستنزاف المصرية تؤدى بشكل ثابت إلى تدهور المصالح الأمريكية فى المنطقة، والنظم القليلة الباقية على علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة مهددة بالعزلة، إن لم يكن بالانهيار فعلا كما حدث فى السودان، ثم فى ليبيا- بعد أن سجلت الأخيرة أول طلباتها، وهو إلغاء القاعدة الأمريكية فى هوبلس.

حسابات مصالح

من هنا بدأت المبادرة الأمريكية- التى أطلق عليها اسم «خطة روجرز» و«مبادرة روجرز»- كجنين واضح المعالم منذ سنة ١٩٦٩، وفيما بعد تبين أن سنة ١٩٦٩ بالذات كانت «سنة عاصفة فى تاريخ العلاقات الإسرائيلية الأمريكية»- على الرغم من أن كلا الطرفين تكتم ذلك فى حينها، ولبعض الوقت ظلت ولادة الجنين الجديد متعثرة، حيث كانت الولايات المتحدة ما زالت تأمل- من خلال الورقة التى قدمتها إلى الاتحاد السوفيتى فى ٢٨ أكتوبر ثم الورقة المعدلة إلى مصر فى ٨ نوفمبر ١٩٦٩- فى دق إسفين بين مصر والاتحاد السوفيتى.

وحينما فشلت تلك المحاولة فى حينها، جرى تقديم خطة ومبادرة روجرز بالطريق الطبيعى إلى مصر، وبشرط إبلاغها إلى الأردن فى نفس الوقت كما طلبت مصر، والالتزام بتطبيق نفس المبدأ بالنسبة للجولان بمجرد أن توافق سوريا على القرار ٢٤٢.

وتلك أذن هى الحسابات التى شكلت المبادرة الأمريكية (١٩٦٩/ ١٩٧٠) المعروفة إعلاميا باسم خطة «روجرز» و«مبادرة روجرز». وحسابات المصالح، وانعكاس تغيير حقيقى فى توازن القوى الاقليمى نجحت مصر فى إحداثه بإرادة سياسية فولاذية، إن حرب الاستنزاف كانت هى العامل المحورى فى التغيير، والذى أدى إلى كل التفاعلات الأخرى فى المنطقة وخارجها.

وحينما بدأ الرئيس الجديد فى مصر، أنور السادات، مبكرا فى اتصالاته السرية مع الإدارة الأمريكية، ومن خلال مندوب وكالة المخابرات المركزية، فإن تلك الاتصالات كانت تصب فى مكتب شخص محدد، هو هنرى كيسنجر، مستشار الرئيس نيكسون للأمن القومى.

إنه نفس الشخص الذى قدم استقالته من قبل احتجاجا على نجاح المقاتلين المصريين فى التقدم بشبكتهم الصاروخية نحو القناة، إن كيسنجر لن ينسى مطلقا أن الإدارة الأمريكية وقفت كلها ضده فى محاولاته الملتوية ضد مبادرة روجرز، ومحاولاته جر الولايات المتحدة إلى مواجهة مع الاتحاد السوفيتى بحجة أنه قام بإذلال الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، ولكن بهدف معاقبة المصريين الذين فشلت إسرائيل. بقنابل زنتها عشرين ألف طن يوميا، وتعادل تأثير قنبلة ذرية. فى منعهم من التقدم بحائطهم الصاروخى نحو القناة.

وليس هناك من دليل على أن السادات كان يعرف- أو حريص على أن يعرف- بذلك الصراع السياسى داخل الإدارة الأمريكية. وقطبيه هما هنرى كيسنجر ومجلس الأمن القومى من ناحية.. ووليم روجرز ووزارة الخارجية من ناحية أخرى.

لكن السادات كان يعرف على وجه التأكيد شيئا أساسيا وجوهريا كان كل المصريين يعرفونه وفخورين به. التضحيات التى تحملتها مصر كلها لكى تصل بحائطها الصاروخى إلى قناة السويس. لقد سارت حرب الاستنزاف فى خطوط متعرجة طويلة، بضربات موجعة تحملتها مصر من إسرائيل. وضربات موجعة أخرى ألحقتها بإسرائيل. وفى النهاية فرضت حرب الاستنزاف أهدافها على الجميع. لقد نهضت القوات المسلحة المصرية من جديد، وفى ثلاث سنوات فقط بينما لم يكن العدو يتوقع مثل هذا النهوض قبل عشر سنوات وبالتزام سياسى محدد. ورسمى. من الولايات المتحدة التى بدأت تفكيرها من اليوم

السابع من يونيو ١٩٦٧ من فكرة «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط». والذى أوصل هذا الالتزام الامريكى إلى ملفات الحكومة المصرية هو طابور من الشهداء المصريين وتضحيات من جميع الشعب المصرى طوال ثلاث سنوات.

الذين سقطوا فى ميدان القتال، أو داخل مدارسهم ومصانعهم، وكذلك لثلاثمائة ألف آخرين أصبحوا معبئين فى القوات المسلحة المصرية استعدادا لمعركة مقررة سلفا، وتحدد هدفها مقدما، وقال عنها جمال عبد الناصر مبكرا أنها: «ستكون حاسمة وفاصلة فى المنطقة».

همسات

فى سنة ١٩٧١ كان هناك همسات وأحاديث.. هناك جدل يعود إلى السطح من جديد محوره هذا السؤال: هل سنحارب بما لدينا من أسلحة.. أو ننتظر الحصول على المزيد منها؟، فى الواقع أنه سؤال تقليدى كلاسيكى له دائما إجابتان.. هناك جنرالات يصرون على المزيد من الأسلحة حتى ولو كانت ربما لا تأتى أبدا.. وهناك جنرالات آخرون يرفضون من الأصل الدخول فى هذه الدائرة المفرغة.. فحتى لو حصلنا على أسلحة إضافية.. سيحصل العدو أيضا على أسلحة إضافية مضادة.. وبامتداد التاريخ كله لم يحدث أبدا أن بدأ جنرال حربا وهو راض عن أسلحته أو لا يتمنى المزيد منها.

وفى ربيع ١٩٧٢ وفى مطار القاهرة الدولى كان اللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وأحد رجال اليوم السابع قد انتهى لتوه من توديع أحد الرسميين الأجانب.. فجأة وجد أمامه اللواء احمد إسماعيل رئيس المخابرات العامة.. بعد سلامات وتحيات ومجاملات.. فالجمسى عمل مع أحمد إسماعيل من قبل فى مواقع عسكرية عديدة وهناك مودة متبادلة.

وانتحى احمد إسماعيل بالجمسى جانبا وسأله هامسا: «قل لى يا جمسى.. متى ستحاربون؟

فكر الجمسى لحظة قبل أن يرد: سنحارب حينما تصبح أنت وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة.

الجمسى حويط. صحيح الصداقة عميقة والود متبادل ولكن أحمد إسماعيل ليس عابر سبيل، إنه رئيس المخابرات العامة. وبهذه الصفة لابد أن تكون الصورة واضحة عنده تماما كما هى عند الجمسى، ثم ختم الجمسى الحديث مداعبا: لازم يعنى نتكلم فى السياسة؟.

وفـــى أكتوبر ١٩٧٢ وفى اجتماع غير معلن جمع أنور الســادات كبــار قيادات القوات المســلحة المصرية وهم جميعا عايشــوا المعاناة والتضحيات التـــى تم بها إعادة بناء القوات المســلحة وحجم التضحيات التى تمت خلال بناء حائط الصواريخ المصرى، فالحرب أصلا قرار سياسى، والآن القرار هو: نحارب بالإمكانيات المتاحة.

بعدهــا بيومين أصبح احمد إسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المســلحة، الآن بدأت عقارب الساعة تتحرك بعد طول توقف، الآن يعود «رجال اليوم السابع» إلى الاندماج فيمــا أعدوا من أجلــه وتدربوا علية وحفظوه عن ظهر قلب وآمنــوا منذ الدقيقة الأولى بأنه الخيار الوحيد.

صورة تذكارية

بعض رجال اليوم الســابع: عبد المنعم رياض.. أحمد حمدى.. إبراهيم رفاعى.. شطا.. تيمور.. محمد.. صليب.. عبد العاطى.. ميخائيل.. الشــوان.. مصطفى.. حســين.. سيد احمد.. رفعت.. ســعيد.. عبد ربــه.. ويصا.. عبد العال.. محمود.. صدقى.. ســليمان.. إبراهيم.. محمود عوض..و........ و........ و......... أحياء عند ربهم يرزقون.

□□□

بقيت كلمة

فى سبتمبر ٢٠٠٨ استيقظ الأستاذ من نومه لينظر حوله فيجدنى نائما أسفل فراشه بالقرب منه.. مد يده ليمسح بها على رأسى فاستيقظت فرحا بعودة الوعى إليه.. فقد كان مصابا بأزمة حادة نتيجة أزمة نفسية ألمت به نتيجة ابتسار رأيه فى أحد الحوارات التليفزيونية.. كانت أنفاسه مازالت متقطعة.. وجسمه منهكا ووجهه شاحبا.. وأخذ ينظر حوله.. هنا تنبهت إلى ما يريد.. إنه لا يريد كوبا من الماء أو طعاما يتناوله أو حتى غطاء يلتحف به.. على الفور مددت يدى لأناوله الصحف. هنا نهض جالسا على الفراش ولم ينتبه إلى خرطوم الدواء المعلق فى يده. واندمج فى القراءة..

بعد أن صرح له الأطباء بالعودة إلى المنزل. فى السيارة فاجأنى.. تعرف يا طه أنا عايز إيه... اخرج كتاب اليوم السابع إلى الناس..!

قد لا يعتقد أحد أن هناك من هم يعيشون حياتهم ويستمدون قيمتهم وأنفاسهم أيضا من العطاء.. والعطاء لا ياتى إلا عن علم.. والعلم لا يأتى إلا بالبحث والتدقيق والتمحيص.. ثم يتحول الباحث بعد ذلك إلى لسان أو قلم وتحول الأستاذ إلى كلاهما.. وكان القلم هو دفتر أحوال حالة الأستاذ النفسية.. عاش معه وعاش به وسرعان ما تحول الأستاذ نفسه إلى قلم.. أحدث نجاحا لمؤسسته وقت كانت تتباهى بأنها الأولى فى الشرق الأوسط.. وأحدث نجاحا فى كل الصحف والمجلات العربية عندما اضطر قلمه إلى الغربة القصرية عن جريدته فازداد قلمه تألقا.. وتحول إلى مدرسة صحفية تشع الثقافة وتبسط اللوغارتمات.. وظل مصريا عربيا حتى النخاع مؤمنا ببلده، محبا لها على رغم إنه رأى الوجه المظلم لا لشىء إلا لأنه نجح مبكرا. كان كما قال عنه صديقه الراحل أحمد بهاء الدين.. لو فتحت رأس محمود عوض ستجد بداخلها ألف فكرة وفكرة للعطاء وكلها أفكار ضد الرصاص.. ولن تجد بينها فكرة واحدة تخصه هو شخصيا.

والآن حتى لا أنساق وراء حديث ليس هذا وقته.. ولكن لأننى سمعتها منه وشجعنى عليها أحباء وأصدقاء وزملاء عملت معهم. فها أنا ذا أضع كتاب الأستاذ بين أيديهم.. حلمه الذى كان على وشك الدفع به إلى أحبائه رجال اليوم السابع وقرائه الذين كان يستمد منهم قوته وتلاميذه الذين أدين للكثير منهم بالشكر والتقدير.. وأحبائه الذين جعلونى لا

أشـــعر بأن جواهرجى الكلمة وعندليب الصحافة وصاحب الأسلوب السهل الممتنع وأستاذ الصياغة والذى ظل يعطى إلى آخر لحظة ما بين صلاة العصر وأذان المغرب من يوم الجمعة صائما واضعا القلم والمصحف والمسبحة ونظارة القراءة على مكتبه على رغم تكاثر الآلام عليه ويودعنا الأستاذ دون استئذان..

شكرا لكل المصريين.. فما شاهدت أحدا أعرفه أو لا أعرفه إلا وترحم عليه.

لقد عاش حياته قلما حرا محبا لمصر وما عليها وما حققته.. فأحبه الجميع.

يبقى أن أشير إلى أن دورى كان مجرد إخراج مادة الكتاب إلى الدار التى اختارها لتكون ناشرة لكتبه.. فإن كان هناك شيء أو ملاحظة أو تقصير فهو منى.

طه عوض

الأخ الصغير



كتب للمؤلف

دراسات سياسية

- ممنوع من التداول- (دار الشروق)- الطبعة السابعة
- أفكار إسرائيلية- (كتاب الاذاعة)- الطبعة الثانية
- الحرب الرابعة- سرى جدا- (المكتب المصرى) الطبعة الثالثة
- متمردون لوجه الله- (دار الشروق)- الطبعة الثالثة
- وعليكم السلام- (دار المستقبل العربى)- الطبعة الثالثة

دراسات أدبية

- أفكار ضد الرصاص- (دار الشروق/ دار المعارف) الطبعة التاسعة سلسلة اقرأ دار المعارف
- شخصيات- (دار المعارف)- الطبعة الثانية
- سياحة غرامية- (دار الشروق)- الطبعة الرابعة
- مصرى بمليون دولار- (مكتبة الانجلو)- الطبعة الثانية
- أوراق إلى حبيبتى- (دار الشروق)- الطبعة الاولى
- من وجع القلب- (دار المعارف)- الطبعة الأولى
- بالعربى الجريح- دار المعارف

دراسات فنية

- أم كلثوم التى لا يعرفها أحد- (كتاب اليوم)- الطبعة الرابعة
- محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد- (دار المعارف)- الطبعة الثالثة

فى الرواية والقصة

- أرجوك لا تفهمنى بسرعة- (روز اليوسف)- الطبعة الثالثة
- شئ يشبه الحب- (كتاب اليوم) الطبعة الاولى

تحت الطبع

- مختارات
- مع محمود عوض

ملحق الصور والوثائق



عبد الناصر تبين أبعاد المؤامرة فى ٥٦ فطلب من العرب عدم التدخل



المشير أحمد إسماعيل قائد الجبهة بعد النكسة مع الرئيس عبد الناصر



الفريق عبد المنعم رياض مع الرئيس جمال عبد الناصر
فى إحدى زياراته للجبهة



المدمرة إيلات

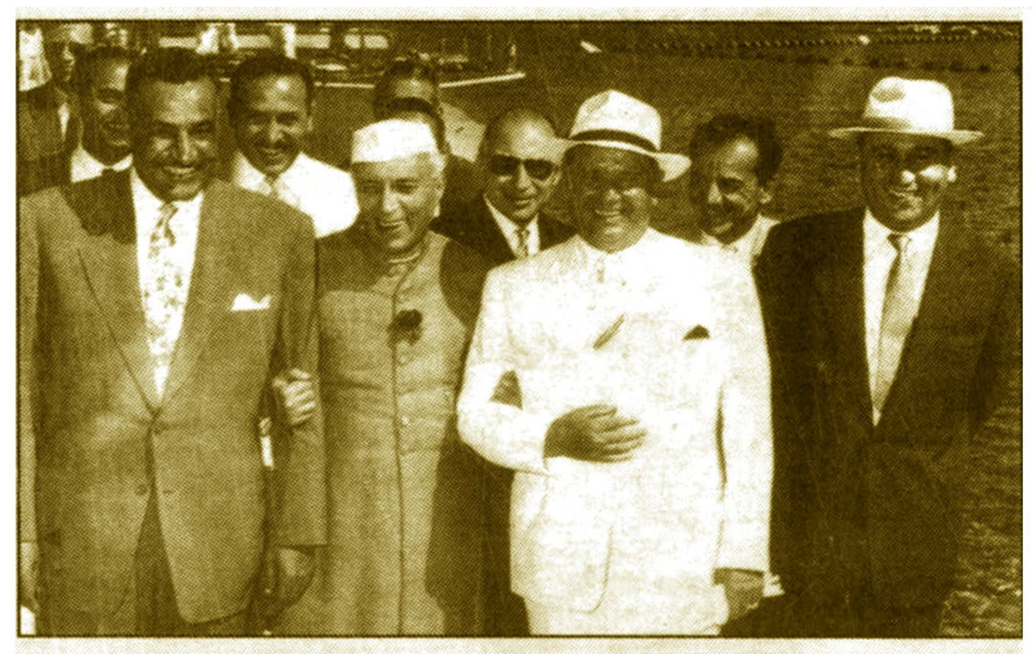




جمال عبد الناصر قائد ثورة يوليو في إحدى خطبه



جمال عبد الناصر مع خروشوف



ناصر مع قادة عدم الانحياز، نهرو وتيتو.. بعد أن صار رمزا للتحرر الوطني في مواجهة قوى الاستعمار



..في المستشفى العسكرى.. يعصر الليمون على الشوربة



السادات مع د. كيسنجر وجسور من الثقة



عبد الناصر! لقد عرفوا كيف يصطادوني

محمود رياض وزير الخارجية

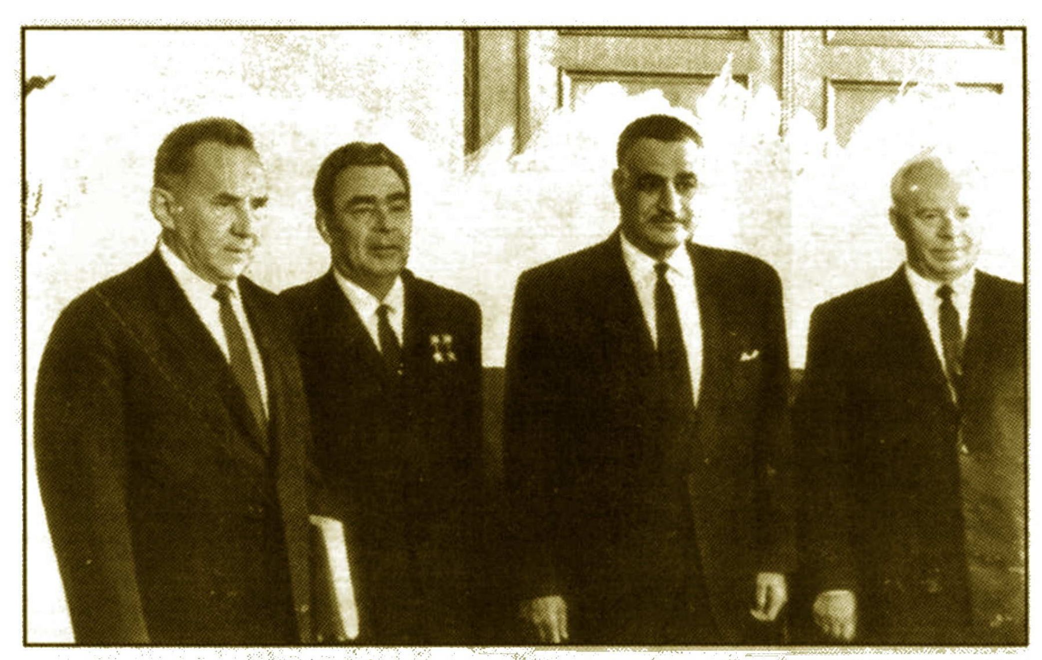




وليم روجرز



المشير أحمد إسماعيل والجمسى مع الرئيس السادات فى غرفة العمليات



ناصر مع القادة الروس فى زيارته الأخيرة لموسكو



السادات قائد العبور مع رجال القوات المسلحة.. ولحظة لا تنسى



وثيقة تنشر لاول مرة

رسالة روجرز الى محمود رياض

منذ يونيو ١٩٦٧ ظل الصدام بين السياسيين الاميركية والمصريين يدور حول نقطة جوهرية واساسية : ان الولايات المتحدة تعرض على مصر انسحابا اسرائيليا كاملا من سيناء وحدها ، منفصلا عن مصير الاراضي العربية المحتلة الاخرى .. بينما مصر ترفض هذا الحل المنفرد وتصر على ان تأتي الضفة الغربية والجولان قبل سيناء في اي تسوية سلمية .

وفي التاسع من نوفمبر ١٩٦٩ وقع اول تغير جوهري في السياسة الاميركية بسبب حرب الاستنزاف الدامية التي اعلنتها مصر ومضت فيها رغم كل التضحيات . في هذا اليوم تلقت مصر رسالة من وزير الخارجية الاميركي وليام روجرز ، كان اهم فقراتها هو ان الوزير الاميركي يسجل رسميا لاول مره استجابة حكومته لاصرار مصر على الربط بين سيناء والاراضي العربية المحتلة الاخرى .

ان هذه الرسالة ، التي ننشر هنا لاول مرة ، اصبحت فيما بعد هي الخطوة الاولى لطرح ما سمي بعد ذلك « خطة روجرز » .. ولم ترد على هذه الرسالة بالقبول او الرفض فورا. الى ان تلقت الاردن رسميا الجزء الخاص بالضفة الغربية بعد شهر ، وهو ما اعتبرته اسرائيل اكبر هزيمة اميركية لها منذ تبلمهاق الشرق الاوسط.

وهذه الرسالة تلقاها دونالد بيرجيس الوزير المفوض ورئيس قسم رعاية المصالح الاميركية بالقاهرة حيث كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر واميركا مقطوعة رسميا منذ حرب يونيو ١٩٦٧ » .. وبدوره قام بنقلها فورا الى السفير صلاح جوهر وكيل وزارة الخارجية المصرية ، وهي مخطوطة موجهة الى محمود رياض وزير الخارجية .. والنص الكامل لهذه الرسالة — الذي ينشر هنا لاول مرة — يمضي على النحو التالي :

« القاهرة — ع.ع.م.

٩ نوفمبر ١٩٦٩

صاحب السعادة ،

لي الشرف ان انقل اليك نص رسالة من وزير الخارجية تلقيتها في السابعة والنصف من صباح اليوم

عزيزي السيد الوزير :

« لقد طلبت من الوزير بيرجيس ان ينقل اليك من خلال السفير جوهر النص الحالي لما امل في انه سيكون ورقة عمل مشتركة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . لقد طلبت ايضا من الوزير بيرجيس ان يشرح لحكومتكم بالكامل المنطق الذي نضعه على اساسه ورقة العمل الاميركية السوفياتية المشتركة » .

« انني ابعث اليك بهذه الرسالة المختصرة بروح المحادثة الصريحة التي جرت بيني وبينك في نيويورك . لقد شعرت خلال تلك المحادثة بانه يوجد قدر كبير من التفهم بيننا ، خصوصا بالنسبة للمصاعب التي تواجهها كل من حكومتينا في السعي الى السلام في الشرق الاوسط . واذا ادركنا جميعا الفرص القائمة ، فانني على ثقة من امكانية احراز تقدم لصالح كل شعوب الشرق الاوسط . انني امل ايضا بثقة سيكون من الممكن في الاشهر المقبلة اقامة علاقات افضل بين حكومتينا . »

« وبناء على ذلك فانني الح على ان تعطي حكومتكم لمشروع ورقة العمل الاميركية السوفياتية التي ترجات الاهتمام والتعاطف . انها تمثل جهدا متوازنا في محاولة ملاقاه الاهتمامات الرئيسية لكلا الجانبين . »

« انني اعرف انك مهتم بالكيفية التي سيمكن بها مراعاة الجوانب الاخرى من التسوية العربية الاسرائيلية الشاملة .. واستطيع ان اؤكد لك بثقة لا توجد لدينا النية لمحاولة فصل الجانب المتعلق بـ ع.ع.م. من الاجزاء الاخرى .. فنحن نرى التسوية كما ترونها ، تسوية متكاملة وشاملة . ان المطلوب هو استجابة ايجابية من حكومتكم للورقة الاميركية السوفياتية المشتركة .. على اساس الفهم بان القوى الكبرى تستطيع حينئذ المضي من غير ابطاء للتركيز على الجوانب الاخرى من التسوية . وكما تعرف ، فلا يمكن ان يتم اي تطبيق الا حينما يكون هناك اتفاق على كل عناصر المشروع المتكامل».

« انني اتطلع الى تلقي استجابتك ».

المخلص :

« توقيع » وليام روجرز

وثيقـــة تنشــر لاول مـــــرة

في ٣١ يناير سنة ١٩٧٠ ، وبعد سلسلة متصاعدة من الغارات الجوية الاسرائيلية في العمق المصري ، وضد السكان المدنيين بالقرب من القاهرة ، بعث اليكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي برسالة عاجلة ، وغير معلنة ، الى الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون .

وبمجرد ان بدأ الرئيس نيكسون في دراسة مضمون الرسالة السوفياتية السرية مع مستشاريه .. قال مستشاره للامن القومي هنري كيسنجر ان هذه الرسالة تمثل « أول تهديد سوفياتي » يوجه الى الادارة الامريكية الجديدة برئاسة نيكسون .. وهو الامر الذي يتطلب « ردا حازما » .

نص تلك الرسالة ، المنشور هنا صورة صفحتها الاولى ، تمضي على النحو التالي :

عزيزي السيد الرئيس ،

« طبقا للمعلومات المتوافرة الآن لدى القيادة الاسرائيلية ، وبتجاهل لقرارات مجلس الامن ، بدأت في الحقيقة ، مرة اخرى ، اعمالا عسكرية ضد دول عربية ، بما في ذلك قصف مراكز سكانية في الجمهورية العربية المتحدة

من رئيس وزراء الاتحــاد السوفياتي الى رئيس الولايات المتحدة : اول تهديد سوفياتي غير معلن الى الادارة الجديدة

تقع بجوار القاهرة وبالقرب منها . ان الهجمات لا يتم شنها فقط على الاهداف العسكرية في ج.ع.م والاردن ولكن ايضا على السكان المدنيين ، والمدن ، والمنازل المأهولة ، كما يتم تدمير المنشآت الصناعية ومنشآت اخرى . ان اهداف هذه الاعمال المغامرة واضحة ـ ارغام الدول العربية المجاورة على قبول طلبات اسرائيل . وكل هذا يحدث في وقت لا تقوم فيه ج.ع.م « الجمهورية العربية المتحدة » والدول العربية الاخرى بتوجيه اي ضربات انتقامية ضد اسرائيل ، تنفيذا لقرارات مجلس الامن » .

« في هذه الحالة ، تماما بمثل ما ترسم سياستها الشرق اوسطية ، فان القيادات الاسرائيلية كما يبدو تنطلق من حقيقة ان الولايات المتحدة الامريكية سوف تستمر دائما في المستقبل في مساندة ودعم اسرائيل ، وانه في هذه الاحوال لن تستطيع القوى الاربع العظمى قدرة على التوصل الى رأي مشترك حول تنفيذ قرارات مجلس الامن » .

« ان الخطر قائم من ان الاعمال العسكرية في المستقبل القريب يمكن ان تتخذ نطاقا اكبر ، وان قرارات مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة ستفقد هيبتها امام الرأي العام الدولي .. » .

ثم تنتقل الرسالة السوفياتية بعد ذلك الى اخطر فقراتها حينما يوجه رئيس الوزراء السوفياتي تحذيرا غير مألوف من « استمرار اسرائيل في مغامراتها » لان هذا يعني ان الاتحاد السوفياتي سوف يكون مضطرا الى العمل على أن يكون لدى الدول العربية الوسائل التي تمكنها من الرد على المعتدي المتغطرس » .

فرنسا تختلف مع اميركا وتدين الغارات الاسرائيلية ضد مصر

في رسالة تنشر لاول مرة من الرئيس الفرنسي بومبيدو

اثارت الرسالة السرية التي بعث بها اليكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي في ٢١ يناير ١٩٧٠ الى الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون برسالتين مماثلتين بعث بهما الى الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو ، ورئيس الوزراء البريطاني هارولد ويلسون . وبينما جاء الرد البريطاني على الرسالة السوفياتية في المطلقة منسجما مع الموقف الاميركي من تحميل مصر مسؤولية حرب الاستنزاف الدائرة في الشرق الاوسط ، فان رد الرئيس الفرنسي جاء مختلفا مع الموقف الاميركي البريطاني .

وهذه الرسالة الجوابية من الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو الى رئيس الوزراء السوفياتي تبدأ كما يلي :

« السيد الرئيس

« اشكرك على رسالتك التي تفضلت بارسالها الي في ٢ فبراير وتتعلق بمخاطر الموقف في الشرق الاوسط .

« انني اشاركك القلق بالنسبة لتوسيع العمليات العسكرية في هذه المنطقة . ان هذا يؤدي فقط الى اشعال النار واعاقة السعي الى حل سلمي كانت فرنسا تسعى اليه دائما في نشاطها » .

« ومن ثم فانني اعتقد ان من الضروري قبل كل شيء تجنب اي اجراءات يمكن ان تزيد من التوتر في الشرق الاوسط » .

« ان انتهاكات الهدنة ايا كانت تتصادم مع القرارات التي تبناها مجلس الامن كمرحلة اولى في ٦ و٧ و٩ يونيو ١٩٦٧ . والامر لا يحتاج الى القول بان هذه القرارات تظل قائمة وتظل اساسا لا غنى عنه بالنسبة لاي تسوية حقيقية » .

« لقد عبرت حكومتي ، كما عبرت حكومتكم ، مرات عديدة عن اسفها من حقيقة ان تلك القرارات عوملت باهتمام قليل في المنطقة ذاتها . لقد اشرنا بشكل متكرر الى ان انتهاكات الهدنة قد تؤدي الى تصعيد للعنف لا يمكن التحكم فيه ، وكذلك الى تهديد السلام . وفي كل مناسبة اكدنا على الحاجة الملحة للحل السياسي » .

« انني اؤمن بان الموقف الحالي يدلل على ضرورة الاستمرار بتصميم في الجهود التي يقوم بها الاعضاء الدائمون في مجلس الامن بنيويورك من اجل وضع مقترحات مشتركة حول شروط تنفيذ قرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ . وفي الحقيقة فان من الضروري استئناف المهمة التي اناطها القرار بممثل السكرتير العام للامم المتحدة في المستقبل الوشيك » .

وثيقة تنشر لاول مرة

من رئيس الولايات المتحدة الى رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي : سنستمر في تقديم الاسلحة الى اسرائيل .. ومصر هي المسؤولة !

لاول مرة ، هذا هو نص الرسالة التي بعث بها الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون في ٤ فبراير ١٩٧٠ الى اليكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ردا على رسالة الاخير اليه قبل اربعة ايام ، فيما اعتبر وقتها نذيرا بالحرب العالمية الثالثة وتكذبه الشواهد المطلبان تماما .

عزيز السيد الرئيس

ان رسالتك في ٣١ يناير جرت دراستها بعناية . والولايات المتحدة من جانبها تنوي الاستمرار في جهودها للمساعدة في اقامة سلام عادل بين الاطراف بما يتمشى مع قرار مجلس الامن بالامم المتحدة الصادر في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ . وكذلك في التشجيع على تطبيق قرار الامم المتحدة بوقف اطلاق النار ، ليس فقط من جانب واحد ، ولكن من جانب كل الاطراف المعنية .

انني استطيع ان اؤكد لك يا سيادة الرئيس ان هذه سياسة راسخة للولايات المتحدة .

اننا لا نتفق مع وجهة النظر التي عبرت عنها الحكومة السوفياتية في تفسير الموقف الحالي بالشرق الاوسط . ونحن نستخدم باستمرار نفوذنا لدى كلا الجانبين مطالبين لهما بالمراقبة الصارمة لوقف اطلاق النار . وبناء على ذلك فان اي تلميح بان الولايات المتحدة ضالعة في انتهاكات وقف اطلاق النار وتشجع عليها ، هو بلا اساس .

اكثر من ذلك ، فان محاولتك تحميل المسؤولية لجانب واحد هو امر لا تؤيده الحقائق ، حيث ان الانتهاكات المتكررة لقرارات الامم المتحدة بوقف اطلاق النار قد قام بها كلا الجانبين . ان المراقبة التامة على كل الجبهات ، بما في ذلك منع هجمات حرب العصابات ضد اسرائيل ، يمكن ان يساعد على خلق مناخ اكثر ملاءمة لتحقيق تقدم في طريق التسوية .

وكما اشرت فان الولايات المتحدة قبيل تلقي رسالتك ، ناقشت هذه المسألة مع كل من اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة ، وطالبت كلا الجانبين بالتنفيذ الصارم لقرارات الامم المتحدة بوقف اطلاق النار . اننا ننوي الاستمرار في هذه المناقشات من اجل ان نحقق عودة سريعة لوقف اطلاق النار بين اسرائيل والجمهورية العربية المتحدة .

ثم تمضي رسالة نيكسون بعد ذلك الى ان تتهم مصر بانها هي التي تعمدت اشعال دائرة التصعيد العسكري طوال سنة ١٩٦٩ ، وان الولايات المتحدة ترقب بعناية التوازن العسكري النسبي في الشرق الاوسط ، ولن تتردد في تقديم الاسلحة الى الدول الصديقة — يقصد اسرائيل — اذا ظهرت الحاجة الى ذلك .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة لابد منها	٥
الفصل الأول: الفخ الإسرائيلى الأمريكى	٩
الفصل الثاني: الوثائق تكشف المخطط	٢٩
الفصل الثالث: الإشارات الأمريكية والرفض العربى	٣٩
الفصل الرابع: الرفض الشعبى والرسمى للاستسلام	٤٩
الفصل الخامس: الضربة المصرية الأولى «ايلات»	٦٣
الفصل السادس: وثائق المفاوضات غير المعلنة بين مصر وأمريكا	٧١
الفصل السابع: القرار ٢٤٢ والصياغات المراوغة	٨٥
الفصل الثامن: المراوغة الإسرائيلية تجمد القرار ٢٤٢	١٠١
الفصل التاسع: وقف حرب الاستنزاف (الولادة الجديدة)	١١٣
الفصل العاشر: العروض الإسرائيلية والرفض المصرى	١٢٣
الفصل الحادى عشر: التوحش الإسرائيلى	١٣٩
الفصل الثاني عشر: القرارات المصيرية	١٥١
الفصل الثالث عشر: قنبلة ذرية على مصر	١٦١
الفصل الرابع عشر: الجانب السرى للتوسلات الإسرائيلية	١٧٧
الفصل الخامس عشر: الوعود الأمريكية لمصر	١٨٧
الفصل السادس عشر: المقترحات الأمريكية	١٩٧
الفصل السابع عشر: أسبوع تساقط الطائرات	٢٠٧
الفصل الثامن عشر: مصر تقبل رسميا مبادرة روجرز	٢١٧
الفصل التاسع عشر: مفاجآت القفزة الأخيرة	٢٢٧
الفصل العشرون: خطة العبور جرانيت	٢٣٩
الفصل الحادى والعشرون: حرب الاستنزاف أرغمت أمريكا	٢٥١
بقيت كلمة	٢٦٧
ملحق الصور والوثائق	٢٧١



طبع بمطابع دار المعارف

بكل التواضع، وأيضا بكل الاعتزاز، أقول: إن النسبة الكبرى من الوثائق التى ستنشر بالكتاب هى وثائق يتم نشرها لأول مرة، بل إننى أزعم أن الحقائق الجديدة التى سيكشف عنها هذا الكتاب _ إذا صدقت النوايا _ تؤدى إلى إعادة النظر فى كثير من المفاهيم السائدة طوال السنوات الأخيرة..

إننى أرجو أن يحمل هذا الكتاب بعض العزاء لشهداء الجيل الذى أنتمى إليه.. فهذا الجيل دفع ثمن تلك الحرب عن اقتناع، وبنفوس راضية وقلوب مطمئنة إلى صحة القضية التى حاربوا من أجلها. وكثيرون منهم ضحوا بمستقبلهم، وكثيرون ضحوا بحياتهم فى سبيلها، وبإصرار على حياة أفضل لعالمهم العربى كله.

فعلوا هذا إيمانا بقضية محددة، قضية.. أن تكون لك كرامة، وأن تعيش مرفوع الرأس، وبالنسبة لهم لم تكن تلك القضية جملة تقال بشكل عابر فى حديث.. أو مزايدة فى خطاب عام، لقد كانت قضية حياة.. أو موت، وقد اختاروا الموت.



دار المعارف

٠١/٠٣٤٥٢٠


Exclusive
For
www.ibtesama.com
حصريات مجلة الابتسامة